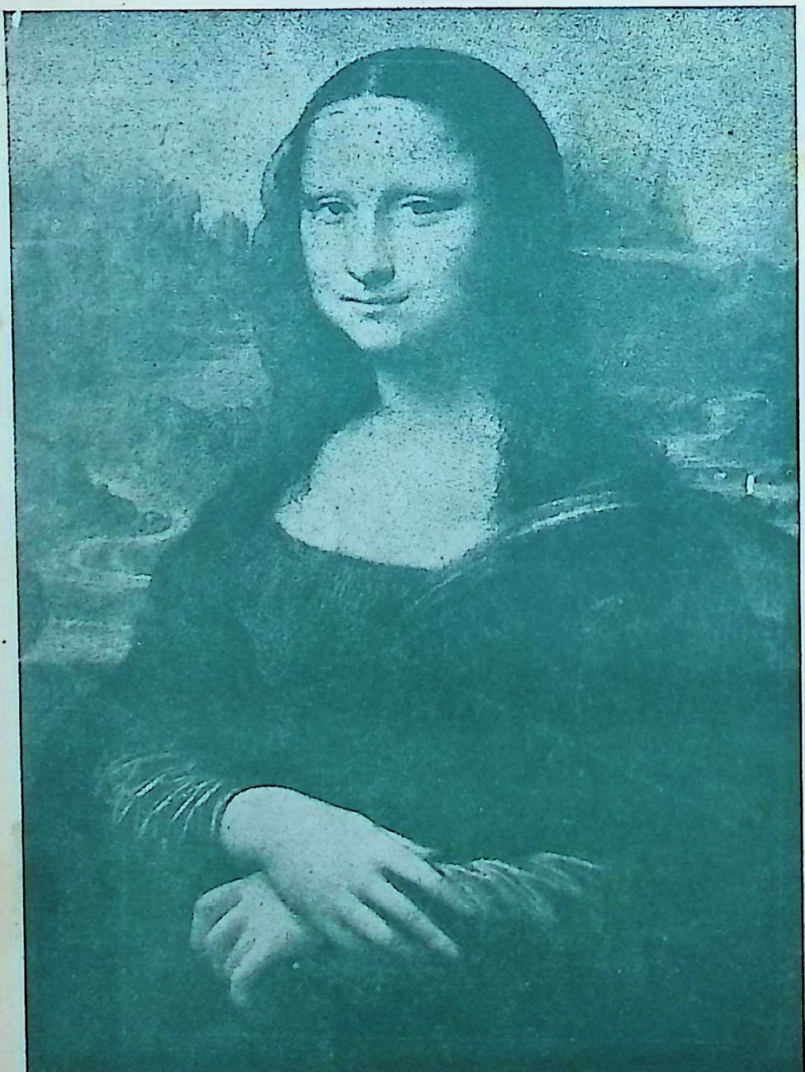
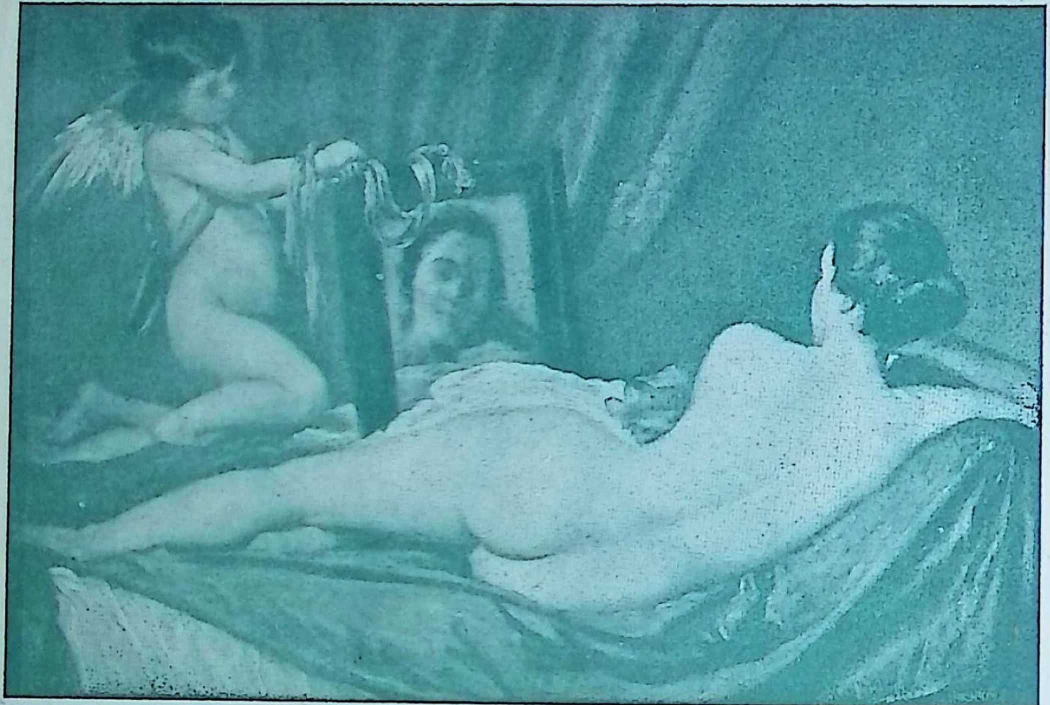

كتابي
١٠ قروش
حلمي مراد
فن الحب
وكتب أخرى



مونا ليزا (جيوكندا)   اللوحة الخالدة لليوناردو دافنشى



فينوس .. وابنها كيوبيد !

للرسام الاسبانى الخالد «فيلا سكويز»

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

تأليف حلمي مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثامن والعشرون (السنة الثالثة) : يونيه ١٩٥٤
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

عزيزى القارئ ..

◆ فى الكتاب القيم العميق الذى نشره الرئيس جمال عبد الناصر أخيرا بعنوان « فلسفة الثورة » ، فقرة هامة (فى صفحة ٦١) قال فيها الرئيس : « .. **ولست أدرى لماذا أذكر دائما عندما أصل الى هذه المرحلة من أفكارى، وأنا جالس وحدى فى غرفتى شارد مع الافكار، قصة مشهورة للشاعر الايطالى الكبير « لويدجى بيراندللو » أسماها (ست شخصيات تبحث عن ممثلين) !.. ان ظروف التاريخ مليئة بالابطال الذين صنعوا لانفسهم أدوار بطوله مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه . وان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الابطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل الى دائما ان فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به . ثم لست أدرى لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا ان نتحرك ، وان ننهض بالدور ونرتدى ملابسه ، فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به ..** »

والقصة الايطالية التى يشير اليها الرئيس — و « كتابى » ينتهز هذه الفرصة فيحيى فى سيادته سعة اطلاعه وسعة أفقه — هى مسرحية غاية فى العمق ، وغاية فى الطرافة فى الوقت نفسه ، ومن ثم رأيت من حقك على أن أتيح لك فرصة الالمام بها ، اشباعا لشوقك الادبى الذى لابد راودك وأنت تقرأ اشارة الرئيس اليها ، وتحقيقا لرسالة كتابى الذى آليت على نفسى أن يضطلع بها ، وهى أن يكون لك بمثابة الدليل الثقافى الامين فى سياحتك الفكرية فى رياض الآداب العالمية وربوعها .. **لذلك قدمت لك المسرحية المذكورة فى مكان آخر من هذا العدد ، جنبا الى جنب مع مجموعة الكتب التى انتقيتها لك هذا الشهر ، والتى تنتقل بذهنك وأنت جالس فى عقر دارك من روما القديمة ، مع شاعرها الخالد « أوفيد» .. الى لندن ومصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، مع السياسى والمؤرخ الانجليزى المنصف «بلنت» — الذى ألهمه الله ان يفضح خفايا سياسة بلاده الاستعمارية البغيضة .. ثم نتابع رحلتنا الى باريس القرن العشرين ، فى صحبة الروائية الفرنسية المعاصرة « كوليت » .. ومنها الى ايطاليا الحديثة مع « بيراندللو » .. فالى مجتمعات مصر والشرق فى رفقة الكاتب الثائر خالد محمد خالد.. الخ ..الخ**

وفى انتظار عودتك من تجوالك مع كل هؤلاء ، أتمنى لك رحلة سعيدة .. والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

اعـــداد نفدت

كتابى الاول : « خطــايا الحب » وكتب أحرى ، وكتابى الثانى : « قلب عذراء » وكتابى الثالث : « الهــاربة من الجنــة » وكتابى الــرابع : « حــواء الجــديدة » وكتابى الخامس : « أحدب نوتردام » وكتـــابى السادس : « جريمة حب » .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى الســابع « عشــيقة نابليــون » ، والثــامن « مــذكرات كيوبيد » ، والتاسع « صنم تحطــم » ، والعاشر « حديقة الله » ، والحادى عشر «عندما تحقد المرأة» ، والثانى عشر «لعبة الحب والموت» ، والثالث عشر «توبة خاطئة» ، والرابع عشر «ايها الربيع ترفق» ، والخامس عشر «الشيطان على الارض» ، والسادس عشر «ليدى هاملتون» .والسابع عشر «الارملة المرحة» والثامن عشر «حياة جورج صاند» ، والتاسع عشر «حياة سارة برنــار» ، والعشرون « رباعيات عمر الخيام » ، والحادى والعشرون « حياة بتهوفن » ، والثانى والعشرون « حياة موسولينى » ، والثالثوالعشرون « كوخ العم توم » والرابع والعشرون «الزوج والعشيق» والخامس والعشرون «البوهيميــة» ، والسادس والعشرون «فتاة لها ماض» والسابع والعشرون «ترويض النمرة !»

◆ وتطلب من صاحب كتابى ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٢ ، و١٦ ، و٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، وثمن كل منها بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، والعدد العشرون وثمنه عشرون قرشا (تحديدا للطلبات نظرا لوشك نفاده وعدم امكان اعادة طبعه)

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER أو بشــيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبــل العملة الاجنبيــة أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

الاشتراكات

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والســودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة .. وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طــريق مكاتب البريد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب شركة فرج الله للمطبوعات فى بيروت وفى بغداد (بشارع السنك ، بغداد)



رمال العاشقة

قصة مصرية : بقلم محمد بدر الدين خليل

- ١ -

سيدى :

قد تعجب اذ يطالعك خاتم البريد على غلاف هذه الرسالة باسم « الغربانيات » ٠٠ فما أظنه قد خطر لك يوما أن ثمة بلدة تحمل هذا الاسم ، وترقد بين أحضان الصحراء المترامية غربى الاسكندرية ٠٠ وما أظنك الا ستعجب حين تعلم أن فى هذه البلدة الصحراوية المنعزلة ، تعيش فتاة مثقفة لا تقل فى شىء عن أولئك اللائى اعتدت أن تتخذ منهن بطلات لقصصك ٠٠ فتاة من خريجات الـ « دام دوسيون » بالاسكندرية ٠

آه !٠٠ أكاد أرى علامات الدهشة ترتسم على جبينك اذ تصل الى هذه النقطة من رسالتى ، ولكنى أرجو أن تدخر كل انفعال من هذا القبيل الى نهاية الرسالة ٠٠

كنت الابنة الوحيدة لاب شركسى الاصل ، وأم فرنسية تعرف اليها أثناء دراسته فى فرنسا ، فتزوج منها رغم ما كان يوقن منه ، من أن هذا الزواج لن يخلف غير القطيعة والشقاق بينه وبين أهله ٠٠

وفعلا وجد القطيعة فى ارتقابه ٠٠ قطيعة متعنتة جعلته يعتزل أسرته عزلة تامة ، ويقتطع نصيبه من ميراث أبيه عن نصيب اخوته فيستقل به ٠٠

وتصادف فى تلك الاثناء أن أفلست شركة كانت قد قامت ابان حكم الخديو عباس حلمى ، فسيطرت على مساحة من أراضى الصحراء الغربية ــ لقاء أسهم وامتيازات للخديو ــ وراحت تجتذب أولئك الذين زين لهم حب الخديو للصحراء ونجاحه فى استغلال أراضيها أن يقتدوا به ٠٠ فمنهم من حلا لهم أن يقيموا منازل فى جوف الصحراء ، يترددون عليها فى عطلات

نهاية الاسبوع وبعض شهور الصيف حيث الجو يهزأ بما يزعمه علماء الجغرافيا من أن جو الصحراء « حار جاف صيفا » .. كما اعتادوا أن يلقنونا في المدارس !

ومنهم من عمدوا الى زراعة البساتين ، فاذا التربة تستجيب منشقة عن أشجار الفواكه – من كروم وتين ونخيل – كأنها ألسنة تبرز ساخرة من أولئك العلماء الذين يقضون العمر يرددون كالببغاوات نظريات – لا يحاولون تحرى صحتها – عن أن « الصحراء أرض قاحلة مجدبة لا تثمر » !

على أن الخديو لم يكد يهوى عن عرشه ، حتى أحاطت النوائب بالشركة اذ انهار ما كانت تستند اليه من نفوذ .. ولم يطل عمر « حسين كامل » ، ثم خلفه من بعده « فؤاد » الذى كان مفلسا محروما ، فلم يكد زمام السلطان يؤول اليه ، حتى مضى يجمع فى جشع .. وكانت الشركة من ضحايا نهمه فلم تلبث أن أفلست ، بينما كانت أراضى « الخاصة الملكية » تزدهر !

ولست أدرى ما الذى أوحى الى أبى أن يستغل ثروته فى شراء الاراضى المتخلفة بعد تصفية الشركة .. وحل محلها فى دور المالك الاقطاعى حقا .. فقسم الاراضى وراح يتحكم فى البدو الذين أقبلوا يبتاعونها منه بالتقسيط ، أو يتولون زراعتها على أن يشاطرهم محصولها !

ولست أخجل يا سيدى اذ أعترف لك اننى كنت أشمئز من أساليب والدى التى كان يتبعها فى معاملة هؤلاء الاهالى وفى السطو على حقوقهم .. أجل ، لا تعجب .. فقد كانت فى نفسى ناحية من الطيبة لم تدنسها العنجهية الشركسية التى خالطت دمى منذ مولدى ، والتى خلقت فى نفسى كبرياء طائشة كانت توحى الى بأننى أرفع وأسمى من البدو ، بل ومن المصريين العاديين ، لاننى أجمع بين العنصرين الشركسى والفرنسى ..

* ١

◆ **نهايته !** ٠٠ فى هذه البلدة التى تحمل رسالتى خاتم بريدها ٠٠ فى « الغربانيات » ، أنشأ والدى « فيلا » أنيقة أحاطها بحديقة أنيقة ، وأعدها لاقامتنا عندما كانت المدرسة تسرحنى فى الصيف ، حيث كان الجو ألطف وأنقى من جو الاسكندرية و « بلاجاتها » ، وحيث كان والدى يشرف على جمع محصول الشعير الذى يتم نضجه فى أوائل الصيف ٠٠

وكنت مدللة الى أقصى حد ، لا سيما بعد وفاة أمى ٠٠ فكان أبى لا يألو جهدا فى ارضائى ، حتى انه ابتاع لى جوادا صغيرا « بونى » اعتدت أن أمتطيه مرتدية بنطلونا (شورت » وقميصا « سبور » ، ثم أجوس خلال المزارع المترامية حول «اقطاعيتنا!»، أشاهد البدو وهم يجمعون المحصول أو يرعون الاغنام أو يملأون الدلاء من الآبار ٠٠

وأخذ برعم كيانى يتفتح فى تلك الاثناء عن زهرة شبابى ، وانتقلت الى تلك المرحلة التى تراود كل فتاة فيها الاحلام الوردية الزاهية ٠٠ فبدأت أحن الى فارس تصورته فى أحلام المراهقة أبيض البشرة ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، سمهرى العود ، أحد اثنين : اما تركيا ، أو فرنسيا ٠٠ وقد غفلت فى سذاجة الاحلام عن أن الدين والتقاليد تحول دون زواجى من فرنسى !

وبدأت مشاعرى تتبلور فى تلك الاثناء ، فعرفت الوحدة والوحشة ، لا سيما بعد وفاة أمى ٠٠ وبعد أن تخرجت فى « الدام دوسيون » ٠٠ ولما كان أبى قد اعتاد أن يقضى معظم أيامه فى الصحراء يشرف على أعماله وشئونه ، فاننى لم ألبث أن ألححت عليه فى أن أكون دواما بجانبه ، وأن نقيم فى «الفيلا» الصحراوية بالغربانيات ٠٠

◆

◆ **وبدأت** اقامتى فى الصحراء راضية مطمئنة ، وقد ارتحت للعزلة الهادئة الناعمة ، واستطبت زمالة « دى موسييه » و « جورج صاند » و « مارسيل بريفو » ٠٠ واستعذبت الاجواء الخيالية التى كانت تتيحها لى المجلات القصصية المصرية التى بدأت فى ذلك الحين ـ منذ خمس عشرة سنة ـ تغزو أسواق الادب المصرى ، وتحطم الجمود القديم الذى ران على ذلك الادب ٠٠

غير اننى لم ألبث أن أحسست بالملل يتسلل الى نفسى ، فأخذت ألوذ بالخيال الذى اكتنزه ذهنى مما قرأت ، والذى أذكته فى أعماقى أحلام الانوثة المبكرة ٠٠ ومن هذا الخيال خلقت جوا هانئا أعيش فيه ٠٠ فأخذت ألجأ الى « البونى » الصغير أمتطيه وأنطلق به ـ كأمريكيات البرارى اللائى كنت أقرأ عنهن فى القصص ـ فأجوس خلال مزارعنا ، وأزور خيام البدو وكأننى أكتشف مغارات من قبل التاريخ ٠٠ وكثيرا ماكان يرافقنى التابع الذى وضعه والدى فى خدمتى ـ فى زيه الصحراوى وبندقيته على كتفه ـ فأخال نفسى احدى أميرات البادية فى « ألف ليلة وليلة » ، أو فى بعض الروايات التى وضعها كتاب فرنسيون عن مراكش والجزائر ٠٠

ـ ٢ ـ

◆ **ولذت** لى الحياة على هذه الوتيرة ، فاستسلمت لامواجها تحملنى مترفقة الى شاطىء مجهول لم يستطع خيالى يوما ان يبلغه ، اذ كان كلما اقترب منه ازداد المجهول بعدا ونأيا .. ولم يك ثمة ما يضايقنى سوى شىء واحد .. كنت اشعر أن ثمة فراغا فى حياتى .. كان ثمة شىء ينقصنى دون أن أدرى كنهه أو اتعرف على ماهيته ! ... كان بنفسى ظمأ ، وكان جهلى بما يطفىء هذا الظمأ يبعثنى على الشعور بأننى اسيرة حيرة مستبدة ، تطورت الى ثورة متمردة راحت تعتمل فى أعماقى ، فيزداد ضغط الأبخرة المتصاعدة منها على جدران قلبى الحائر المعنى ٠٠

وكنت قد بلغت اذ ذاك السابعة عشرة ، وقد سبق نموى ركب العمر ، فاذا بى أبدو فى رشاقة وانوثة ابنة الخامسة والعشرين .. ولعل هذا كان من نتائج الحياة المترفة التى نشأت فى احضانها ، ومن اثار الرياضة والجو الصحراوى ..

وفجأة ، حدث التطور الذى غير كل حياتى .. تطور لم يكن ليخطر لى على بال ، ولا تمثله خيالى يوما ..

ففى ذات مساء ، كنت أجلس مع « دادة فاطمة » وقد ضايقنى أن تألبت عناصر الطبيعة فحالت بينى وبين نزهة ليلية كانت نفسى تهفو اليها .. فقد كان القمر فى تلك الليلة بدرا ، وكانت اشعته تنساب على رمال الصحراء ، فتحيلها الى خليط من الذهب والفضة ، تحيط به هالة من رواء فاتن .. وراق لى أن اخرج ، ولكننى لم اكد اعد عدتى ، حتى انقلب الجو فجأة – كعادته فى شتاء الصحراء – واذا بريح باردة تهب مشبعة برائحة الماء ، دليلا على تساقط المطر فى بعض جهات قريبة ، ونذيرا باتجاه السحب الى ناحيتنا ..

واضطررت الى البقاء فى البيت .. واشتد هبوب الريح ، فأغلقنا النوافذ ، وانكمشنا كأهل قلعة حاصرها العدو فعزلها عن العالم .. وزاد من حنقى ان كنا ننتظر عودة ابى من الاسكندرية فى ذلك المساء ، فاذا بقطار المساء يفد من المدينة وابى ليس بين ركابه !

وحاولت ان اتلهى عن ضيقى بالقراءة ، ولكن زئير الريح ووقع المطر كانا يشغلاننى عن أن أركز ذهنى فى ما حاولت ان اقرأ .. وفجأة ، سمعت صوتا غريبا وسط لحن الطبيعة الثائرة .. وما لبثت ان تبينت انه ازيز محرك سيارة .. ثم انبعث دوى « كلاكس » مرتفع ، تبعه صوت باب البيت يفتح ..

وقفزت من مكانى وقد ظننت ان والدى آثر العودة بالسيارة .. واسرعت الى خارج الغرفة .. وعلى ضوء مصباح الغاز القوى « الكلوب » – الذى كنا نستعمله فى الاضاءة فى الصحراء ، لم ار والدى ، **وانما رأيت شابا فى معطف « ووتر بروف » أنيق ، وقد بدا شعره متناثرا فى فوضى بثتها الريح السافية .. بينما قبعت عيناه خلف « نظارة » ذات لون أزرق خفيف ..**

*

ولم ار فى مظهره ما يدل على انه من أولئك المدنيين الذين اعتدت أن أراهم فى البادية أو فى بلدة «الحمام» ، حيث المركز وحيث أكبر أسواق الصحراء التى يرتادها التجار والموظفين من أبناء المدن ..

وحيانى الشاب باحترام ، قائلا فى لهجة نمت عن ثقافة :



ـ باردون يامدموازيل .. كنت قادما من القاهرة بسيارتي في طريقي الى بلدة الحمام ، ولكن الظلام والمطر وانقطاعي عن الصحراء منذ سبع سنوات ، اجتمعت على ان تضلني عن الطريق ..

ونظرت اليه مأخوذة، وهو ينطلق في حديثه ببساطة وأدب وألفة ، وكأنما امره يهمني : « واذ رأيت الضوء في نوافذكم ، تذكرت « فيلا » مراد بك شوقي ـ التي عرفتها في صغرى .. مذ كنت في الجامعة ، وكنت أقضى الصيف في الحمام ، حيث مركز تجارة والدى ـ لذلك لجأت اليكم ، عسى أن تسمحوا لاحد أتباعكم بأن يصحبني ليرشدني الى الطريق.. »

وكنت أصغى اليه وأنا ذاهلة .. لم أكن قد سمعت حديث أهل المدن من زمن ، فما بالك والمتكلم كان شابا .. وشابا تبدو أناقته غريبة في الصحراء الثائرة .. ثم صوته .. كانت في صوته نبرة رقيقة أثارت في نفسي اعجابا خفيا !

وارسلت معه احد الرجال ، رغم ان مسعود ـ تابعي ـ نبهني الى ان الشاب لم يكن سوى « يسرى » نجل الشيخ فتح الله غريب ، الذى كان من كبار تجار الصحراء الغربية ، والذى كان اجرأ غريم ناوأ والدى وتصدى لايقاف طغيانه على حقوق الاهالى البدو !

*

ونسيت الحادث مع توالى الأيام ، فلم تبق منه سوى ذكرى ، نسج حولها عنكبوت الاهمال غلالة في ركن بعيد في اغوار ذاكرتي .. فلم يعد يتبدى لى ـ في بعض الاوقات التي كان يحلو لى ان انبش خلالها ذكرياتي ـ سوى صورة باهتة مهتزة للشاب في معطفه « الووتر بروف » وشعره المشعث ، وحديثه الهادىء السليم ذى النبرة الحلوة .. ومع ذلك فان هذه الصورة غير الواضحة استطاعت ان تعكس على صورة فارس احلامي ـ الذى كنت ارسمه في خيالي ـ بعض خطوط غيرت من تصميمها الأصلى ..

حتى كان ذات يوم ، قصدت فيه الى سوق بلدة الحمام للنزهة والفرجة والتسرية .. واذا بى أصادف الشاب مرة أخرى ..

وارتبكت اذ تقدم لتحيتي حين رآني ، وراح يلح فى دعوتى الى بيت اسرته .. وكان الموقف غريبا أمام البدو الذين كانوا يحتشدون فى السوق .. كانت جرأة لا تقرها تقاليدهم ، ان يتقدم شاب لتحية فتاة ، على مرأى من القوم دون خجل أو استحياء .. وكان الأدعى للدهشة والاستنكار ان اباه المحبوب لدى الناس لطيبته وحرصه على مصالحهم ، كان غريما لأبى الذى لا أستطيع أن أنكر انه كان بغيضا لديهم لظلمه وقسوته فى تقاضى حقوقه ، وايقاعهم فى شراك القانون لتجريدهم من املاكهم التافهة عند عجزهم عن سداد أى دين له أو أى قسط من اثمان الأراضى التى كانوا يشترونها منه !

على أننى ـ ورغم هذه الظروف ـ وجدتنى انساق الى اجابة الدعوة، بينما كان تابعى « مسعود » لا ينفك يهمس فى اذنى يحذرنى من غضب والدى ان علم اننى قبلت ضيافة ابن غريمه ! .. وكأنما كانت الاقدار تصر على ان تدفع « يسرى » الى طريق حياتى .. اذ التقيت فى دار اسرته باخته ، فاذا بها فتاة فى مثل سنى ، وفى مثل ثقافتى ، وان لم تدرس فى نفس المعهد الذى تعلمت فيه ..

وكان لزاما ان ادعو « سناء » مع اخيها « يسرى » لتناول الشاى فى دارنا ، بعد أيام ، ردا لكرمهما ..

ولن أطيل عليك ، فقد بدأت اتزاور وسناء بعد ان عاد اخوها الى عمله فى القاهرة .. وتوطدت بينى وبينها صداقة، سارع فى توطيدهاتقارب السن وتناسق الثقافة وشعورنا بأننا كنا كغريبين من وطن واحد تلاقيا فى غربة كانت تمضهما ..

وكان من الطبيعى ان تعن لى فرص لقاء يسرى او سماع انبائه ، فبدأت أشعر نحوه باهتمام غريب .. واخذت افطن الى ان صورته التى كانت مهملة فى اعماق ذاكرتى قد نشطت ـ بدفع قوة خفية ـ فنفضت عنها غبار الاهمال وراحت تزداد وضوحا وترددا على خيالى واحلامى ..

- ٣ -

◆ **وجاء** « يسرى » الى الصحراء فى الصيف التالى .. ولم أك أدرى نبأ مقدمه .. ولكننى كنت اجوس على صهوة جوادى ذات اصيل بين حقول الشعير ، حين رأيت شابا يقبل على جواد اشهب ، كفارس من فرسان العرب أيام الحروب الصليبية .. وكان يسرى ! .. وتصافحنا .. ودعوته الى تناول الشاى ، ولكنه اعتذر اذ اشفق ان نحرم من مناظر الغروب الرائعة فى الصحراء ..



وعجبت لهذا الذوق الشاعرى لديه .. وخطر بنا جوادانا وقد أسرنى منه حديثه الساحر عن القاهرة والاسكندرية ، وعن غرامه بالصحراء وجمالها وروعتها .. وبدا لى كشاعر ينظم قصيدة غزل .. فى البادية !

وتكررت لقاءاتى مع يسرى فى نزهات كنا ننطلق فيها على جوادينا فى الخلاء المترامى .. الى أن كانت ذات ليلة تغيب فيها أبى فى الاسكندرية ، وخرجت فى احدى نزهاتى الليلية ، واذا بى أفاجأ بيسرى عند كثيب من الرمال بعيدا عن « الفيلا » .. وراعنى ان رأيته للمرة الاولى قد تخلى عن زيه المدنى ، وارتدى ثياب شباب البدو ، فتراءى فيها كأمير من أمراء الصحراء ، خرج يضرب فى الخلاء بحثا عن فلول من رعيته ، خرجت تسوق أغنامها الى المرعى ولم تعد فى نهاية النهار الى « النجع » ..

وسرنا وئيدا ، وانا لا ادرى ما الذى اعترانى فجعل قلبى يرسل دقاته متتابعة فى وجيب قوى .. وكنا صامتين طيلة الوقت .. ثم التفت نحوه ، وكان القمر قد شرع يرقى فى السماء ، مرسلا اشعته على الرمال ..

وخرج يسرى فجأة عن صمته ليتساءل : « الا يثير هذا المنظر شيئا فى نفسك يا مدموازيل سعاد ؟ »

وكان المنظر شاعريا خلابا اثار فى نفسى احاسيس غريبة عجزت عن التعبير عنها فآثرت الصمت، بينما استطرد « يسرى » قائلا : « انه يثير فى صدرى عاطفة .. كنت اجاهد لاخفائها ، ولكنى احسها الليلة طاغية متمردة على كل مقاومة .. »

وبقيت ساكتة ، موجسة .. مأخوذة .. كان صوته غريبا ، حالما ، ينبعث من اعماقه ..

ولن أطيل عليك مرة أخرى ، فأنت أدرى بالمحاولات التى تسبق البوح بالهوى .. اجل ، ففى تلك الليلة صارحنى يسرى بحبه ..

وفى غفلة من مسعود ـ تابعى ـ ضمنى يسرى .. ونعمت باول قبلة عرفتها من غير ابى وامى .. و « دادة فاطمة » ! .. كانت قبلة لا عهد لى

بمثلها .. كانت رسالة عاطفية حملتها اجنحة خيالية من نور حلقت بهـا عاليا كي تلقي بها عند اعتاب .. روحي !

✱

◆ **وتبدلت** الحياة فى ناظرى بعد تلك الليلة ، وزال عنى ما كان يغشانى من ملل .. كنت كحائرة اهتدت اخيرا الى موطن حيرتها ..

بل ان كل شىء فى كيانى تغير .. اصبح الحب يسيطر على فى شعورى نحو كل شىء ، وكل شخص .. حتى أولئك البدو الذين كنت أراهم أقل من عنصرى الخليط .. الشركسى الفرنسى ! . . **اصبحت ارى الحب فى كل شىء .. حتى فى رمال الصحراء .. الرمال المتلاصقة ، المتزاحمـة ، كان يخيل الى انها جموع من العشاق تضام كل اثنين فيها وتعانقا فى قبلة ابدية.. اجل ، كنت اخالها .. رمالا عاشقة !**

وتوالت الايام حتى اكتملت اسبوعين كانا من أسعد فترات حياتى .. ثم انقضت اجازة « يسرى » فعاد الى القاهرة ، وبدأت اعرف اللوعة والأسى لأول مرة مذ وفاة أمى .. بيد أن خطابات يسرى كانت تمحو الشجون عن قلبى وتسرى عنى ..

وكأنما اراد القدر ان يترفق بنا ، فاذا بفتاى ينقل الى الاسكندرية .. ولم اتردد فى ان اعود الى الحياة بمنزلنا السكندرى ، الذى كنت لا أقيم فيه الا فترات وجيزة ..

✱

◆ **وصارت** لنا لقاءات عذبة ، حبيبة ، ما زلت احس نشوتها تسرى فى نفسى المهدمة .. أو بالأحرى ، أنقاض نفسى . ورحنا ننهل من مورد الحب الصافى ، لاهيين عن العالم ، لا نكاد نفكر فى أن احقاده وشروره قد تعدو يوما على هنائنا وغرامنا ..

ولكن هذا الخاطر راود ذهن يسرى ذات يوم ، فيما كنا عائدين من نزهتنا الحبيبة فى سيارته .. اذ اعتدنا فى بعض الايام ان نزور بلدة على اعتـاب الصحراء ، اجتذب جمالها وهدوؤها الاجانب وأبناء الطبقة الراقيـة فى الاسكندرية فاتخذوها قبلة لهم فى عطلات نهاية الاسـبوع .. تلك هى « ايكنجى مريوط » .. اظنك سمعت عنها !! .. كنا نجد متعة فى التردد عليها ، فقد كان بنا أبدا حنين الى الصحراء ، والى رمالها العاشقة .. حيث ولد حبنا !

بدا يسرى فى ذلك اليوم واجما ونحن فى طريقنا عائدين الى الاسكندرية.. وحاولت ان أعرف ما كان يمضه ، ولكنه حاول بدوره ان يكتم عنى شجاه .. حتى اذا الححت ، حدق طويلا فى عينى ، ثم سألنى : « اما خطر لك يوما

يا سوسو ان تفكرى فيما يكون من امرنا لو رفض ابوك أو ابى ان يسمحا لنا بالزواج ؟ »

ووجمت للسؤال .. كان كحجر ألقى فى بحيرة هنائنا فاضطرب سطحها بعنف .. ووجدتنى أصيح بعد هنيهة: « محال .. بابا لا يمكن أن يرفض.. واذا رفض .. اذا رفض .. فأنا على استعداد لأن احطم القيود .. واضحى بكل شيء »

وتأملنى يسرى طويلا فى اشفاق واعجاب وحب .. بيد انه لم ينبس ببنت شفة ، وانما ضمنى اليه فى عنف ، ووجد ، وكأنه يخشى أن تنتزعنى منه يد خفية .. لعلها يد القدر ..

*

◆ **وتلاحقت** الفصول ، حتى اكتملت عامين فى عمر هوانا .. وحان الصيف .. ورحلت الى « الغربانيات » ، اذ اعتاد يسرى ان يذهب الى الحمام فى عطلات نهاية الاسبوع ، فكنا نتلاقى فى احضان الصحراء الحنون .. وازدادت لقاءاتنا عندما حصل يسرى على عطلته السنوية ..

ولكن .. ولكن عينى لم تخفقا فى ان تلمحا سحابة قاتمة كانت تبدو على جبين يسرى ، ولو أننى لاحظت أنه كان يحاول جاهدا أن يبددها بابتسامته الجميلة .. وتولانى قلق محموم ، جعلنى أتلهف على معرفة ما كان يكتم من اسى .. وكنت فى أول كل لقاء الح عليه بالسؤال ، ولكنه كان ينكر ، ثم يعمد الى اصطناع المرح ، ويسعى الى ان يشغلنى عن السؤال ..

ولم يكن قد بقى من عطلته سوى اسبوع ، حين فاجأنى بمفاجأة هزتنى فى عنف : كنا نجلس على رمال كثيب فى الخلاء .. وظل يسرى مطرقا برهة طويلة ، ثم رفع عينيه فى تؤدة وراح يحدق فى عينى .. وكانت نظراته تفيض بأسى وحيرة غامضين .. واخيرا قال : « اتذكرين يا سعاد سؤالا وجهته اليك مرة ونحن عائدان من ايكنجى مريوط الى الاسكندرية ؟ »

وانقبض قلبى ، وسألته فى لهفة : « أى سؤال ؟ »

ـ ماذا يكون من أمرنا لو رفض ابى أو أبوك أن يبارك زواجنا ؟

ـ آه .. واذكر اننى قلت يومذاك اننى لن اتردد فى التمرد على ابى .. ولكن ، فيم سؤالك اليوم ؟

فنكس رأسه ، حتى اذا رفع بصره ثانية ، كانت ثمة دموع حائرة تترقرق بين اهدابه .. وجزعت .. واحسست بيد خفية تعتصر قلبى .. يد ذات برودة جليدية .. وصحت : « يسرى .. ماذا وراء سؤالك .. قل .. صارحنى ! »

ـ لشد ما اخشى يا سوسو ..

وترنحت كالسكرى ، وما انا بالسكرى ولكنها قسوة الخوف الذى استبد

بى .. وقلت فى صوت مختنق : « يسرى .. قل لى كل شىء .. هل رفض ابوك ؟ »

وسكت برهة لا يكاد يدرى كيف يتكلم ، ثم قال : « لا .. بابا لم يرفض ، ولكن هناك ظروفا ..ظروفا قاسية احاول ان اكافحهـــا مذ حضرت فى عطلتى »

وأمام الحاحى ، بدأ يتكلم وهو ينتزع كل كلمة انتزاعا ، فيختلج وجهه بالألم .. **كان ابوه قد اصيب بنكبة مالية تصدعت لها تجارته واعماله ، مما اضطره الى الاستدانة من زوج اخته .. ولكن الضربات توالت عليه ، فلا هو استطاع ان يسد الدين ، ولا تجارته استعادت مكانتها القديمة .. بل ان الاحوال استفحلت واشتد تدهورها ، حتى اشرف على الافلاس .. وهنـــا راح قريبه يلوح له بصفقة جديدة .. يدفع عنه دينـه ويمده برأس مال جديد ، مقابل شرط واحد .. شرط قاس ، فيه اجحاف وعنت و .. خسة ! .. وكان يسرى هو محور هذا الشرط .. كان الرجل على استعداد لأن يقدم هذا الذى عرضه ، لو ان يسرى تزوج من ابنته !**

✚

◆ **وكان** الوضع قاسيا .. وشعرت بالصدمة تضعضع كيـــانى .. واحسست بقلبى وكأنما استحال الى كتلة من الرصاص الثقيل عجز صدرى عن احتمالها ، فانحنى تحت ثقلها ظهرى .. ومضى يسرى يتحدث .. عبثا سعى الى التحايل على هذا الوضع .. وعبثا حاول ان يجد لوالده مخرجا .. وراح يفكر ويسعى ويحاول .. ولكن المنافذ كانت تسد اينما اتجه ..

وكأنما أحس الدائن بحيرة الأب وابنه ، فشاء ان يزيد من ضغطه عليهما ، وشرع ينذر بأن ظروفه قد تضطره الى أن يطالب بما له من ديون .. وكان معنى ذلك ان تحل بالشيخ فتح الله الطامة الكبرى .. فهو ولا بد عاجز عن تقديم المال .. ومن ثم فلا مفر من اعلان افلاسه .. وانهيار ســـمعته ومكانته .. واسرته !

وكان مفتاح الموقف كله فى يد .. يسرى.. وجن جنونى فى بداية الامر.. واطاشت الصدمة بحجاى .. وانقضى يومان لم التق فيهما بيسرى .. فلما لم يأت فى اليوم الثالث ، تعمدت ان ابلغ فى نزهتى « الحمام » فأعرج على دار اسرته ، بحجة زيارة اخته ..

وبدأ جو البيت مكفهرا، تتسلط عليه نذر عاصفة عاتية تحطم ، وتقوض.. وتنسف نسفا !

وفكرت فى ان احمل والدى على ان يساعد الشيخ فتح الله ، ولكننى سرعان ما تخليت عن الفكرة.. كان العداء بينهما أقوى من أن يمكن تجاوزه.. وكانت ظروف ابى ـ من ناحية اخرى ـ تتجه اتجاها لا يبشر ..

- ٤ -

◆ **وحان** موعد رحيل يسرى ، فتلاقينا فى الليلة التى سبقته .. وكان لقاء مظلما ، كئيبا .. حتى اذا حان لنا أن نفترق ، قال يسرى : « سعاد .. قد يكون هذا آخر لقاء لنا »

وكان حبى قد بدأ فى ذلك اليوم يسمو بى عن أكدار الصدمة ، ويرسل ضوءا صافيا على المشكلة .. وكنت أشفق على يسرى أكثر مما أشفق على نفسى .. ومع ذلك فقد بدت كلماته كالصواعق ، فصرخت جزعة .. بينما عاد يقول : **« اننى حزين يا سعاد .. وحائر ، فلست أدرى مصيرا لحبنا الذى تتلاعب به أنواء الحوادث .. لقد بكى أبى هذا الصباح بين يدى .. انه يشعر بأننى مظلوم فى هذا الوضع القاسى .. ولكنه يدرك أيضا ان فى يدى مفتاح الموقف .. ولم يحاول أن يوحى لى بشىء ، مع ذلك .. »**

وهنا كان حبى ، قد بلغ أوج سموه ، فخيل لى أن نورا وهاجا قد انبثق منه ليضىء لى طريقا لم أتردد فى أن أنهجها ، فصحت وأنا أكافح كى أحتفظ برباطة جأشى ، بينما كان قلبى يتفطر : « يسرى .. ان أباك يستحق أن تضحى من أجله .. وأنا مستعدة لان أضحى معك .. فكر فيما يحدث لو أنه تحطم تحت قبضة الوحش .. فكر فى أمك وأختك .. اننى لن أقبل أن تكون لك يد فى الزج بهم الى مصير تعس .. فلنضح يا يسرى بغرامنا »

فصاح وكأنما كان قلبه ينتحب : « محال .. لا يمكن أن أسعد .. ما ذنبى ؟ .. وما ذنبك ؟ .. وما ذنب هوانا ؟ »

ودفن وجهه بين راحتيه ، وجسده يهتز تحت ثورة عنيفة .. واغرورقت عيناى بدموع تكسرت على حافتى جفنى .. وانحنيت على يسرى وقد اجتاحنى عطف أنسانى نفسى وفجيعتى فى حبى ، وقلت : « يسرى .. أو أنت أضعف منى ؟ .. لا .. »

وراح الحب الطاهر المبرأ من أى غرض ، يحطم آخر قلاع الانانية ، فرحت أهون على يسرى المصاب ، وكأنما هو مصابه وحده لا مصابى ٠٠ وصاح المسكين : « أمجنونة أنت يا سوسو ٠٠ ألا تدركين ماذا يعنى اقتراحك بالنسبة لك ٠٠ ان آلامى لا تهمنى ، ولكننى أشفق عليك »

وفى جهد جبار ، تصنعت البرود لأقول : « على أنا ٠٠ لا ٠٠ سأفعل ما يفعله الناس ٠٠ سأجتهد أن أنسى ! »

ثم ٠٠ فارقتنى قواى ، فانهرت بين أحضانه باكية ٠٠ وراح يضمنى فى عنف أوحته لوعة الاسى المشبوب ٠٠ وعاد الحب السامى يبث فى روحى جلدا ، فتمالكت نفسى وقلت : « دع عنك كل اعتبار يا يسرى ، فأنا أوقن من أنك نبيل٠٠ ولكن هذا النبل لا يجب أن يختلط بالانانية ٠٠ ان سعادة أهلك فى يدك ٠٠ وان غرامنا لأسمى من أن يعنى بالجسد ٠٠ ولن يقتل الفراق حبنا ، بل انه سيبقى فى قلبينا ٠٠ الى الابد »

وتراخت عزيمتى ٠٠ فراح صوتى ينبعث فى همس مرددا : « الى الابد ! »

وعدنا نتعانق فى وجد طاغ ، وغبنا عن العالم ٠٠

وانتبهنا على لسعة من رطوبة جو الليل الذى كان قد خلع ستاره على الرمال العاشقة ٠٠ وحانت لحظة الوداع ٠٠ وانبعث صوت يسرى وقد أرهقه الاسى : « حاولى أن تنسينى يا سوسو ٠٠ سأبقى عمرى على حبك ، ولكنى أتمنى لو تنسين حبى »

وحلت لحظة الفراق ، وكلانا لا يستطيع أن ينتقل من موقفه ٠٠ وصاح أخيرا فى قنوط : « انصرفى أنت أولا يا سوسو ٠٠ ارحمينى من الشعور بأنك لا تزالين فى مكانك تراقبيننى اذ أنصرف »

ولكننى لم أكن أقوى على الحراك ٠٠ فقلت والدموع تنحدر من عينى : « بل اذهب أنت أولا ٠٠ دعنى أطمئن وأتزود منك

بالنظرة الاخيرة ٠٠ النظرة التى ستبقى لى ذكراها الى الابد » !

وطال وقوفنا ٠٠ حتى أرسل لنا القدر « مسعود » تابعى يدعونى الى البيت ٠٠

- ٥ -

◆ **ومرت** أعوام ثلاثة ، عشت فيها منطوية على نفسى ٠٠ حتى صحرائى الحبيبة لم أعد أحب أن أخلو اليها ، اذ كانت رمالها العاشقة تبدو لى في تعانقها كما لو كانت شامتـــة تتشفى ٠٠

ولم أعد أرى يسرى ، أو أزور أخته ، أو أسأل عن أنبائه ، فقد شئت أن أغيب عن حياته كى لا أثير ذكريات تسبب له حسرة ٠٠

الى أن كان الامس ٠٠ والامس فقط ٠٠

لست أدرى ما الذى جعلنى أحن الى زيارة الكثيب الذى كنا نلتقى عنده ٠٠ وفيما كنت أقترب منه ، لاحت لى سيارة ، والى جانبها طفل فى حوالى الثانية من عمره ٠٠

وازددت اقترابا ، ثم توقفت فجأة ، اذ رأيت شخصين قد افترشا الرمال خلف السيارة ٠٠ رجل وامرأة !٠٠ أما المرأة ، فقد انهمكت فى التطريز وهى ترفع بصرها بين الفينة والفينة الى زميلها ٠٠ وأما الرجل ، فكان يشخص ببصره نحو الكثيب الرملى وهو مستغرق فى التفكير ٠٠

وتبينت أنه ٠٠ يسرى !٠٠ ووقفت أرقبه ، وقد استيقظ فى قلبى ألم جبار عات ٠٠ لكم حلمت بنفسى فى مكان المرأة الجالسة الى جوار يسرى !٠٠ وما أقسى أن انهار هذا الحلم على الرمال ٠٠ الرمال العاشقة التى خيل الى أن كل ذرتين منها تزدادان التصاقا وهما تنظران فى شماتة وتشف ٠٠ فاستدرت عائدة نحو البيت ، وأنا أدفع الرمال بمقدم حذائى ٠٠ أفرق بينها !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : « كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل » و « كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى « اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامه ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم انتقلت بك منذ العدد (١٦) من صحبة اندريه موروا الممتعة الى صحبة مفكر عالمى اخر هو الفيلسوف الانجليزى المعاصر « برتراند رسل » فى كتابه المشهور « غزو السعادة »

وبعده قدمت لك كتاب فرويد المشهور « التحليل النفسى » ، يليه « كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة » ثم « الجنس الاخر » ، و « عش حياة ايجابية » ، و « أبواب الحب المغلقة »

واليوم أقدم لك فيما يلى هذا الكتاب القديم فى فن الحب للشاعر الرومانى « أوفيد » .

للمفكر الروماني الخالد

أوفيد



هذا الكتاب .. ومؤلفه

◆ **ترى هل تغير الحب ، وتغير البشر ، خلال الألفى عام - أو العشرين قرنا - الماضية ؟**

واذا كان ثمة تغير قد وقع ، فهل كانت له صلة بنشوء الاديان ، وظهور المسيحية والاسلام ، من حيث تهذيب حواشيه وتقليم عاطفته .. أم أن العواطف والغرائز طبائع متأصلة لا تغيير فيها ولا تبديل .. ولو ضئيل ؟

فى عدد سابق من «كتابى» قدمت لك (فن الحب) كما يراه الكاتب المعاصر « أندريه موروا » .. واليوم أقدم لك (فن الحب) كما أفاض فيه الشاعر الرومانى القديم « أوفيد » فى ديوانه الذى أطلق عليه هذا العنوان ، وهو أحب مؤلفاته وأروجها على مر العصور - حتى لقد ترجم ترجمة نثرية الى جميع لغات العالم الحية (عدا العربية !) ، والترجمة التى ننقل عنها اليوم هى أدقها وأحدثها ، فقد صدرت فى سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، واضطلع بها الاديب الانجليزى « رونالد سيث »

ويقول المترجم فى مقدمة الكتاب « **ان البشر - رجالا ونساء - لم يتغيروا البتة ، سواء فيما يتعلق بأخلاقهم أو سلوكهم ، (فيما عدا العصر الفكتورى التعس) .. فنحن نستطيع أن نرى أنفسنا فى أشخاص من يتحدث عنهم أوفيد .. والتشابه القوى بيننا وبينهم لا سبيل الى تجاهله !** »

والكتاب حافل بالدعابة المنطوية على سخرية لاذعة ، وهو مرآة صادقة للمجتمع الرومانى منذ ألفى عام .. والنصائح التى ساقها « أوفيد » فيه تعطيه الحق فى أن يحمل لقب « الاستاذ فى نظرية فن الحب » ، فضلا عن أستاذيته غير المنكورة فى ممارسة هذا الفن وتطبيقه ، وفضلا عن موهبته الخارقة كعالم نفسانى قدير ، من قبل أن يوجد علم النفس !

ونحن اذ نقدم كتابه اليوم ، انما نقتطف أنضر وروده ، تاركين أشواكه .. ففن « أوفيد » ملىء بالاشواك ، اذ كان العصر الذى عاش فيه عصر انحلال خلقى ، تداعت فيه معانى الشرف والحشمة وتربع فيه الحب الآثم على أطلال الحب السامى النبيل ..

بقى أن تعرف عن المؤلف أنه ولد سنة ٤٣ قبل الميلاد ، وكان اسمه « بابليوس أوفيدياس ناسو » - ثم عرف حين اشتهر باسم أوفيد - وقد عين فى فترة من حياته قاضيا ، ثم رئيسا لقضاة روما . وكان صديقا حميما للامبراطور « أوغسطس » ، الى أن نفى فى سنة ٩ بعد الميلاد - لسبب مايزال مجهولا - الى مدينة (ترمى) بقرب مصب نهر الدانوب على شواطىء البحر الاسود ، وهناك مات بعد ٨ أعوام ، فى سنة ١٧ .. بعد أن أتحف الشعر الرومانى بانتاج غزير بلغ نحو ٢٢٠٠٠ بيتا !

الجزء الاول



◆ **اذا** كان بينكم ـ معشر الرومان ـ من لا يعرف فن الحب فليقرأ أشعارى ، وليتعلم ـ أثنــــاء القراءة ـ كيف يمكن أن يحب ٠٠ فان « فينوس » مكنتنى من زمام ابنها الصغير « كيوبيد » ، فأنا قائد عجلة الحب وربان سفينته !

والحب ليس بطبيعته سلس العريكة ، سهل الترويض ، بل انه كثيرا ما يتمرد ، حتى على ٠٠ بيد أنى سوف أمسك بزمامه وان غيب سهمه فى قلبى وراح يهــز مشعله المتأجج فوقى ٠٠ وكلما اشتدت سهامه حدة ، ونيرانه قسوة ، ازددت تصميما على أن أثأر لجراحى ٠٠

وما قبست الفن الذى ألقنــه لكم عن أحد ٠٠ وانمــا اهتديت اليه بالتجربة ، فأطيعوا الشاعر الذى يعرف موضوعه معرفة الخبير المجرب ٠٠ ألا فلتعلم أيها الراغب فى الانضواء تحت لواء « فينوس » أن عليــك أولا أن تبحث عن تلك التى تحبها ٠٠ وثانى مهامك أن تحمل المرأة التى تعجب بها على أن تستسلم لك ٠٠ وثالثا ، عليك أن تفعل ذلك بطريقة تجعل هذا الحب يدوم ويبقى ٠٠

هذه خطتى ٠٠ وهذه هى الرحلة التى ستنطلق فيها عربتى ٠٠ وهذا هو الهدف الذى ينبغى أن تبلغه ٠٠

الجمال فى روما ألوان !

◆ **وان** الوقت الحاضر – وأنت بعد خلو من أية ارتباطات – لهو أنسب الاوقات لاختيار تلك التى تقول لها : « أنت الوحيدة التى تعرف كيف تبعث فى نفسى السرور » ·· ولكن هذه لن تطير اليك على أجنحة الريح ، بل ان على عينيك أن تبحثا عن الجمال الذى يستهويك ·· ان الصائد يعرف أين ينبغى أن ينصب الفخاخ للغزال ، ويعرف فى أى الوديان يقيم الوعل البرى ·· وصائد الطيور يعرف أى الادغال أفضل لشباكه ·· وصائد الاسماك يعرف أين يجد أكبر عدد من الاسماك ··

وكذلك أنت أيها الباحث عن هدف للحب الدائم ، تعرف أى الاماكن يكثر تردد الحسان عليها ·· ولن يضطرك هذا الى الانطلاق فى البحار ، أو القيام برحلات بعيدة ، فان روما تتيح لك من النساء من يحملك جمالهن وعددهن على الاقرار بأنها تضم كل ما تعتبره الدنيا جميلا ·· فاذا شئت جمالا يتفتح كالبرعم فى زهر المراهقة، فستجد طوع تأملك فتاة غريرة لا قبل لها حقا بالتجربة ·· وان كنت تؤثر جمالا أكثر تشكلا ونضوجا ، فسوف تحظى بألف شابة ، ولن تشغل بأكثر من مشكلة اختيار واحدة من بينهن !·· ولكن، ربما كانت تستهويك سن أكثر خبرة وادراكا ؟·· اذن ، فصدقنى اذا قلت لك انك ستجد صاحبات هذه السن أوفر عددا !

وعندما تدخل الشمس فى برج الاسد ، عليك أن تمشى الهوينى فى الحدائق والاماكن العامة والمعالم العريقة ·· ولا تنسى ساحات الاحتفالات والاسواق والمعابد ·· ولكن المسارح قبل سواها هى خير المواقع التى تلقى فيها شباكك ، وهى أغنى الاماكن بالفرص المواتية ·· فهناك تجد من الجمال ما يغويك : تجد جمالا تستطيع أن تغرر به وتعبث ·· وجمالا لن يثير سوى نزوة عابرة فيك ·· وأخيرا ، جمالا تشتهى أن يكون لك الى الابد ··

وتتهافت النساء عادة فى أجلى زينتهن على الاماكن التى يزدحم فيها الناس ‥ يفدن ليكن موضع مشاهدة أكثر منهن متفرجات ‥ وهناك ، ينبذ الحياء العذرى لاول مرة ‥ هناك ، لا حاجة بك الى تفادى لغة الاصابع كى تعبر عن أفكارك المستترة ‥ أو تأويل أفكار حسنائك اذا ما راقبت اشاراتها ‥

كيف تستميل فاتنتك ؟

فاذا وقع اختيارك على واحدة فاجلس بجانبها ‥ واقترب حتى تلتصق بها قدر المستطاع ، فليس ثمة ما يمنعك ، اذ أن ضيق المكان قمين بأن يضطرك الى أن تلتصق بها ، وبأن يضطرها - لسعادتك - الى أن تتقبل هذا الالتصاق ‥

ثم ، اختر موضوعا يفتح باب الكلام بينك وبينها ، مبتدئا بالملاحظات المعتادة فى مثل هذه الظروف ‥ فاذا كنتما فى ميدان السباق مثلا ، فسلها عن أسماء أصحاب الجياد التى نزلت الى الحلبة ، وتحمس لما تتحمس هى له منها ‥

واذا حدث - وكثيرا ما يحدث - أن حطت ذرة من غبار على صدر محبوبتك ، فازلها بأصبعك فى خفة ‥ وحتى اذا لم تكن هناك ذرة ، فلا ضير في أن تؤدى اصبعك المهمة ‥ اذ يجب أن تستغل كل شيء حجة لتوثيق ما بينكما ‥

هل ترى ذيل ثوبها يجرجر التراب ؟‥ اذن فارفعه كى لا يتسخ ، فلعلها تدعك تلمح ساقها ، جزاء لك على كرمك ‥ وهكذا تكسب بالتوافه والسفاسف ودها ‥ وكم من عشاق نجحوا فى الفوز بعشيقة لمجرد مبادرتهم الى تسوية الوسادة التى تستند اليها ، أو استجلاب الهواء حولها بمروحة ، أو وضع تكأة تريح عليها قدمها الرشيقة !؟

والحفلات والمآدب تيسر بدورها أسباب التقرب الى النساء ، ولن تكون نشوة الخمر هى النشوة الوحيدة فيها ‥ فهناك ، كثيرا ما يرى ملاك الحب بوجنتين متضرجتين ، وقد حمل بين ذراعيه الواهنتين كؤوس النبيذ الضخمة ‥ وما أن يغمس

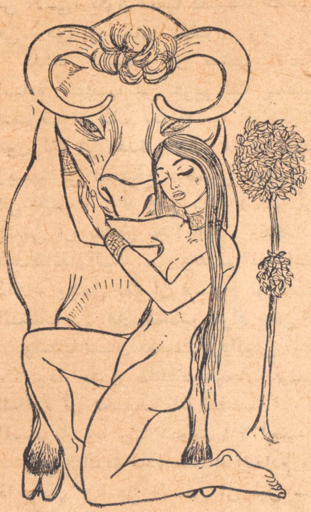
كيوبيد جناحيه فى النبيذ حتى يتثاقل ويظل فى مقعده بلا حراك .. بيد أنه سرعان ما ينفض جناحيه المبللين ، واذ ذاك .. ويل لمن تمس القطرات الملتهبة فؤاده !

اختر محبوبتك فى وضح النهار !

◆ **ان** الخمر تلين القلوب وتجعلها سهلة الاكتواء .. ويتلاشى الحـذر اذ يجرفه السيل الدافق .. ثم تنطلق الضحكات ، فيستجمع الفقير جرأته ويعتقد أنه غنى .. وتغيب الاحزان والهموم ، وتشرق الاسارير ، وينبسط القلب وقد طفت الصراحة – وما كان اندرها من قبل – على ما كان فيه من خبث .. وما أكثر ما اقتنصت الفتيات قلوبنا حول الموائد ! .. **فان المرأة والخمر نار تنبعث من جوف نار ! .. ومن ثم فحذار من أن تركن الى وهـج المشاعل ، فان الليل والخمر أسوأ ناصحين تركن الى مشورتهما فى الحكم على الجمال .. وما أقدر الظلام على اخفاء العيوب والنقائص – فليس فى الظلام امرأة قبيحة ! – وكما انك تفحص الاحجار الكريمة والثياب الغالية ، فى ضياء النهار .. كذلك يجب أن لا تفحص جمال الوجه والجسد الا فى وضح النهار !**

وانه لايسر على أن أحصى رمال الشاطىء من أن أعدد كل تلك الاماكن التى تصلح لاقتناص الحسان .. فتعال ألقنك الفنون التى تأسر بها فاتنتك .. ولتصغوا الى أيها العشاق ، مهما كانت الاوطان التى وفدتم منها :

يجب أن توقنوا أولا من أنه لم تخلق بعد المرأة التى يستحيل الانتصار عليها ، فاذا أيقن الواحد منكم بذلك ، فسوف يكون الغازى الفاتح المظفر .. وليس عليه سوى أن يلقى شباكه ! .. فالمرأة لن تقوى على صد الحنان الرفيق الذى يوجهه اليها عاشق شاب ، الا اذا كف الربيع عن الانصات لشدو الطيور ، والصيف عن الاصفاء لازيز الجراد ، والا اذا انقلب الوضع فأصبح الغزال هو الذى يطارد كلب الصيد ! .. الخ .. ولتثق ان المرأة التى تبدو لك راغبة عن الاستسلام ، انما تتمنى فى قرارة نفسـها أن تستسلم .. فالحب المستتر المكتوم لا يقل استهواء للمرأة عنه للرجل .. ولكن الرجل لا يحسن اخفاء وجده ، أما المرأة فتحذق كتمان رغبتها .. ولو ان الرجال كفوا عن أن يكونوا الساعين الى القربى ، لرأينا النسـاء يتداعين عند أقدامنا ضارعات .. فان رغبة المرأة أشد ضراما من وقدة الرجل .. أو لم تحدثنا الاساطير عن « باسيفه » ملكة كريت ، وكيف هجرت



زَوجها « مينوس » لتهيم وراء ملك البقر .. وراء العجل الذى كان فى بياض الحليب ، لا يشوب بياضه سوى علامة سوداء صغيرة فى جبينه بين قرنيه ؟

ثم منذا الذى لم يمقت « ميديا » التى قتلت أطفالها من أجل حبها ؟ .. ولن تتسع لنا الصفحات لو أوردنا آلاف الأمثلة التى من هذا القبيل ، وكلها تظهر مبلغ ما فى حب المرأة من جموح وطيش .. فهو أعتى من شهواتنا وأكثر اثما ! .. لذلك يجب أن تتجلد وتتشجع اذ تزج بنفسك فى المعمعة ، وليقر فى روعك انك ولابد منتصر ، وانك لن تكاد تجد بين الف امرأة واحدة تصدك، فان الفتاة تحبمن يطلب ودها، سواء منحته اياه أو ضنت به عليه.. وحتى لو صدتك امرأة فلن يضيرك الصدود ! .. ولكن ما الذى يدعونا الى توقع الصد ؟ .. ان المرء لا يرفض مغريات لذة جديدة عليه .. وان ارضاء الغير ليدخل علينا من السرور أضعاف ما يدخله ارضاؤنا لانفسنا !

« الطابور الخامس » فى الحب !

◆ **وأول** ما ينبغى عليك عمله ، هو أن توثق الود بينك وبين خادمة المرأة التى تريد أن تخطب حبها .. فهى التى ستعينك على ولوج الدار ! .. ولكن عليك ان تستبين أولا ما اذا كانت موضع ثقة مولاتها ، وشريكتها فيما تقارف فى السر من لهو ومسرة ؟! .. فاذا فرغت من هذه المرحلة فلا تضن بوعود ، ولا تتورع عن توسل ، ولا تقف عند شىء فى سبيل اكتساب الوسيطة المذكورة الى صفك .. واذ ذاك سيغدو فوزك سهلا ، فان كل شىء يتوقف على استعدادها لمعاونتك .. ولكن أفسح لها من الوقت ما تشاء ، فهذا اجراء ينصح به العليمون ! .. مكنها من ان تنتهز اللحظة التى تكون فيها سيدتها فى حالة انشراح وسرور ، متأهبة للغواية .. فتلك هى اللحظة التى يبدو لها فيها كل شىء باسما فى وجهها ، وتومض فيها البهجة فى عينيها كسنابل الحنطة الذهبية فى الحقل الخصيب ! .. والقلب حين يكون سعيدا ، خلوا

من الاسى، يكون مهيئا بطبيعته للحب .. وهذه هى الآونة التى تنزلق فيها فى رفق الى معاور الاسرار ..

كذلك تستطيع أن تتحير اللحظة التى تشكو فيها حسناؤك من أنفه أساءة أصابتها من غريم لك ينافسك فى السعى الى قلبها .. ويحسن أن تتصرف اذ ذاك تصرفا يبديك بطلا شهما فى نظرها . **وستكون الخادم خير عون لك فى هذا : فقد تنتهز فرصة انفرادها مع سيدتها وهى منصرفة الى زينتها فى الصباح ، فتثير غضبها على ذلك الغريم ، ثم تتنهد فى أسى وتقول فى خفوت : « ومع ذلك ، فما أراك تجرؤين على أن تعاملى هذا العاق بما ينبغى أن يعامل به ! » .. وهكذا تمهد للحديث عنك .. وتسوق كل اغراء لاجتذابها اليك .. وتقسم لها أغلظ الايمان انك تذوب وجدا بها .. واذ ذاك ، يجمل بك أن تسارع الى استغلال الفرصة قبل أن تنقلب الريح ويهدأ الغضب .. فان غضب المرأة هش كالزجاج ، ولا يدوم طويلا !**

ولعلك تسأل نفسك : «أليس من الخير ان العب على عواطف الخادم أولا ؟» .. وقد يكون هذا صحيحا ، ولكنه محفوف بالخطر .. فقد يسول هذا للخادم أن تحتفظ بك لنفسها ! .. لذلك يحسن العزوف عن الطريق غير المضمونة .. وأنا شخصيا لا أحب القفز فوق المهاوى والصخور الشائكة ..

ومع ذلك ، فاذا فتنتك الخادم وهى تحمل خطابات الهوى اليك أو منك ، فاحرص أولا على السعى الى نيل سيدتها ، فان الخادم لن تلبث أن تقفو أثر المخدومة .. ولكن لا تبدأ بالخادم ، بل ابدأ بالسيدة !

على أننى أريدك ، اذا كنت تؤمن بالفن الذى ألقنك اياه ، ان لا تقدم على المغامرة قبل أن تكون متأهبا للمضى فيها الى غايتها .. وثق أن الخادم اذا ما ألفت نفسها قد أوغلت فى المؤامرة ، فلن تجسر على التراجع والتخلى عنك .. فان الطائر اذا ما قص جناحاه عجز عن التحليق بعيدا .. والدب البرى يتخبط فى الشباك على غير جدوى .. وكذلك الخادم حين تلفى نفسها مندمجة فى معاونتك على خطيئتك فانها لن تقوى على الغدر بك ، وبذلك تعرف أنت عن طريقها كل ما تفعل عشيقتك وكل ما تقول ! .. ولكن عليك قبل كل شىء آخر ان تكون حريصا .. فلو انك أحسنت كتمان اتصالك بالخادم ، فلن يبدو لك أى غموض فى أى تصرف من تصرفات فاتنتك !

الوقت المناسب !

◆ **ومن الخطأ** أن تظن أن الفلاح وحده هو المضطر الى تعرف الجو ليتخير وقت البذر .. أو ان الملاح وحده هو المضطر الى تتبع أحوال الريح حرصا على سلامة سفينته .. بل انك أنت أيضا مضطر الى تبين الفرصة المناسبة لبلوغ غايتك ، فليس كل وقت مناسبا للتقرب الى أية حسناء :

فمثلا خليق بك أن تتفادى عيد ميلادها ، وان تتجنب المناسبات التى تضطر فيها الى تقديم الهدايا .. فان المرأة بارعة دائما فى انتهاج السبل للفوز بمال العاشق المدله .. **وقد تكون جالسا معها فاذا ببائع يتقدم عارضا سلعة ، وعند ذاك ستعمد هى الى احراجك بأن تسألك ذوقك فى السلعة ، ثم تميل فتمنحك قبلة، وتقول انها تتمنى لو استطاعت الفوز بها اليوم، فقد لا تجدها بمثل هذا السعر البخس فى الغد !.. ولن يكون لتعللك عندئذ بأنك نسيت نقودك فى البيت قيمة، اذ يكفى ان تكتب للبائع وريقة بالثمن .. وستندم .. ذاك على انك تعلمت الكتابة يوما !**

وكم من مرة ستتعمد أن تحدثك عما تتمنى أن يقدم اليها فى عيد ميلادها؟ .. ثم ، كم من مرة ستبدى لك الحزن على شىء وهمى أضاعته ، كحجر نفيس أو قرط ، وتمضى تحدثك عن الخسارة وهى دامعة العينين ؟ !

نعم ، فهكذا النساء .. ولو أننى أوتيت عشرة أفواه ، وعشرة ألسن ، فلن تكفى للحديث عن حيلهن وألاعيبهن !

السلاح السرى !

◆ **ولكنك** تستطيع أن تستعيض عن تقديم الهدايا بتقديم الوعود .. فان الوعود لا تكلف شيئا .. وكل امرىء غنى بالوعود .. أما اذا منحت عشيقتك شيئا ، فلا تأمل فى أن تحصل منها على مقابل ، اذ أنها لن تخسر شيئا اذا أغضبتك ما دامت قد أفادت من كرمك .. لذلك تظاهر دائما بأنك على وشك أن تمنح ، ولكن لا تتجاوز ذلك أبدا الى المنح !

ان أهم وأصعب الخطوات هى أن تكتسب ود محبوبتك ، وأن تفوز بالحظوة لديها دون أن تضطر لتقديم هدايا لها .. فان الطمع فيما ترتقبه منك ، والرغبة فى أن لا يضيع عليها ما انفقته لك ، يجعلانها تحرص على ان لا ترفض لك طلبا ..

فابدأ اذن بخطاب تكتبه فى أرق أسلوب ، بحيث تجعلها تهتم بتعرف مشاعرها نحوك ، وبذلك تفتح باب قلبها لك !.. ألا خذوا بنصيحتى يا شباب الرومان ، وادرسوا الادب ، لا لتدافعوا به عن المتهم المذعور فحسب ، ولا لتؤثروا ببلاغتكم على القضاة الصارمين فقط ، وانما لتستهووا به الحسان أيضا !

ولكن عليكم أن تحرصوا على اخفاء ما أوتيتم من وسائل الاغراء فى البداية ، فلا تبادروا بعرض بلاغتكم ، ولا بازهو بما تكتبون .. وليكن الاسلوب فى البداية طبيعيا ، واللغة سهلة ، سلسة ، ولكنها من التأثير بحيث تجعل المرأة تخال انها تسمع صوتك وهى تقرأ رسالتك !.. أما اذا ردت الرسالة دون ان تفضها ، فلا تيأس من انها ستقرأها يوما ، وادأب على محاولتك ..

واما اذا قرأت رسالتك ولم تجب ، فواصل الكتابة - فى هذه الحالة ايضا - بطريقة تجعلها لا تمل قراءة عبارات الهوى ٠٠ اذ ما دامت لديها الرغبة فى قراءتها ، فانها لن تلبث أن تستجيب وتجيب !

ولربما تلقيت فى بادىء الامر ردا جافا تسألك فيه ان تكف عن ملاحقتها ! ولكن ثق انها اذ تطلب ذلك ، تستشعر الجزع من أن تصدع بالامر ، وترجو لو انك عصيتها وتابعت الكتابة اليها ٠٠ فامض فى ذلك ، ولن تلبث ان تبلغ مناك !

كن رجلا فى تصرفاتك ٠٠ ومظهرك !

◆ **وعندما** يقدر لك ان تلتقى بحبيبتك ، فاقترب منها وكأنك لا تصدق ان قد أتيح لك أن تلقاها ، واشرح لها مابك فى لهجة مبهمة ٠٠ فاذا سارت فى حديقة على غير هدى ، فسر معها ٠٠ وأسبقها أحيانا ، ثم ابطىء حتى تتقدمك واتبعها ٠٠ ولا تتردد فى أن تبتعد بها عن الناس ٠٠ ومهما كانت الاحوال ، فلا تفلت فرصة ذهابها الى المسرح ، فاذ ذاك ستكون فى ابهى زينتها ، وستتجلى روعة جمالها ٠٠ هناك ستكون كتفاها العاريتان متعة لبصرك ٠٠ وهناك ستستطيع أن تتأملها وان تبدى لها اعجابك دون ما حرج ٠٠ وان تتحدث اليها بالعين والاشارة ٠٠ واحرص على أن تصفق للممثلة التى تقوم بدور فتاة شابة ٠٠ وكن اكثر تصفيقا للممثل الذى يضطلع بدور الفتى العاشق ٠٠ وقف اذا وقفت ، واجلس طالما ظلت جالسة ٠٠ ووطن العزم على أن تنفق وقتك وفقا لاهوائها !

ولا تفتن فى تنسيق شعرك ، فان البساطة الخالية من الاصطناع هى خير زينة تلائم الرجل ٠٠ وكن نظيفا ٠٠ ولا تخش أن تلوح الشمس بشرتك بالسمرة اذا مارست التمارين الرياضية فى الهواء الطلق ٠٠ ولا ترفع صوتك وتحتد فى كلامك ٠٠ ولا تترك قدميك تغوصان فى حذاءين واسعين .. ولا تدع شعرك دون تهذيب ولحيتك دون حلاقة ٠٠ واحرص دائما على أن تكون أظافرك مقصوصة ، ولا تهمل شعر انفك بحيث يطل من طاقتيها .. وفوق كل شىء ، لا تدع أنفاسك ذات رائحة تفسد على من حولك الجو ٠٠ ولكن لا تسرف فى « التواليت » ، فليس هذا من شيمة الرجال ٠٠

واذا كانت عشيقتك متزوجة فاحرص على أن ترضى زوجها ، فليس انفع لخططك من صداقته ٠٠

واذا ضمتك ومحبوبتك مائدة فى احدى الولائم ، فدع بصرك يلتقى ببصرها ، ليشهدها ما فى قلبك من ضرام ٠ حتى اذا نهض الضيوف ، فانتهز الفرصة كى تقترب من حسنائك ، واستغل الجلبة والازدحام ، لتمد

اصابعك فتمسها ٠٠ وهذه هى اللحظة المناسبة للحديث ، فدع عنك الخجل والحياء والتردد ٠٠ ولا تنتظر منى ان اعلمك البلاغة ، فليس عليك سوى أن تشرع فى الكلام ، وستجد البلاغة تواتيك دون أن تشعر !٠٠ ويجب ان تؤدى دور العاشق على أتمه ، فليعبر حديثك عن جواك ولوعتك ، ولا تغفل وسيلة لاجتذاب محبوبتك واغرائها.. وليس من العسير أن تجعلها تصدقك ، فان قلوب النساء رقيقة رفيقة ٠٠ وما أكثر من شرعوا فى «تمثيل» الهوى فاذا بهم يقعون حقا فى حبائله ، وينتقلون من التصنع الى الواقع !

فترفقن ايتها الغوانى باولئك الذين يبدون لكن الحب ، فان هذا الحب لن يلبث ان يصبح صادقا ! ٠٠ **وانت باطرائك حسن محبوبتك والتغزل فيها ، لا تلبث أيها العاشق ان تتسلل الى فؤادها ٠٠ فلا تحجم عن اطراء ملامحها ، وشعرها ، واصابعها الرقيقة ، وقدميها الدقيقتين ٠٠ فان أكثر النساء عفة تستجيب لما يسكبه المرء من اطراء لحسنها !٠٠ ولا تكن ضنينا بوعودك فان هذه الوعود طعم يجتذب النساء ٠٠ واستشهد بجميع الالهة على صدق اخلاصك ٠٠**

هل أكثر النساء خائنات ؟

◆ **واذا** كنت حكيما عاقلا ، فاكتف من «الفتيات» بالمداعبة ٠٠ ولا حرج عليك من التقرب اليهن اذا ما كنت مدفوعا بالنية الصادقة والاخلاص ٠٠ ولا تخدع سوى المخادعات ٠٠ فان الاغلبية من النساء غير مخلصات ، وخليق بهن ان يقعن فى الفخاخ التى نصبنها لنا !٠٠ والمرأة الغادرة جديرة بان تذوق الكأس التى مزجت بنفسها مرارتها !

وكثيرا ما تكون الدموع عظيمة النفع فى الحب ، فهى تلين الصخر ٠٠ فلا بأس من ان تتعمد ان تراك محبوبتك والدموع تغسل وجنتيك ٠٠ فاذا أعياك البكاء ، فبلل جفونك بيديك !

واين العاشق المدرب الذى لا يعرف ما للقبلات من اثار معززة لناعم القول ؟٠٠ فاذا أبت عشيقتك أن تقبلها ، فقبلها على الرغم منها ٠٠ لسوف تبادرك بالمقاومة ، ولكنها خلال المقاومة تهفو الى الاستسلام ٠٠ وكل ما ينبغى ان تراعيه هو ان لا تدمى شفتيها بقسوة وجدك ، فتضطرها الى الشكوى من خشونتك !٠٠

واذا لم تنل بعد القبلة كل ما تهوى فانت جدير بان تفقد كل شىء ٠٠ حتى الحظوة التى نلتها !٠٠ واعلم أن من العنف ما يرضى المرأة ٠٠ فان

الحياء قد يمنع المرأة من أن تعرض نفسها ·· ولكنها تسعد بالاستسلام اذا ما أخذت عنوة ··

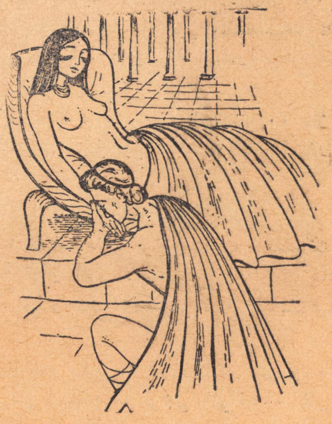
اما اذا لم تستجب المرأة لمحاولاتك الاولى بغير الازدراء ، فلا تضيع وقتك ، وتقهقر متراجعا ·· فمن النساء من يؤثرن أن يؤخذن بالحيلة ، ويكرهن أن يؤخذن فى عجلة ··

ودع الحب يتسلل تحت ستار الصداقة ، فكم من حسناء مستعصية رأيتها تؤخذ بهذه الحيلة ، فاذا الصديق ينقلب حبيبا ··

وخليق بالعاشق أن يبدو شاحبا ، فان الحبيبة اذا ما خدعت بشحوبه ، عنيت فى حنان بحبه ·· ومن طبيعة هموم الحب وهواجسه ، أن تجعل صاحبه نحيلا ، فلا تخش من ان تلجأ الى استثارة اشفاق محبوبتك فى سبيل الفوز بها !

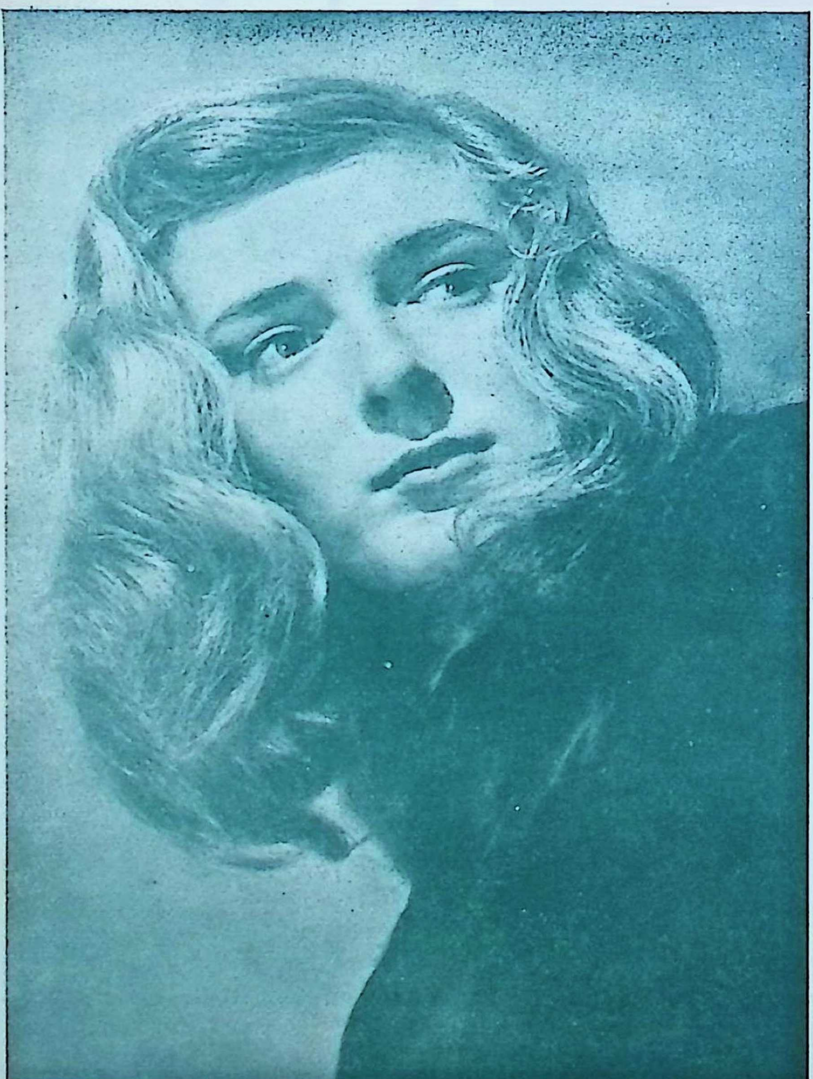
احذر منافسة صديقك !

والصداقة والاخلاص فى أمامنا كلمتان جوفاوان فارغتان ·· فلا تطلع صديقك على مفاتن محبوبتك، اذ انه اذا آمن بها انقلب الى غريم يزاحمك !·· ان للجريمة لسحرا ·· وكل مخلوق لا يفكر فى غير لذته ·· وألذ المتع هى تلك التى لا ينالها المرء الا على حساب سعادة سواه ·· ومن ثم فالعاشق لا ينبغى ان يحذر عدوه ، بقدر ما يعمل على ان يقى نفسه اخطار اولئك الذين يخالهم اوفى الاصدقاء !

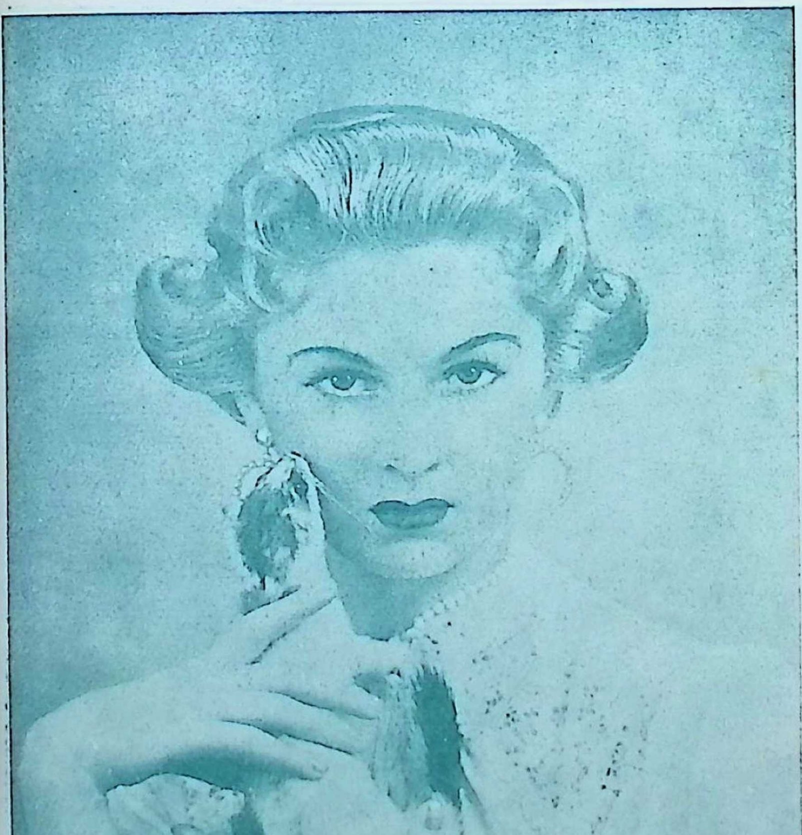


والان ، حان لى ان اسكت ·· ولكنى احب ان اقول ان النساء جميعا لسن على شاكلة واحدة وطبع واحد ·· وان تعدد طباعهن ليفرق بينهن ، فما يستهوى واحدة قد لا يفلح مع اخرى ·· والتربة المتشابهة قد لا تنبت نباتا متشابها ·· فتعلم كيف تكيف فنونك تبعا لشخصية فاتنتك وسنها ··

اما وقد اديت جزءا من مهمتى ·· فلالق مرساة مركبى الان كى استجم قليلا ··



طموح ..   لوحة فوتوغرافيَة للفنان « فنسنت م. هيل »



حيوان محظوظ !

الجزء الثانى



◆ فيم العجلة أيها الشاب ، ان مركبك لا تزال فى وسط المحيط ، والميناء التى نرشدك اليها لا تزال بعيدة ! .. وانى لمقبل الآن على مشروع عظيم .. سأفضى بسر الفن الذى يجعل الحب ـ هذا الطفل القلق الهائم فى العالم الواسع ـ يستقر .. انه رشيق ، خفيف ، وقد أوتى جناحين ، فكيف يمكن امساكه عن الطيران ؟

من أكبر الأخطاء الأخذ بفنون السحرة .. فلا أعشاب « ميديا » ولا أغانى « مارسى » بقادرة على أن تخلق الحب ! .. وجمال الوجه ، ورشاقة القوام، لا يكفيان لاستبقاء حب الحسناء لك ، ولا يحولان دون أن تفاجأ بها يوما تهجرك وتغدر بك .. وانما ينبغى أن تجمع الى جمال الجسد حسن العقل والفكر ..

ذلك لأن الجمال فان ، وهو لا يكف عن التضاؤل على مر السنين .. فالنرجس والبنفسج لا يظلان على ازدهارهما مدى العمر .. والوردة اذا ذبلت وهوت عن عودها لم تخلف غير الشوك .. وكذلك أنت أيها الشاب المليح ، لن يلبث شعرك أن يبيض ، وتحفر التجعدات أخاديد فى وجهك.. ولى تبقى على حسنك ، يجب أن تدعم شخصيتك لتبقى على الايام ، فهى الشىء الوحيد الذى يظل يرافقنا حتى النهاية ، ومن ثم فاحرص على أن تحذق الفنون الجميلة ، وان تتقن لغتين من اللغات ..

ولا ينبغى ـ كائنا من كنت ـ أن تولى مفاتن جمالك الخادعة ثقة كبيرة.. بل اجعلها عناصر ثانوية تضاف الى ما لجسمك من ميزات وما لشخصيتك

من خلق .. واعلم ان اللطف والرقة هما اللذان يكسبان القلوب ، قبل أى شيء آخر .. فنحن نكره الصقر الذى يقضى حياته فى عراك ، والذئب الذى يظل دائما متأهبا للانقضاض على القطعان الوادعة .. فليكف الانسان عن نصب الفخاخ للعصافير ، وليعش الحمام آمنا فى الابراج التى ابتناها له الانسان .. ولينبذ البشر المشاجرات والمعارك التى يستحيل فيها اللسان الى سيف بتار ، فما يفرق بين الازواج وزوجاتهم ، ولا بين الزوجات وأزواجهن سوى المشاجرات ..

كذلك أنت أيها الشاب لا ينبغى لك أن تسمع حبيبتك سوى كلمات الهوى .. فالحب هو القانون الذى يجمع بينكما .. لذلك لا تسعى اليها الا برقيق العناق وعذب الكلام ، حتى يكون مقدمك اليها مبعث سعادة وانشراح ..

الغنى يستطيع أن « يشترى » الحب !

◆ ولست ألقن فن الحب لمن يملك المال ، فان القادر على العطاء لا يحتاج الى دروسى ، اذ أن ماله أقوى من فنى .. انما أنا شاعر الفقير ، لأننى كفقير عرفت الهوى وعانيته حتى خبرته .. وانى لأجزى حبيبتى بدل الهدايا كلمات رقيقة .. ومن ثم فعلى الفقير أن يكون فى غزله حذرا ، فلا يسخر ، ولا ينساق وراء الغضب .. بل عليه أن يتحمل ما لا يحتمل العاشق الغنى .. فلتدخر يا صاحبى الحرب للعدو ، وكن على وئام مع حبيبتك .. داعبها فى رفق ، ولا تبد لها سوى كل ما يثير حبها .. فانك اذا ثنيت غصنا فى رفق وجدته ينثنى ، أما اذا عنفت فى ثنيه فانه ينكسر .. ولو انك سبحت مع التيار عبرت المجرى ، أما اذا كافحت ضده فلن تصل قط الى الشاطىء الآخر .. ان الصبر يغلب النمور والاسود .. وبالتدرج يتقبل الثور القيد الذى يشده الى المحراث !

ولست أدعوك الى ما لا طاقة لك به .. فماذا لو تساهلت اذا دأبت حبيبتك على صدك ؟ .. انك بالحلم والصبر تنتصر . فلتروض نفسك على أن تفعل كل ما تسألك اياه .. انتقد ما تسمعها تنتقده ، وامتدح ما تراها تمتدحه .. ردد ما تقوله ، واستنكر ما تستنكره .. اضحك اذا ضحكت ، وابك اذا بكت .. وباختصار ، البس لكل حال ما تلبسه حبيبتك .. حتى فى اللعب ينبغى عليك أن تفعل ما يرضيها .. وأن تنهزم لتسمح لها بالغلبة عليك !

واذا أمضتها الشمس فارفع المظلة فوق رأسها .. وافسح لها الطريق اذا ما ألفت نفسها فى زحام .. واذا أنبأتك محبوبتك بأنها سوف تلقاك فى المسرح ، فاحرص على أن تكون هناك قبل الموعد المحدد ، وان لا تبرح

المكان الا بعد أن تبرحه .. فان طلبت اليك أن تكون فى مكان آخر ، فدع كل شىء واسرع الى هناك ، ولا تسمح لشىء بأن يعوقك .. وان عادت الى الدار فى المساء ونادت تستدعى أحد عبيدها ، فبادر الى مساعدتها ..

هب أنك فى الريف وكتبت تدعوك ، فاذكر أن الحب يكره التلكؤ ، فان لم تستطع ان تجد عربة ، فخف الى تلبية الدعوة ماشيا ، لا يعوقك جو ، ولا يصدك أن يكسو الجليد الطريق !.. ان الحب شبيه بالحرب ، فويل لذى القلب الضعيف .. ولن يقوى الجبناء على مطالب الحب هذه ، من رحيل بالليل فى عنفوان الشتاء ، ووسط المتاعب والصعاب ..

وان لم تجد سبيلا الى محبوبتك ، كأن كان بابها موصدا لا قبل لك باجتيازه ، فتسلق الجدار واهبط من السقف غير محجم عن انتهاج هذه الطريق الخطرة .. أو أدخل من احدى النوافذ مهما كانت مرتفعة عن الارض .. فان الحبيبة ستفتتن اذا ما علمت أنك خضت المكاره من أجلها ، وسترى فى ذلك دليلا أكيدا على حبك ..

المعدة أقرب طريق الى .. القلب !

ولقد تضطر أحيانا الى احتمال المطر الذى تسكبه عليك السماء ، أو أن تنام على الارض وأنت ترتجف لفرط البرد ، فلا تحجم عن أن تبدى لمحبوبتك مدى استعدادك للتضحية من أجلها .. ولا تتردد فى أن تكسب ود الخدم ، مهما اختلفت مراتبهم .. ما الذى تخسره لو حييت كلا منهم باسمه ؟ لا تتحرج أيها العاشق الطموح عن ان تصافح أيديهم المصفدة بأغلال العمل .. بل خليق بك أن تمنح الوصيف ما يتمنى من منح ، فانها لن تكبدك كثيرا .. ولا تغفل أن تقدم الهدايا لوصيفة محبوبتك !

صدقنى .. افعل كل ما تستطيع لتتحبب الى الخدم والعبيد ، كبيرهم وصغيرهم على حد سواء .. ولست أدعوك الى أن تقدم لحبيبتك الهدايا الغالية ، بل تستطيع أن تكتفى بأشياء بسيطة ، ما دمت تحسن اختيارها ، وتتحين الفرص المناسبة لتقديمها .. فمثلا عندما يبسط الريف يديه بخيراته ، وتنحنى أغصان الشجر مثقلة بالفواكه الناضجة ، ابعث الى الحبيبة بسلة ملأى بهذه الخيرات ، وازعم انها من الريف ، رغم انك انما ابتعتها من سوق المدينة !

وهل أنصحك بأن تبعث لها أشعارا رقيقة ؟ .. ان الاشعار لم تعد – للاسف – موضع تقدير واعجاب ، وقد يصح أن تقدم لمحبوبتك قصائد تتغنى فيها بميزاتها ، ولكنها ستؤثر بلا شك الهدايا المادية الملموسة – فاننا فى عصر الذهب ، وبالذهب تستطيع أن تبلغ أعظم حظوة ! – على أن هناك مع ذلك نفرا قليلا من النساء أوتين ذكاء وفكرا ، ولكنهن قلة تتأثرن فى



ابعث اليها بسلة من الفاكهة ..

الارض .. أما الباقيات فلا يعرفن شيئا ، وان أحببن أن يتظاهرن بالمعرفة ! .. ومع ذلك ، فلا تضن على هؤلاء بالشعر .. واذا كنت تجيد الالقاء ، ففي وسعك أن تجعل لشعرك وقعا فى نفس فاتنتك !

واذا شئت أن تقدم على عمل تخاله نافعا ، فاحرص على أن تدبره بحيث يبدو أنك انما تفعله اكراما لمحبوبتك .. واذا رأيت أن تعتق عبدا ، فأوعز اليه أن يتوسل اليها كى تسألك عتقه ! .. وان أردت أن تعفى عبدا من عقوبة قاسية ، فدبر الفرصة التى تتيح لها أن تشفع له عندك .. ولن تخسر بهذا شيئا ، ولكنها ستخال ان لها عليك نفوذا وسلطانا ، وهو شعور يدخل على قلوب النساء هناء لا مثيل له ..

واذا كنت راغبا حقا فى أن تحتفظ بحب حبيبتك ، فاوح اليها بأنك مفتون بمحاسنها .. امتدح كل ما ترتدى .. فان تزينت بحلى من ذهب ، فقل لها أن بريق حسنها يطغى على بريق الذهب .. وان جاءتك فى ثوب يكشف عن بعض جسمها ، فاهتف بها : « انك تشعلين النار فى كيانى » .. ثم سلها فى استحياء أن تحتاط ضد البرد ! .. اطر رشاقتها حين ترقص ، وصوتها حين تغنى ، وابد أسفك اذا ما كفت عن هذا أو ذاك .. ومثل هذا التصنع نافع طالما أتقنت التستر عليه .. أما اذا كان مكشوفا، فلن يؤدى الا الى القضاء على ما بينكما من ثقة .. الى الابد !

اذا مرضت محبوبتك ..

◆ **وعندما** يجنح العام الى الخريف ، ويتقلب الجو ، فاذا هو فى لحظة بارد ، وفى اللحظة التالية حار لافح ، فارقب حبيبتك بانتباه ، حتى اذا أثرت عليها تقلبات الجو فألزمتها الفراش ، حانت الفرصة كى تبدى وفاءك وتعلقك بها .. **فأبذر لتجنى فيما بعد خير حصاد .. ولا تخجل من أن تبكى الى جوار فراشها ، ولا تدع التقزز يصدك عن تقبيلها ، وليرطب الدمع شفتيك اذ ذاك ..**

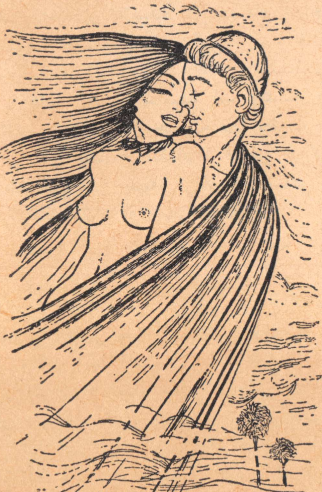
ان الحب يولد ضعيفا ، ولكن الممارسة تقويه فتعلم كيف تغذيه كى يشتد عوده .. واحرص على أن تألف حبيبتك وجودك ، فليس أقوى من الالفة القائمة على التعود .. أعنى أن لا تسمع حبيبتك صوتا سوى صوتك ، وأن تكون أمام عينيها ليل نهار..حتى اذا استوثقت من انها قد اعتادت وجودك، فبادر الى الغياب ، ليثير بعدك شجونها .. فان الارض اذا حرثت وقلبت تربتها ، لا تلبث حين تلقى اليها البذور فيما بعد أن تنبت خير نبات ..

ولكن .. لا تطل الغياب ، فان الزمن يطفىء الشوق والحنين..والحبيب الذى يطول غيابه عن العين لا يلبث أن ينسى ويفسح المجال لسواه !

الشك يحيى الغرام !

◆ **ولا تمنحن** امرأة من الهدايا ما تستطيع أن تتعرف عليه امرأة أخرى .. فلست أفرض عليك أن تقصر حبك على امرأة واحدة ، ولكن احرص على ستر هذه « الاختلاسات » العاطفية ، وعلى تغيير مواعيد وأماكن لقاءاتك ، حتى لا تفاجئك احدى الحبيبات فى مكان تعرف انك اعتدت التردد عليه !

ومع ذلك ، فلا تبادر الى الانكار لو افتضحت غرامياتك رغم تسترك .. ولا تسرف ـ فى الوقت ذاته ـ فى التذلل أو التلطف والاعتذار أكثر مما تعودت ، لان هذا الاسراف دليل على شعور بالذنب .. وفى معارك الحب ، أبذل كل قواك ولا تدخر وسعا .. فبهذا وحده تستطيع أن تبرأ من مغامراتك السالفة ..



ولقد نصحتك بأن تتستر على خيانتك ، ولكننى أعود فأنصحك بأن تكف عن التستر ، وأن تنشر غزواتك فى الحب وتعلنها على الملأ .. ولا تبادر فتتهمنى بعدم الثبات على المبدأ ، فان الزورق لا يتأثر بريح واحدة ، ومن ثم فعلى الربان أن يكون يقظا فيتخذ لكل ريح ما ينبغى من حيطة واستعداد .. وقد نصحتك بأن تعلن غرامياتك ، لان الحياء والتواضع والتستر لا

تفيد بعض العشاق ، بل ان حب نسائهم لا يذكو ويستعر الا على لفحات الغيرة .. والنار الصغيرة لا تلبث أن تخبو ما لم تغذها بالوقود !

وكذلك الحب .. فاذا بدأ القلب يفتر بين فيض الملل ، لم يعد بد من وخزه بسنان الغيرة .. ولتخلق لحبيبتك ما يثير قلقها بعض الشىء حتى تدب الحرارة فى قلبها .. وكم هو سعيد ذاك الذى تئن حبيبته متوجعة اذ ترى نفسها منبوذة .. ولقد تثور ، وتتهيج ، وتخدش وجهه ، وتشد شعره .. وكفى بهذا دليلا على عودة الحب الى التوهج ، واذ ذاك ، بادر الى وضع حد لغيرتها حتى لا يثير السخط سخيمتها وحقدها .. بادر الى تطويق عنقها بذراعك ، وضم وجهها الى صدرك كى تغسله بدموعها .. جفف الدمع بقبلاتك ، وأغمرها بلذاذات الهوى ، تهدأ ثائرتها ، وينطفىء غضبها !

وبنعمة ربك فحدث !

◆ **عند** هذا الحد من أناشيدى ، تجلى لى « أبولو » وأوتار قيثارته الذهبية تعزف تحت أنامله ، وقد أمسك فى يده غصنا من الغار ، وتوج رأسه باكليل آخر منه ، وقال وهو يرمقنى : « يا سيد فن الحب وأستاذه ، بادر باحضار تلاميذك الى معبدى ، حيث يقرأون الشعار الذى طبق الآفاق: «اعرف نفسك يا ابن آدم » .. فالذى يعرف نفسه ، يتبع فى حبه نهج الحكمة .. وهو وحده الذى يستطيع أن يقيس ما يصبو اليه بمدى مقدرته .. **فاذا كانت الطبيعة قد وهبته وجها مليحا ، فليعرف كيف يفيد من ذلك .. واذا كان حديثه مما يطيب ، فلا ينبغى أن يلزم الصمت القبيح .. وان كان يحسن الغناء ، فليغن فى كثير من الاحيان .. أما الذى لا ينبغى عمله فهو أن يعمد ثرثار أو شاعر مجنون الى قطع حبل الحديث ليمضى فى القاء نثره أو شعره ! »**

فثقوا أيها العشاق كل الثقة فى هذه الكلمات التى انبعثت من فم قدسى .. وكل من يمضى فى حبه بحكمة ، وفقا لفنى ، لابد له من الظفر وبلوغ الهدف .. على أن الرياح لا تواتى الملاح دائما ، فلا ينبغى أن يتوقع سوى القليل من المسرات ، والكثير من الشجون .. والمحن القاسية !

والآن أيها العشاق ، سأتحدث عن أمور هامة ، فأعيرونى أسماعكم .. ان الموضوع لجد خطير ، ولكن ما قيمة الشجاعة اذا لم يوجد الخطر ؟.. ان الهدف الذى يرمى اليه فنى ليس بالسهل المنال :

اذا اعترضك مزاحم أو غريم ، فتول أمره دون ما شكوى ، يكن نجاحك مؤكدا .. دع عشيقتك تبدى له من الاشارات ما شاءت ، ولا تحاول أن توقفها عن الكتابة اليه ان فعلت ذلك .. ودعها تروح وتغدو كيفما طاب لها ،



فكم من زوج يعامل زوجته الشرعية بمثل هذا التسامح .. فما بالك بالعشيقة ؟

والحق أننى لم أقو شخصيا على أن أبلغ هذه الدرجة من الكمال ، لأننى لم أبلغ الكمال فى فنى .. فان الذى يدع سواه من الناس يتصلون بحبيبته لهو أوسع منى حيلة وأكثر دهاء .. ولا يجب أن تشعر حبيبتك بأنك على علم بأمرها ، بل دعها تخفى خياناتها ، والا عودتها ـ بانتزاع الاعترافات منها ـ أن تنزل عن حيائها ، وحفزتها على أن تجرد أسلحة خداعها .. **وثق أن الحبيبين اللذين يؤخذان على غرة ، لا يزدادان الا تشبثا بحبهما ، واصرارا على الذنب الذى افتضح .. فلا تكمن متربصا بمزاحمك ، ولا تحاول أن تتجسس على رسائل الهوى ، بل دع ذلك لسواك ممن له حق الولاية عليها ..**

ولقد حذرتكم من الثرثرة فيما يمس معبد الهوى .. ان كل ما يجرى بينك وبين حبيبتك لا يجب أن يتسلل خارج لقاءاتكما ، والا فقد سحره وغموضه .. ومع ذلك ، فما أجرأنا الآن على اعلان مغامراتنا الغرامية .. وليت الامر يقتصر على هذا ، بل ان بعض الرجال يبتكرون من القصص ما يجدر بهم ان ينفوه ، حتى ولو كان قد حدث حقا .. وانك لتخال ، اذ تنصت اليهم ، أن ليس من امرأة تقوى على مقاومة اغرائهم ! .. فانبذ هؤلاء ، ولنحرص جميعا على أن يكون التحفظ رائدنا اذ نتكلم عن غرامياتنا الصادقة ، وان نبقى متعنا الخاصة مخبأة تحت ستار لا يمكن التسلل خلاله اليها ..

الكلمات اللبقة بلسم يداوى العيوب !

◆ **والزمن** يصلح كل شىء ، حتى معايب الجسد ، فلا تلم حبيبتك على أخطائها ، أو تعيرها بما قد يكون فى جمالها من نقص ، بل عود نفسك على قبول ما لا يعجبك فيها ، فان التعود كفيل بأن يعمى العين عن أى عيب .. والحب لا يحفل بشىء .. ولا تنس أن من الكلمات ما يخفى العيوب .. فان كانت حبيبتك سوداء ، فتغزل فى السمرة .. وان كان بعينيها حول ، فتحدث عن حور فينوس ! .. ولو كانت من النحول بحيث لا تصمد للنسمة

العابرة ، فصفها بالرشاقة .. وهكذا فلتسدل على أى عيب ستارا من معسول القول .. ولا تسلها أبدا عن عمرها !

والآن بلغت نهاية مهمتى ، فمجدوا ياعشاق شاعركم ، وتغنوا بمديحى ، ليظل اسمى مدويا فى الكون كله .. ولعل كل عاشق ، نال النصر بالسلاح الذى صقلته له ، ينقش على لوحة أمجاده : « لقد كان أوفيد أستاذى »

الجزء الثالث



◆ **ولكن** ، مهلا .. فان الجنس اللطيف يسألنى بدوره دروسا ، وانى لادخر لكن ياغانيات ، ما يلى :

أقبلن على المعمعة بنفس الاسلحة .. فليس من الصواب أن أعرضكن لغزوات الرجال الذين أحسنت تسليحهم ، دون أن أمدكن بأسباب الدفاع..

ولقد يهتف قائل منا معشر الرجال : « ولكن ، كيف تمد الافعى بمزيد من السم ؟ » .. ألا كفوا معشر الرجال عن اتهام النساء جميعا بجرم فئة قليلة منهن .. وكيف تحمل واحدة وزر أخرى ؟

ان الفضيلة عند المرأة تقاس بمسلكها وتصرفاتها وما لها من اعتبار لدى الغير .. فهل من عجب بعد ذلك فى انها تولى صداقتها لبنات جنسها ؟.. ولكن ، لست لهؤلاء الجليلات ألقن فنى ، انما أقدمه للساعيات وراء الهوى.. سأعلم النساء كيف يصرن محبوبات ..

ان النساء لا يعرفن كيف يقاومن لذعات سهام الحب وقسوتها .. **فانه ليبدو لى أن هذه السهام تغوص فى قلوبهن الى أبعد مما تبلغ فى قلوب الرجال، ومن ثم فكثيرا ما يكون الرجل غير مخلص ، أما المرأة فيندر أن تكون عديمة الوفاء ..**

وسأبين لكن ـ أيتها التعيسات ـ لماذا تفقدن رجالكن ! انكن تفتقدن الفن الذى يذكى وقدة الغرام .. الا فاصغين أيتها الحسان لدروسى ، بينما أستلهم فينوس الوحى .. وان فضولكن ليدفعكن الى سماعى :

فكرن لحظة فى الشيخوخة التى لا تلبث أن تفد سراعا ، فان هـذا التفكير يعصمكن من أن تضيعن لحظة دون الانصات لى .. فلتتمتع كل فتاة بزمنها طالما كانت فى ربيع العمر ، فان السنين تتسرب كالماء .. خـذى أقصى ما تستطيعين من الشباب ، فانه سريع الانصرام .. وكل يوم أقل بهاء من سابقه .. **ولن يلبث أن ياتى وقت تهرمين فيه أنت يامن تعتدين اليوم بشبابك وتنبذين الخاطبين ، فلا تلبثين أن تجدى نفسك مهجورة ، تعانين الرجفة فى ليل الشتاء .. وليس من شىء يقوى على أن يرد الينا ما يسلبنا الزمن من ميزات .. فاقطفى الوردة التى اذا تركتها انزوت وهوت ذابلة ..**

وما الذى تخسرنه أيتها الفانيات لو ان أحباءكن أقدمن على خيانتكن ؟.. ان الحسناء منكن لا يجب أن تحفل بهذا أكثر مما ينبغى ، ما دامت تحتفظ بمحاسنها ومفاتنها .. أفهل يفقد المشعل توهجه اذا وضع الى جوار مشعل آخر ؟

واهتمى بزينتك قبل أى شىء آخر ، فان الجمال نعمة من الآلهة .. والوجه مهما كان بهاؤه لا يلبث أن يفقد رواءه اذا لم يلق ما ينبغى من عناية ..

ولكن ، حذار ، فان كثيرا من المغـريات التى تصطنعينها لنا تؤتى أثرا عكسيا .. فلا تثقلى دائما أذنيك باللآلىء ، ولا تثقلى مشيتك بأساور الذهب .. بل ان البساطة مع الذوق ترضينا أكثر من أى شىء آخر ..

ولا تهملى قط شعرك ، فان فتنته تعتمد ، فى زيادتها أو قلتها ، على براعة اليدين اللتين تعقصانه .. وهناك ألف نمط لتنسيقه ، فاختارى الشكل الذى يلائمك أكثر من سواه ، واستشيرى دواما مرآتك .. فالوجـه البيضاوى يتطلب ان تفرقى الشعر من منتصفه .. والوجه المسـتدير يناسبه تجميع الشعر فى منتصف الراس بحيث تبقى الاذنان مكشوفتين .. والبعض يلائمهن أن يرسلن الشعر على أكتافهن .. فى حين يليـق بالبعض أن يجدلنه ويرفعن الجدائل .. وقد يفتننا فى البعض ان يكون الشعر مجعدا ـ فى حين يسحرنا من بعض آخر ان يكون الشـعر مستويا مبسوطا ـ وقد يحسن بالمراة أن تتعمد شيئا من الاهمـال ، فان الفن يهفو الى تقليد السجية ..



الطبيعة تحابى النساء !

◆ **وما أكثر** استعداد الطبيعة لمعاونة مفاتنكن أيتها النساء ! .. انها تمدكن بكثير من المنح التى تصلح ما يفسد الزمن .. **فى حين أننا ، معشر الرجال ، لا نستطيع أن نخفى فعل الزمن بنا .. وبينما يتساقط شعرنا كأوراق الشجر تعصف بها الريح السافية ، اذا النساء يصبغن شعورهن، فيضفين عليها ألوانا مستعارة تجعلها أشد فتنة مما كانت فى الاصل.. وما أسهل على المرأة من أن تستعمل شعور سواها تبتاعها بالمال ، فى غير ما خجل ولا حرج ..**

وماذا أقول عن الثياب ؟ .. لست أحفل بالملابس الغالية ، وهناك ألوان عديدة لا تتكلف الكثير .. فلماذا ترتدين كل ما تملكين من ثروة .. ؟حكمى الذوق فى الاختيار ، فاللون الواحد لا يمكن أن يلائم الجميع .. وانما يلائم الاسود ذات البشرة البيضاء ، ويلائم الابيض ذات البشرة السمراء .. وهكذا

ولقد هممت أن أنذركن أن لا تدعن رائحة تنبعث من الآباط ، ولا تتركن سيقانكن مكسوة بالشعر .. وما حاجتى الى أن أنصحكن بأن لا تدعن الاهمال يسود بياض أسنانكن ، وبأن تغسلن أفواهكن كل صباح بالماء الدافىء ! ..ان عليكن أن تستعرن من البياض لونه ، ومن الورد حمرته .. كما يجب أن تعرفن كيف تصلحن بالقلم ما اعوج من حواجبكن ، وأن تستعن بالمعاجين على أن تغطين امارات السن .. ولا تخشين من أن تزدن عيونكن بريقا بتراب الزعفران ..

أنشدن كل عون يا من لم تؤثرهن الطبيعة بمحاسنها ، ولكن حذار من أن تدع الواحدة حبيبها يراها بين الصناديق والعلب التى تحوى هذه المواد .. دعى الفن يزيد من جمالك دون أن يطلع أحد على ذلك .. اذ منذا الذى لا يشمئز اذ يرى الدهن الذى تستعملينه لتكسبى وجهك نعومة ،

وقد ذاب وانحدر على نحرك ؟ .. ان من الامور ما يروق لنا اذا ما عمل ، ولكنه يثير نفورنا اذا ما رأيناه أثناء عمله .. فهل لك أن تجعلينا نظنـــك مستغرقة فى النوم بينما تكونين عاكفة على زينتك ؟ .. فانك ستكونين أحظى بالاعجاب اذا ما ظهرت بعد ذلك .. تأملى الزينات التى تزركش المسرح .. لو أنك فحصتها عن قرب، لرأيت أنها من الخشب المكسو بقشرة من ذهب، ولكن النظارة لا يستطيعون أن يروها وهى تصنع .. وكذلك أنت ، لا ينبغى أن تؤدى المغريات المصطنعة الا فى غياب الرجال !

الشعر زينة المرأة

على أننى لم أمنعك من أن تمشطى شعرك فى حضورنا ، فانى أحب أن أرى أمواجه تترامى على كتفيك ، ولكن لا تسرفى ولا تكثرى من مس جـــدائل شعرك ..

لست أوجه حديثى هذا الى الفاتنات .. ان أغلب تلميذاتى يتألفن من حسناوات وقبيحات ، والاخيرات هن الاكثر عددا .. أما الحسان فليست بهن حاجة الى فنى ، اذ أنهن أوتين نعمة الجمال التى لا تدين بسلطانها الى فن !

قليلة هى الوجوه التى تخلو من بعض النمش والشوائب ، فاخفى هذه الشوائب بحرص وعناية ، واجتهدى ما استطعت فى أن تخفى نقص جسمك .. فاذا كنت قصيرة ، فالتجئى الى الجلوس ، حتى لا يظنك الناس جالسة وأنت واقفة .. واذا كنت نحيلة ، فاختارى أقمشة ثيابك سميكة ، واطرحى على كتفيك عباءة واسعة .. أما اذا كنت شاحبة ، فاصبغى خديك بشىء من الحمرة .. واخفى قدميك ـ اذا كانتا مشوهتين ـ فى حذاءين أبيضين .. واحيطى عنقك ـ اذا كان ممتلئا ـ بوشاح جميل .. وقللى من الاشارات حين تتكلمين ، اذا كانت أصابعك مكتنزة وأظافرك مشوهة ..

أما تلك التى لفمها رائحة كريهة ، فخير لها أن لا تتكلم وهى صائمة ، وأن تجعل بينها وبين الرجل مسافة حين تتحدث .. وذات الاسنان المشوهة أو غير الناصعة ، يخلق بها أن تحترس عندما تضحك ..

ومن يصدق ان الجميلات يجب أن يتعلمن كيف يضحكن ، اذ ان هذا فن يزيدهن سحرا ؟ .. لا تفغرى فمك على سعته ، ودعى غمازتين تظهران فى وجنتيك ، ولتغطى شفتك السفلى أطراف أسنانك العليا .. وتفادى القهقهة العالية ، واجعلى لضحكتك نعومة ووفرى فيها من الأنوثة ، حتى يستمتع الرجل بها .. ومن النساء من اذا ضحكت لوت فمها بشكل بشع ، أو بدا ضحكها كالبكاء ، أو خرقت الاذن بصوت قهقهتها !

أمثلة من أسلحة المرأة !

◆ وليس للفن حدود .. وكما ينبغى أن تتعلمى فن الضحك ، يجب أن تتعلمى فن البكاء .. تعلمى كيف تكونين مهيبة فى بكائك ، وأن تبكى عندما يحلو لك البكاء .. وماذا أقول عن اللاتى يتلعثمن فى حديثهن ؟ .. ان عيوب النطق قد تغدو فتنة للرجال اذا أحسنت دراستها والتحوط ازاءها ..

كذلك تعلمى كيف تسيرين كما تسير النساء .. ففى الرشاقة سحر لا يجب أن يستهان به .. وتستطيع أية امرأة أن تجذب حبيبها بمشيتها .. ومن النساء من تضبط حركات ردفيها بحيث تدع ثوبها يميل مع النسمات، ومشيتها ذات جلال وجمال .. وترك الكتفين وأعلى الذراعين عارية من أكثر الاشياء ملاءمة لذات البشرة البيضاء ..

والصوت العذب من أقوى أسلحة الاغواء ، والاغنية الرقيقة تثير الفتنة .. لذلك ينبغى لكن معشر النساء ان تتعلمن الغناء .. ومنذا الذى يجهل ما للقيثارة من معجزات ، فتعلمى كيف تحركين أوتار قيثارتك ، فتتحرك معها أوتار قلب الرجل .. وهل ثمة أقوى على فتنة الرجل من اشعار « سافو » ؟ .. فاحفظى من الشعر أرقه ، ومن النثر أبدعه .. والقى الشعر بصوت جميل ، منغوم ، ناعم !



ومن يدور بخاطره أننى أتمنى أن تؤتى كل جميلة موهبة الرقص ؟ .. لكم أحب أن أرى ذراعيها تتحركان مع الموسيقى وهى تقدم لى الكأس .. واذا كان يخجلنى أن أمضى فى الحديث، الا أننى أحب من تلميذتى أن تعرف كيف تلقى الزهر أثناء اللعب ، وان تجيد لعب الشطرنج .. فتعلمى كثيرا من متباين الالعاب ، فالحب يأتى فى سياق اللعب ..

◆ على أن أهم كل شىء أن تكونى قادرة على أن تسيطرى على نفسك ، فان المرء اذا ما انساق مع اللعب ، كثيرا ما يغفل عن أدق ما يتستر عليه من

عواطفه .. فاذا الغضب وحب الكسب يتسلطان ، ويؤديان الى الشقاق الذى لا يولد سوى أكثر دواعى الندم مرارة ..

واعزفى عن الرياضة العنيفة ، ولكن فى استطاعتك أن تتنزهى سيرا على الاقدام ، فزورى الحدائق ، والمعابد ، ومواطن الآثار ، والمسارح والملاعب.. فان التى تخفى نفسها تظل مجهولة ، والمجهول دائما غير مرغوب .. وما قيمة الوجه الجميل اذا لم يره أحد ؟ .. انكن لتحسن صنعا يا عزيزاتى اذا اختلطتن بالجموع ، فأكثرن من الخروج ولو بدون غاية أو هدف واضح .. اذ لابد للحسان من أن يخالطن الناس ، فقد يكون بينهم من يفتن بسحرهن ، ولتحرص الحسناء على أن تروق للجميع ، وعلى أن تبدى اهتماما بكل من تجتذبه مفاتنها .. فالحظ يوزع الفرص فى كل مكان ، ومن ثم يجب أن يكون الشص معدا فى يدك ، اذ لن يلبث السمك أن يفد عليه من حيث لا ترتقبين !

تحاشى الرجل المخنث !

ولكن ، تحاشى الرجل الذى يبالغ فى أناقة ملبسه ، وفى اظهار جماله ، وفى الخوف من أن يخل بتناسق شعره.. فان ما يحدثك به لابد قد ردده آلاف المرات لسواك .. وما حب هذا الصنف سوى حب عابر لا يستقر .. وما الذى يستطيع أن يقدمه مثل هذا الرجل للنساء اذا كان يسف فى التخنث أكثر منهن ؟

ومن الرجال من يتسلطون على المرأة بحب زائف ، فلا تغترى بالشعر المعطر، أو الثوب الانيق ، أو الخواتم الكثيرة التى تحلى الاصابع .. ومن هؤلاء من ذاع سوء سمعتهم ، ومن ثم فان اللائى يقعن فريسة لاغرائهم يستحققن نصيبهن من العار .. فتعلمن من الغير ان تتجنبن هذا الصنف من الرجال ..

وقاومى أيتها المرأة ما يبذله لك حبيبك من معسول الوعود ، ولا تقابلى هداياه الا بمآثر مناسبة .. واذا ما كتب لك الحبيب رسالة ، وأسلمها لخادم بارعة كى تقدمها لك ، فاقرأيها فى تأن وتمعن ، وزنى كل عبارة فيها محاولة أن تتعرفى ما اذا كان حبه زائفا أو كانت عباراته تنبعث من القلب **... ولا تستجيبى بسهولة لغزل العاشق الشاب ، كما أنه لا ينبغى أن ترفضيه فى جفاء ، بل تريثى بحيث تجعلينه موزعا بين الامل والخوف ، وبحيث أن كل ارجاء يزيد من أمله ويقلل من خوفه .. ولتكن اجاباتك عن رسائله دقيقة ، تجمع بين البساطة والود ، وعباراتك مبعث**



مسرة فى النفس.. ولا تبعثى برسائلك الا وصيفة أمينة ، أو عبدا أثبت أنه جدير بالثقة .. واحذرى أن تكون رسائلك أسلحة لا تلبث أن تشهر ضدك اذا لم تكن اليد التى تتلقاها أمينة.. وكم يحسن أن تكتبى رسائلك كما لو كانت موجهة الى امرأة لا الى رجل ..

ولكى تصونى رقة ملامحك ، تعلمى كيف تسيطرين على فورة عواطفك ، فان الغضب يذهب بنضارة الوجه ، ويدفع فى العروق دماء قاتمة ، ويذكى فى العينين بصيصا من النار .. ولو أنك تأملت صورتك فى مرآة أثناء الغضب لانكرت نفسك !

والكبرياء من الشيم الضارة ، فيجب أن تكون فى نظراتك ليونة آسرة.. فان الحب يبدأ بسهام ناعمة .. كما أننا ـ معشر الرجال ـ نكره الحزن .. وليس يستهوينا أكثر من المرح والبشر ..

هدايا العاشق الغنى .. وهدايا الفقير !

ومهما كانت هدايا الغنى ، فاننا معشر الشعراء لا نملك ما نقدمه سوى الشعر ، ولكنا نعرف الحب أكثر من سوانا .. اننا نعرف كيف نمجد الجمال وكيف نخلق المسرة الباقية ، وكيف نسمو بالمشاعر بأشعارنا .. لا يستهوينا الطموح ولا يزيفنا حب الثراء .. بل ان الحب يذكى فينا أعتى النيران ، فنحب بكل ثقة وكل اخلاص .. فترفقن أيتها العذارى بالشعراء !

واعرفن لكل رجل أسلوبه .. فليست أساليب كسب الشاب الذى فى ربيع العمر ، بشبيهة بأساليب اكتساب الرجل الناضج .. واعملى للمزاحمة كل حساب ، فلن تقوى على الاحتفاظ بحبيبك ما لم تكونى منفردة بالسيطرة على قلبه .. اذ أن قوة الحب ، كسلطان الحكم ، لا تقبل التجزئة ولا ترضى أن تكون موزعة ..

ولا يبعث الملل الى قلوب الازواج سوى أنهم يرون زوجاتهم فى كل مكان ، أينما شاءوا ، وكلما طاب لهم .. فلا تفتحى بابك دائما فى وجه الحبيب ، بل صديه بين آن وآخر ، فان الصد يذكى الغرام ..

وكما نصحت الرجال أنصحكن : احذرن الصديقات ، فقد يستغللن ثقتكن وما تدلين به من أسرار ، فى اجتذاب عشاقكن .. ولا تستبقين فى خدمتكن

خادمات جميلات ، والا استهوين رجالكن .. وابذلن ما فى وسعكن لاشعارنا بأنكن تحببننا ، وليس أسهل من ذلك عليكن .. النظرات الحانية ، الزفرات المتصاعدة ، الدموع الممزوجة بالغيرة المصطنعة !

ولا تفقدى جلدك بمجرد معرفة ان ثمة غريمة تنافسك .. واذا دعيت الى مأدبة ، فليكن وصولك بعيد الموعد ، ولا تكشفى كل مفاتنك بمجرد وصولك .. وأذكرى أن معرفة وسائل تناول الطعام فن ، فاهتمى بأن تتقنيه ..

أيتها النساء ، أتركن المسرات تتغلغل فى كيانكن ، وأشركن الرجال فى مباهجكن .. اهمسن في نعومة ، وتمتمن فى ليونة .. ومهما كنتن لا تشعرن بالسرور ، فدعن شفاهكن تهمس كذبا بوصف ابتهاجكن .. ودعى عينيك وحركاتك تخدعنا .. ولتذكى تهدجات صوتك، ولهثات أنفاسك، وقدة الهوى فى قلوبنا ..

والآن ياتلميذاتى الحسان ، افعلن كما فعل أحباؤكن الشبان .. انقشن على لوحة أمجادكن : « كان أوفيد أستاذنا ومعلمنا ! »

إقرأ معى



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى اعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- آراء جريئة فى الحياة للفيلسوف الانجليزى المعاصر « جود »
- آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو
- كيف نجحوا فى الحياة : لديل كارنيجى
- الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك
- مراهق : البرتو مورافيا
- آلهة ومقابر وعلماء : سرام
- الالمان ، شعبا وعباقرة : اميل لودفيج
- مستقبل زوجك فى يدك : مسز ديل كارنيجى

واليوم أقدم لك فيما يلى هذا الكتاب الذى ألهم الله السياسى والمؤرخ الانجليزى المنصف «ويلفريد بلنت» أن يكتبه ليفضح مخازى السياسة الاستعمارية البريطانية ومبلغ جناياتها على مصر والشرق

وفى الاعداد القادمة ازمع ان اقدم لك فى هذا الباب مزيدا من الكتب الممتعة ..


SECRET HISTORY OF THE ENGLISH OCCUPATION OF EGYPT
BY
WILFRED S. BLUNT
ويلفريد بلنت
التاريخ السرى
للاحتلال الانجليزى
لمصر

لكى لا ننسى !

◆ فى سنة ١٨٩٥ كتب المؤرخ الانجليزى « ويلفريد سكاون بلنت » فى مقدمة الطبعة الاولى من هذا الكتاب ، السطور التالية :

« ان أصدق وقائع التاريخ ليست دائما ممثلة فى الوثائق الرسمية.. ولسوف يجد المصريون - اذا ما قدر لهم أن ينهضوا ثانية كشعب يحكم نفسه بنفسه - ان الشهادة التى سجلها شخص عرفوا فيه صديقا وفيا، عن الديبلوماسية الغامضة ، لهى شهادة قيمة لا تقدر بمال !

« وليس من المجدى ان ندع الحقيقة تكافح وحدها استنادا الى قوتها ، فى سبيل محق الباطل.. بل ان التاريخ ملىء بالاكاذيب التى ظلت دون أن يماط عنها اللثام ، وبالعقوق الذى وصمت به الشعوب أبناء كانوا من خيرة أبنائها .. »

.. واليوم وقد قدر للمصريين أن ينهضوا ثانية ، ويحكموا أنفسهم بأنفسهم .. ويبعثوا ماضيهم المجيد بالعمل والكفاح من أجل تطهير الارض التى يقفون عليها من الفساد الذى بذر الاستعمار بذوره ليعوق تقدمها وتحررها من نيره البغيض ..

واليوم ، وقد أخذت مصر تسير بخطى واسعة نحو تحقيق أهدافها ، ونحو بناء وطن جديد ينتج خيراته لابنائه ، ولا تلوث ارضه قدم جندى مستعمر ..

اليوم يسرنى أن أضع تحت أنظار كل مصرى ، وكل عربى ، هذا الكتاب التاريخى الخطير الذى يفضح مخازى الاستعمار البريطانى كما كتبها وشهد بها « شاهد من أهلها » هو المؤرخ الانجليزى المنصف « ويلفريد بلنت » .. ونظرا لاهمية الكتاب وخطورة الاسرار التى يكشف عنها ، فقد رأيت أن أقدمه لك مفصلا ، على ثلاثة أجزاء .. فيما يلى الجزء الاول منها :

ذكريات مصرية

الفصل الاول : مصر تحت حكم اسماعيل

◆ **كانت** زيارتى الاولى لمصر فى شتاء سنة ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦ ، حيث قضيت شهورا طيبة كسائح ينشد متعة السفر والترحال ..

كنت اذ ذاك فى الخامسة والثلاثين من عمرى، وقد كسبت معرفة بكثير من الناس والاشياء ، بسبب كونى بدأت حياتى مبكرا عن أقرانى ، فقد كنت أنتمى لاسرة من ملاك الاراضى المحافظين فى جنوب انجلترا ، ومن ثم لم أكد أبلغ الثامنة عشرة حتى عينت فى السلك الديبلوماسى كملحق ، وظللت اثنتى عشرة سنة أتنقل بين المفوضيات والسفارات فى العواصم الاوروبية

وكانت السياسة الخارجية الانجليزية فى تلك السنوات التى أعقبت حرب القرم ، سياسة مسالمة ، لا يشوبها عداء ، ولا تخالطها تلك المخادعات التى اكسبت انجلترا سمعة فى الحيل الديبلوماسية على حساب شرفها وامانتها .وكنا معشر الملحقين وصغار السكرتيرين فى السلك الديبلوماسى نلقن فى جلاء تام ان ليس لنا أن نزج بأنفسنا فى المسائل السياسية التى تشغل بلاطات الملوك الذين كنا نوفد اليهم ..

ولم أكد أتزوج فى سنة ١٨٦٩ حتى توفى أخى الاكبر ، فخلفته فى وراثة ضياع الاسرة فى « سسكس » ، ومن ثم اعتزلت الخدمة الحكومية غير آسف .. وان كانت علاقتى السابقة بوزارة الخارجية قد أمدتنى بمعرفة عملية بالكيفية التى تدار بها السياسة الخارجية وبأولئك الذين كانوا يسيرونها ، والذين كنت على صداقة مع كثير منهم ـ كاللورد كرى (الذى ظل سنوات يدير السياسة الثابتة لوزارة الخارجية) والسير هنرى درموند وولف ، والسير فرانك لاسيلز ، والسير ادوارد ماليث ، واللورد دفرن ، واللورد فيفيان ، والسير ريفرز ويلسون .. وكلهم ممن غدوا فيما بعد وثيقى الصلة بتطور التاريخ المصرى ..

ومن المعتقدات الشائعة لدى أولئك الذين لم يؤتوا خبرة شخصية بالديبلوماسية ، ان الاحداث الجسام فى تاريخ العالم تأتى نتيجة تصميم وخطط سياسية مرسومة ، وليست ـ كما هى فى أغلب الاحوال ـ وليدة حوادث لم تكن مرتقبة ، ونتيجة قوة أو ضعف الموظفين الذين يعالجون هذه الحوادث .. بل وقد تكون أحيانا نتيجة نزوات شخصية !

واذ رأيت صحتى تميل الى الانحراف فى سنة ١٨٧٣ ، فكرت فى ان أتجنب أواخر الربيع فى انجلترا، وقمت مع زوجتى بأولى رحلاتنا المشتركة الى بلدان الشرق ، عن طريق بلغراد ، فحوض الدانوب ، فالقسطنطينية .. وكانت الامبراطورية العثمانية اذ ذاك فى فترة هدوء نسبى .. وما ان

وفى شتاء العام التالى حتى كنا فى الجزائر ، حيث قضينا بضعة شهور رأينا فيها شعبا شرقيا يعانى ربقة عنف دولة غربية .. اذ لم تكد فرنسا تشتبك فى حرب مع ألمانيا ، حتى هبت ثورة عربية فى الجزائر ، وكان أن تعرض الاهالى لاقسى ألوان العسف .. ومع كل ما كنت أدين به من حب لفرنسا ، وجدتنى فى الجزائر أتجه بعواطفى كلها نحو العرب .. وبذلك تلقيت أول درس سياسى !

زيارتى الاولى لمصر

وفى شتاء ١٨٧٥ - ١٨٧٦ زرت مصر لأول مرة .. وأحب قبل أن أمضى فى الحديث أن أذكر أن زوجتى ((ليدى آن بلنت)) - التى رافقتنى فى أسفارى - كانت حفيدة الشاعر الوطنى العظيم ((لورد بيرون)) ، فورثت عنه حبه للحرية فى الشرق ..

ولم يخامرنا - فى زيارتنا الأولى لمصر - سوى ما يخامر كل محب للاسفار وهو يسعى الى بلاد الشرق .. وحين هبطنا السويس فى الايام الاولى من عام ١٨٧٦ ، استقبلنا أنباء الكارثة التى أصابت الجيش المصرى فى الحبشة ، وفقد فيها حياته لورينج باشا - الضابط الامريكى الذى كان مع الجيش - وعدة آلاف من الجنود وصف الضباط .. فوضع النحس بذلك حدا لامل اسماعيل فى اقامة امبراطورية تشمل وادى النيل بأسره ! واستأجرنا ابلا حملتنا الى القاهرة .. وفى خلال الايام الاربعة التى قضيناها فى الطريق مع الجمالين البدو ، تلقينا أول دروسنا العملية فى اللغة العربية ..

ودخلنا القاهرة فى صباح اليوم الخامس ، فاستقبلنا عند العباسية أزيز رصاص جنود الخديو وهم يتدربون ، فما خطر لنا اننا قد نهتم يوما باعمال هؤلاء الجنود كجيش محارب ، وانهم قد يستأثرون بعواطفنا يوما وهم فى حرب ضد أبناء بلادنا .. اذ كنت حتى ذاك الحين أؤمن بالقصيدة السائدة بين الانجليز فى أن انجلترا مبعوثة العناية الالهية الى الشرق ، وان حروبنا هناك ما شنت الا لاسباب تنطوى على الخير ..

وعبر «كوبرى قصر النيل» انحدرنا الى الجيزة فرأينا الاهرامات ، ثم واصلنا السير فبلغنا قرية «الطلبية» مع غروب الشمس ، وهناك هبطنا لاول مرة على التربة السوداء التى منحها النيل مصر .. وتلقانا أهالى الطلبية بكرمهم الريفى البالغ .. وكان للصداقة التى اولونا اياها اثر فى تيسير اتصالنا بالفلاحين فى المناطق المجاورة ..

كان الفلاحون فى ذلك الوقت فى فقر مدقع ، اذ كانوا يجتازون اول الاعوام الثلاثة الاخيرة فى حكم الخديو اسماعيل .. وكان اسماعيل صديق

– المفتش الطاغية – فى اوج جبروته ، يجمع الاموال لسد فوائد حملة سندات ديون الخديو من الاوربيين ، ويترك الفلاحين يتضورون جوعا ! .. وكان من النادر ان تجد فلاحا فى الحقول يتوج رأسه بعمامة ، او يرتدى من الكساء أكثر من الجلباب .. كما كانت مراكز المديريات فى أيام الاسواق تكتظ بالنسوة يبعن ثيابهن وحليهن للمرابين اليونانيين ، لان محصلى الضرائب كانوا يجوبون القرى وسياطهم فى ايديهم !

واستمعنا الى قصصهم فشاركناهم السخط على حكومة كانت تدفعهم الى العوز والاملاق .. وكان الفلاحون يتكلمون فى صراحة تامة ، اذ كان الانجليز اذ ذاك يبدون لأهالى البلدان الاسلامية أبعد الناس عن الأغراض السياسية التى كانت تراود الشعوب الاوروبية الأخرى.. وكانت ثمة شائعات فى القرى عن احتمال تدخل احدى الدول الاوربية .. وكانت هذه الشائعات ترشح انجلترا.. وفى حالة الجوع والتسول التى كان الفلاح يعانى منها وهو يرى أمواله تسلب، ولا يتلقى جزاء سوى الضرب، بدت انجلترا محوطة بهالة من الخير والود والثراء والبعد عن الغرض والقدرة على اصلاح الاخطاء !.. ولم يراود القوم اى ريب فى الانانية التجارية الهائلة التى كانت تقودنا – كامة – الى كثير من الاعتداءات على الشعوب الضعيفة فى العالم .. وكنت أنا الآخر أومن بانجلترا فى ذلك الحين، وأعتقد فى الفكرة الشائعة عن حكمها العادل فى الشرق ، فلم اكن ارجو للمصريين سوى ان يشاركوا الهند – التى لم اكن قد زرتها بعد – نعمة التمتع بحمايتنا !

وقد كتبت اذ ذاك فى مذكراتى : «ان المصريين شعب طيب ، امين .. لا تعصب عنصرى لديهم ، ولا تعصب دينى تقريبا .. ولقد عوملوا اسوأ المعاملة أجيالا عديدة ، فلم يفقدهم ذلك طيبة قلوبهم .. ومع ما يرزحون تحته من ظلم فظيع ، الا أننا لم نسمع منهم كلمة تذمر أو تمرد .. »

هكذا كان رأيى الاول فى مصر فى أوائل سنة ١٨٧٦ ، وهى آراء غير صحيحة ، اذ لم اكن قد فطنت الى بدء نمو الافكار السياسية فى المدن ولا فهمت مدى الاثر المالى الاوربى فى المحن التى كان الفلاحون يعانونها .. على أننى ما لبثت أن عرفت من صديق كان أحد أعضاء بعثة «مستر كيف» المالية ، بعض الحقائق عن الشئون المالية ..

كان الخديو اسماعيل قد بدأ حكمه فى أوقات كانت مصر تنعم فيها بالرخاء ، وقد تحرر فلاحوها من ربقة الشراكسة ، حتى لقد كانت فى نهاية حكم سعيد أغنى ولايات الامبراطورية العثمانية ، ومن أرقى الولايات الزراعية فى الشرق بأسره .. وكان اسماعيل قبل أن يتولى الحكم فى سنة ١٨٦٠ من كبار ملاك الأراضى ، وكان يدير ضياعه الواسعة فى صعيد مصر على أحدث الأساليب الراقية .. أما ارتقاء الحكم فكان

مفاجأة له ، اذ أنه لم يكن الوريث الذى يلى سعيد مباشرة . ولعل هذه المفاجأة غير المنتظرة هى التى قادته الى البذخ والاسراف ، اذ الفى نفسه الحاكم المطلق ، ووجد تحت يديه ثروة طائلة ، لم ينظر اليها كوديعة من الشعب فى عنقه، بل عمل أولا على زيادة ثروته الخاصة ، واشباع ملاذه !

وكان يحيط نفسه بحاشية من المرائين ، من وطنيين واوربيين ، راحوا يمنونه بجعله من أعظم الماليين ، وأعظم عواهل الشرق اطلاقا ، فنسى ذكاءه ومهـــارته وانساق فى تيارهم ..

وكان اول ما لجأ اليه من هذا القبيل ان رفع العوائد التى كانت الدولة تتقاضاها على الارض ، من اربعين قرشا الى مائة وستين .. ثم اوحى اليه المتملقون بان الاراضى فى عهد جده ـ محمد على ـ كانت ملكا للوالى ، فسعى الى العودة الى هذا الوضـع ، بوســـائل من الضغط الادارى ومن اثقال كاهل الملاك بالضرائب ، حتى يضطرهم الى أن يبيعوا أراضيهم له ! .. ومع انه كان موفقا فى ادارة ضياعه قبل الحكم ، الا ان اتساع املاكه الى الدرجة الهائلة التى صار اليها ، كبده كثيرا من الخسائر .. فقد كان اعوانه يسرقونه بكل الوسائل .. وهكذا بدأت متاعبه المالية .. وضاعف منها غزو أعالى النيل ومحاولة فتح الحبشة مما اضطره الى الاستدانة ..

الكارثة التى جلبها اسماعيل بحماقته

ولقد قدر ماتكبدته مصر خلال حكمه باربعمائة مليون من الجنيهات الاسترلينية .. ثم كان تدخلنا المالى نتيجة طيشه وحمـــاقته ، اذ لم يكن لدى انجلترا وقتئذ ـ على ما أعلم ـ اية حوافز سياسية .. بل انه طلب الى الحكومة الانجليزية ان تمده بالمعونة المالية بوساطة الكولونيل ستونتن فى خريف سنة ١٨٧٥ .. وكانت انجلترا ـ بصداقتها الطويلة مع تركيا ـ موضع ثقة لدى الشرق الاسلامى ، كما ان مسألة قناة السويس كانت قد أحاطت الحكومة الفرنسية بالشبهات ، ومن ثم آثر اسماعيل انجلترا دون فرنسا حين عمد الى بيع اسهمه فى القناة .. وانى لاذكر بجلاء كيف قوبل شراء هذه الاسهم باستهجان فى انجلترا ، ووجه الى دزرائيلى كثير من اللوم لأنه قرر هذا الشراء دون رجوع الى زملائه ، مدبرا الامـــر مع فرع مؤسســة «روتشيلد» فى لندن .. وكانت الصفقة نذير شؤم على مصر ، ولاسيما فيما يتعلق بالدور الذى لعبته مؤسسة «روتشيلد» هذه، ولسوف نرى أن العلاقات المالية لهذه المؤسسة اليهودية القوية كانت عاملا حاسما فيما أقدمت عليه انجلترا بعد سبع سنوات من تدخل عسكرى !

كذلك كانت بعثة «مستر كيف» ـ التى أعقبت صفقة أسهم القنـــاة ـ من صنع اسماعيل ايضا .. فهو الذى طلب الى الحكومة الانجليزية ايفادها



اسماعيل

ليجعل من المعونة الانجليزية السياسية تكأة فى الحصول على مزيد من الديون .. وكان بحاجة الى تقارير تنشر على الناس شاهدة بمقدرته على سداد ديونه .. وكان من حظه أن «مستر كيف» كان عديم الدراية بالشرق ، فسهل خداعه ، أو كان اسماعيل بمعونة اسماعيل صديق يعرض عليه حسابات وهمية فيتقبلها على أنها صحيحة ! .. وكذلك كان الامر ازاء «سير ريفرز ويلسون» ، الذى خلف «كيف» ، والذى كنت على ود معه ، وظللت أكاتبه سنوات ، فكان يوافينى بأنباء أعماله فى مصر ..

وكانت آخر ذكرياتى فى ذلك الشتاء فى القاهرة ، تتمثل فى مأدبة أقامها الخديو لمستر كيف فى استراحة الخديو عند الاهرامات ، وأنفق عليها فى بذخ ليعشى عيون الاوربيين ويوهمهم بثرائه .. مع ان الموائد مدت لنا تحت أنظار جموع الفلاحين الذين كانوا يتضورون جوعا !

الفصل الثانى ـ بعثة سير ريفرز ويلسن

◆ **وعقب** مغادرتنا القاهرة فى ربيع سنة ١٨٧٦ ، قمنا بزيارة لبعض الاراضى العربية المجاورة ، فاجتزنا شبه جزيرة سيناء الى العقبة ، فالقدس، ثم عدنا بحرا الى انجلترا

واستقبلنا شتاء ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ فى الشرق من جديد .. فزرنا العراق وسوريا وبيدهما وما يعمرها من عشائر بدوية .. وازددت فى تلك الاثناء عطفا على العرب .. وكان عطفا خالصا لا يشوبه غرض سياسى ، فقد شهدت مساوىء الحكم الذى كان يمارسه الاتراك اذ أخضعوا العشائر التى كانت قد تمردت عليهم فى بعض مناطق ما بين البحرين .. وكانت الحرب بين تركيا وروسيا فى مراحلها الاخيرة ، فرأيت كيف كان أبناء القرى السورية والعراقية يساقون مصفدين فى الاغلال لتجنيدهم !

رأيت حكم الاتراك للعرب .. كان حكم قوة وخداع وفساد وافساد الى أقصى الدرجات .. رأيت أراضى بغداد تستحيل تحت نير العثمانيين الى قفر يباب .. ودمشق تتحول الى مدينة خربة .. فى كل مكان كانت الارض تفقد

صلاحيتها للزراعة ، وكانت الحكومة تصيب السكان بعدوى الفساد وكأنها وباء خلقى ..

وما أن عدت الى انجلترا ، حتى صحبنى ابن عمتى « فيليب كرى » ــ لورد كرى الآن ــ فى ١٤ مايو سنة ١٨٧٨ ، لأقابل اللورد سالسبورى ، اذ كان « كرى » يومئذ سكرتيرا خاصا له ، ومن كبار رجال وزارة الخارجية .. وكان لورد سالسبورى قد تقلد هذه الوزارة منذ عهد قريب ، ولعله كان اذ ذاك على وشك ان يوقع مع السلطان المعاهدة السرية التى عرفت باسم «وفاق قبرص» ، فود ان يعلم منى بعض ما ألمت به فى رحلتى فى البلاد العربية .. وقد حدثته بصراحة تامة ، واقترحت عليه العمل على استقلال سوريا ، ومساعدة مصر فى التخلص من سوء حكم حكامها الاتراك .. وقد خرجت من هذه المقابلة وأنا معجب بسعة ادراك سالسبورى للمسائل الشرقية ، وان خالفت آراؤه آرائى .

٧ مليون جنيه تنتزع من الفلاحين ظلما !

وكان شتاء ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ من أفظع الفصول .. كما كان من أتعسها بالنسبة لمصر .. فقد تعاقبت بعد بعثة « كيف » بعثات أخرى انتهت الى ما عرف بتسوية « جوشن ــ جوبير » لديون الخديو اسماعيل .. وهى التسوية التى أثقلت ميزانية مصر بما يعادل سبعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، انتزعت من الفلاحين بالسياط وامتصاص الدماء .. فماتت آلاف عديدة من أهل القرى جوعا .. ولم يعد من سبيل الا اعلان افلاس الخديو ، أو تخفيض فوائد ديونه .. وقد عمل حملة سندات القروض على اهمال الحل الاول ، وسعوا الى تحقيق تدخل الدول الكبرى دبلوماسيا .. وكانت هذه فرصة سانحة للحكومة الانجليزية اذ كانت تسعى ــ تحت قيادة دزرائيلى ــ للقيام بدور رئيسى فى شئون الدولة العثمانية .. لتحقيق هذا الاتجاه الاستعمارى ، أقدم دزرائيلى على تعيين لورد سالسورى فى وزارة الخارجية .. ومن ثم اجتاز الاسطول البريطانى الدردنيل الى بحر مرمرة ، وتسنى له صد الجيش الروسى عن استامبول .. وتحت الضغط الانجليزى، وقع السلطان معاهدة « سان ستفانو » مع القيصر ..

أما بالنسبة لمصر ، فقد أوفدت لجنة للتحقيق ، كان المفروض أن تكون دولية ، ولكن وزارة الخارجية جعلتها انجليزية خالصة ، وعين سير ريفرز ويلسن مندوبا عن انجلترا .. وجدير بنا أن نتذكر أن اتفاقا سريا عقد بعد شهرين من تولى سالسبورى وزارة الخارجية ، وافق بمقتضاه السلطان على تأجير قبرص لانجلترا فى مقابل حصوله على ضمان بعدم اقتطاع شىء من ولاياته الاسيوية ، على شريطة أن يقوم بمشروعات الاصلاح فى آسيا الصغرى تحت رقابة عدد من القناصل والعسكريين الانجليز !

وكان هذا يتمشى مع حلم راود دزرائيلى منذ شبابه ، لتكوين امبراطورية أسيوية تحت التاج الانجليزى ، تضم بين أرجائها جزيرة قبرص .. وقد شاء دزرائيلى بذلك أن يجتذب حب الانجليز الذين كانوا يزدرونه لأنه يهودى ..

« شيلنى وأشيلك » .. بين انجلترا وفرنسا !

◆ **ولقد عقد** بعد شـــهر من « وفاق قبرص » مؤتمر سنة ١٨٧٨ الاوربى الكبير فى برلين ، وكان أهم اجتماع للدول الكبرى بعد مؤتمر باريس ، اذ كان يهدف الى تقرير مصير الولايات الاوربية التى كانت تابعة لتركيا ، والى تعديل معاهدة سان ستيفانو ..

وكان دزرائيلى يقامر بمستقبله فى سبيل نجاح هذا المؤتمر ، حتى أنه حضر بنفسه ! .. وقد اجتمع المؤتمر فى ١٣ يونيو ، واقترح بعضهم فى سياق الجلسة أن يؤكد كل مندوب أن دولته جاءت الى المؤتمر غير مقيــدة بأى اتفاق سرى يمس المسائل التى كانت موضوع خــلاف .. وفوجىء دزرائيلى وسالسبورى بهذا الاقتراح ، اذ لم يكونا على اســتعداد لكشف « وفاق قبرص » ، فأكدا أن دولتهما غير مقيدة باتفاق سرى ما .. لذلك يمكن تصور الفضيحة التى حدثت حين فوجىء أعضاء مؤتمر برلين فى ٩ يوليو بنص الوفاق منشورا فى احدى الصحف اللندنية ! ولم يعد فى الامكان اخفاء الحقيقة فى المؤتمر ، فحدثت أزمة شديدة أصر مندوبا فرنسا وروسيا خلالها على الانسحاب ، لولا ان تدخل « بسمارك » ــ رئيس الوزارة الالمانية ــ بعد أن صارحه دزرائيلى بكل شىء .. وقام بسمارك بدور الوسيط، فاتفق مندوبا فرنسا وانجلترا على :

١ ــ أن يسمح لفرنسا بأن تحتل تونس ــ دون معارضة من انجلترا ، فى مقابل حصول هذه على قبرص

٢ ــ أن تكون فرنسا على قدم المساواة مع انجلترا فى التسويات المالية التى كانت تدبر فى مصر

٣ ــ أن تعترف انجلترا بصفة خاصة بما زعمته فرنسا من زمن بصدد حماية المسيحيين اللاتينيين فى سوريا

ومع أن دزرائيلى ضحى بولاية من ولايات حليفـــه السلطان كثمن للفضيحة ، الا أنه عاد الى انجلترا يتمشدق بأنه قد كسب السلام والشرف !

وكان من نتيجة هذا ، أن أرسلت برقية من برلين الى سير ريفرز ويلسن بالاسكندرية ، تحمل اليه الامر ــ الذى أحزنه ــ بأن يعمل على المساواة بين فرنسا وانجلترا فى التدبيرات المالية التى تتصل بتحقيقاته .. وكان ذلك هو السبب الحاسم فى قيام الرقابة الثنائية الانجليزية الفرنسية فى العام التالى !

جناية اغتيال يرتكبها اسماعيل

كانت هذه هى الاوضاع حين آن خريف سنة ١٨٧٨ ، ووجدتنى مرة أخرى أسعى الى الشرق بحرا .. وفى مرسيليا ، صعد الى الباخرة صديقى سير ريفرز ويلسون ، وكان قد عين وزيرا لمالية مصر .. وفى الايام الستة التى قضيناها فى الرحلة معا ، أفضى الى بأحداث العامين الاخيرين فى القاهرة .. **حدثنى عن سوء أحوال البلد ، وروى لى أبشع جرائم الخديو اسماعيل — جريمة اغتيال اسماعيل المفتش ، الذى أخلص فى خدمة سعيد واسماعيل وعمل على أن يستخلص لهما آخر قرش لدى الفلاح .. والذى كان يقدم للبعثات المالية البيانات الخادعة عن ديون الخديو اسماعيل تسترا عليه .. ولعل اسماعيل خشى أن يتداعى المفتش تحت ضغط لجنة تحقيق ويلسن ، فرأى أن يبقى السر مكتوما الى الأبد !**

وكان المدبر الحقيقى للخطة — بأمر من الخديو — هو مصطفى بك فهمى ، الذى لم يلبث أن ارتاع للدور الذى لعبه ، فوقع فى مرض خطير ، ثم انضم الى عرابى فى أوائل ثورته فى سنة ١٨٨١—١٨٨٢ ، وأصبح فيما بعد رئيسا لوزراء مصر ..

ولقد خلف ويلسن اسماعيل المفتش فى تولى وزارة المالية .. ولكنه لم يبق فيها طويلا ، وانتهت جهوده الى الفشل ، لعدة أسباب : فقد بدأ عهده بدين جديد باهظ .. كما أن أخطاء الادارة كانت تصيب الاهالى بغبن شديد ، مهد الطريق فيما بعد للتمرد العام .. وكان عذر ويلسن أنه اعتمد على نوبار فى كل ما يتعلق بشئون السياسة الداخلية .. وقد أسرف ويلسن فى تقدير نوبار ، مع أن هذا كان غاية فى الضعف — اذ لم يكن من العسير على شخص ماكر كاسماعيل أن يستغل كونه مسيحيا ليثير عليه المسلمين ، وبذلك يرغم الانجليز على التفريط فيه ويسترد هو سلطانه المالى ! .. **ومن ثم دبر اضطرابات فبراير سنة ١٨٧٩ التى خرج فيها طلبة المدرسة الحربية الى وزارة المالية — وقد دبر سيرهم بحيث وصلوا بينما كان نوبار باشا يهم بمغادرة مكتبه — فسبوه ، وأهانوه ، وجذبوا شاربه ، وقرصوا أذنيه .. حتى أنقذته فصيلة من الحرس الخديو !**

وهكذا وجد الخديو التكأة التى استند اليها فى اقناع القنصلين الانجليزى والفرنسى بضرورة اقالة نوبار ، وأحل محله فى رئاسة الوزارة راغب باشا ، الذى كان من صنائعه ..

وباقصاء نوبار ، غدا من المستحيل على ويلسن المضى فى وزارة المالية ، كما توقع الخديو .. وكان قنصلنا العام فى مصر « فيفيان » على خصام مع ويلسن ، أثر شجار تماسكا فيه ، لذلك تقاعس فيفيان حين لجأ اليه ويلسن فى متاعبه السياسية .. وما لبث أن دبر اضطرابا — كذلك الذى حدث فى

فبراير ـ فاعتدى الغوغاء على ويلسن وزوجته فى الاسكندرية فى شهر مارس .. ولما اشتكى ويلسن لوزارة الخارجية ، رفضت أن تؤازره ، ونصح له بالاستقالة .. ففعل وعاد الى أوربا ، فكتب لى فى ٣٠ ابريل سنة ١٧٨٩ يقول :

« لعلك سمعت أن ذلك الخديو الوغد قد أساء الى .. ان سموه يعتقد ان أرقى أساليب السياسة هى اشاعة الفرقة بين من يوجه اليه تدابيره.. ولعله كان يتوقع أن يفرق بينى وبين « بلينيير » ، المندوب الفرنسى .. أو بين أحدنا ـ أو كلينا ـ ونوبار..ولكنه لا يمكن أن يكون قد طمع خلال أحلامه الجامحة ، فى أن يصير القنصل العام الانجليزى أداته التى يطرح بها اليوم وزيرا فرضته عليه حكومة انجليزية .. اننى مسرور لمغادرة البلاد، فكل شىء يسير الى الشيطان .. والبلاد موبوءة بالفساد ، حتى ليبدو أن الحكومتين الفرنسية والانجليزية تخافان أن تقدما على عمل .. ومن ثم ينطلق الخديو الآن جامحا ، يطعن البلاد طعنات مميتة .. ان الانهيار غير بعيد .. والى ان يحين ، من الفظيع أن يفكر المرء فيما يقع من سوء وتعاسة »

الفصل الثالث ـ رحلات فى بلاد العرب والهند

◆ **كانت** هذه الاحداث تجرى فى مصر ، بينما كنت وزوجتى ماضيين فى الترحال فى أواسط شبه جزيرة العرب ، بعيدين عن تطورات العالم الخارجى ..

وفى طريقنا الى دمشق ـ التى بدأنا منها رحلتنا ـ مررنا بجزيرة قبرص ، لنرى هذه الجزيرة التى أشتريت بفضيحة مدوية .. ووجدناها تتلقى الدرس الاول فى الادارة الانجليزية على يدى « سير جارنيت ولسلى » الذى حاول ـ حين زرناه ـ أن يبدى زهوا بامتلاك هذه « الدرة » الجديدة فى «تاج الامبراطورية » .. وما كان ثمة داع لهذا التظاهر منه ، فان امتلاك قبرص بدأ يشوه سمعة انجلترا ، وقد سمعنا المسلمين فى سوريا بعد ذلك يصفونها بأنها كانت بمثابة « بقشيش » نالته انجلترا فى مقابل خدمات أدتها للسلطان

والتقينا فى دمشق ببعض شخصيات مهمة، منها بطل الحرب الجزائرية ضد فرنسا ، السيد عبد القادر .. ومنهـا « السير ادوارد ماليث » ، الذى كان اذ ذاك سكرتيرا للسفارة الانجليزية فى القسطنطينية ، وكنت على معرفة وثيقة به .. كان مثالا للموظف الدقيق ، الذى لا يمكن أن يتجاوز حدود عمله ، والذى أوتى من المواهب ما يمكنه من أن يتصرف خير تصرف

فى المواقف.. وكان آخر انسان فى العالم يفكر فى الدس والتآمر أو يشترك فيهما .. وأقول ذلك لانه اتهم فى مصر بأنه كان طموحا ، وانه كان يدبر المؤامرات لاثارة الفتن والقلاقل !

وذهبنا بعد ذلك الى الهند عن طريق شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسى .. والفقرات التالية مقتبسة عن خطابات كتبتها فى تلك الفترة لتبين الاثر الذى خلفته فى نفسى هذه الزيارة :

« اننى مستاء للهند التى تبدو تحت سلطة حكومة سيئة .. مثلها مثل بقية آسيا ، وان كان سوء حكمها خلوا من سوء النوايا .. فهنا ترى من فداحة الضرائب ، وسيطرة الأجانب ، ومن الاسراف والتبديد ، ما لا يراه الانسان الا فى تركيا فقط ! .. ولست أرى فارقا بين ابتزاز المال من الهندوس الذين يتضورون جوعا فى سبيل انشاء كنيسة فى كلكتا ، وبين تحصيل الضرائب الفادحة من البلغاريين لانشاء قصر على ضفاف البسفور .. ان الاهالى هنا عبيد يسودهم الخوف والشقاء والنحول .. انهم يرسفون فى أغلال كتلك التى تكبل المصريين ، مما جعلنى أشعر بالخيبة ، وأصاب ايمانى بالنظم البريطانية وبنعم الحكم البريطانى بصدمة قاضية !

« لقد درست ألغاز المالية الهندية على أيدى خير الاساتذة من رؤساء الادارات الحكومية والمندوبين وغيرهم ، فانتهيت الى أننا اذا ظللنا نعمل على « تقدم » البلاد بالدرجة الراهنة ، فان السكان لن يلبثوا ـ طال الزمن أو قصر ـ أن ينقلبوا الى متوحشين ، اذ لن يجدوا بدا من أن يأكل بعضهم بعضا ! .. ولست أدرى لم نأخذ معشر الانجليز النقود من هؤلاء الهندوس الجوعى لننشىء لهم خطوطا حديدية لا يبغونها ، وطرقا ، وسجونا ، ومستشفيات للامراض العقلية ، ونصبا تذكاريا لسير بارتل فرير ؟! »

وقد كان لزيارتى القصيرة للهند ، واتصالى برؤوس حكومتها ، أثر كبير فى تشكيل آرائى فى كبرى مسائل السياسة الاستعمارية .. كنت لا أزال أومن بالنوايا الطيبة لسيطرتنا على الشرق ، وان لم تأت بنتائج طيبة ، واعتقدت أن شعبنا ولا بد سيصر على تحسين أساليب الحكم اذا عرف حقيقة ما يجرى !

قصة خلع اسماعيل

◆ **وفى** عدن ـ ونحن نتأهب لاجتياز البحر الاحمر على ما أظن ـ تناهت الينا أنباء الاحداث الجليلة التى كانت تجرى فى مصر . وما أن وصلنا الى الاسكندرية حتى علمت بتفصيلات خلع الخديو اسماعيل .. ولا تخرج القصة التي رواها لي صديقي « فرانك لاسيل » ـ الذى كان قد تولى

منصب القنصل العام بالوكالة البريطانية ـ عما نشر رسميا .. ولكن الذى لم يذع هو ذلك الدور الذى لعبه آل « روتشيلد » والذى علمته فيما بعد من « ويلسون » ـ وكان فخورا بأنه انتقم لنفسه ! ـ ففى عودته من مصر مخذولا ، وقد تخلت حكومته عن مؤازرته ، يمم شطر آل « روتشيلد » فى باريس ، وبين لهم الخطر الذى يتهدد أموالهم من وراء الانقلاب الذى لا بد أن يترتب على قلاقل القاهرة والاسكندرية .. وأقنعهم بأن الخديو كان يعتزم أن ينفض يديه من ديونه ويلغى التزامه بها ، متخذا لنفسه ستارا باعلان الحكومة الدستورية فى مصر .. ومن ثم فانهم ولا بد خاسرون كل مالهم ، ما لم يبادروا الى الحيلولة بين الخديو وتنفيذ ذلك !

ونجح ويلسن فى اثارة ذعر آل روتشيلد وحملهم على استخدام ما كان لهم من نفوذ سياسى هائل لتحقيق التدخل الفعلى .. فعمدوا أولا الى جذب الخيوط التى كانوا يحركون بها حكومتى انجلترا وفرنسا ، ولكن هذا لم يجدهم فتيلا ، اذ لم تكن الحكومة الانجليزية على استعداد للتدخل، لا سيما وان الاضطرابات كانت قد شبت فى جنوب افريقيا .. ومن ثم اتجه الى روتشيلد الى برلين ، والى بسمارك بالذات، الذى كان يبسط حمايته على المؤسسة اليهودية الضخمة .. وبادر بسمارك الى الايحاء الى حكومتى انجلترا وفرنسا بأن الحكومة الالمانية ستحتضن قضية آل روتشيلد اذا كانتا عاجزتين عن التدخل .. وكان هذا الضغط كافيا لتوجيه ضغط أوربى الى الباب العالى ، أدى الى البرقية التى تلقاها اسماعيل بخلعه .. وكان من نصيب « لاسيل » ان يحمل اليه الانباء السيئة ..

وجريا على عادته ، بادر اسماعيل الى تجريد خزانة الدولة من كل ما كان فيها من نقود ، والى جمع كل ما استطاع ان يصل اليه من نفائس ، فأرسلها الى يخته « المحروسة » ، كما عمد الى ابتزاز أموال رعاياه للمرة الاخيرة ، فجمع مبلغا وصل الى ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ..

ولم يحاول أحد أن يعطله ، أو أن يتحرى صحة أوامر الخلع ، أو أن يسأله البقاء ولو لساعة أخرى !

الفصل الرابع ـ السياسة الانجليزية فى سنة ١٨٨٠

◆ **قضيت** اثنى عشر شهرا كاملة فى انجلترا ، كانت من أكثر فترات حياتى ازدحاما بالعمل والنشاط ، اذ أننى وقد اقنعت نفسى بأن على رسالة يجب اداؤها من أجل العالم الشرقى ، شرعت أتحدث وأكتب وأخطب ..

ولم أشغل نفسى بشىء من الشئون السياسية الداخلية ، رغم أن الاحوال كانت متأزمة ، وكان « جلادستون » قد نشط استعدادا للانتخابات

العامة فى سنة ١٨٨٠ .. وقد كنت بحكم نشأتى أميل الى المحافظين القدامى ، ولكننى فى المسائل الشرقية كنت آمل فى « جلادستون » خيرا ..

كذلك عنيت فى تلك الفترة بتربية الخيول ومحاولة انجاب سلالة عربية أصيلة فى انجلترا .. ولما كانت هذه هواية « جلادستون » ، فقد أرسل لى عن طريق صديق صحفى يسأل بعض المعلومات الخاصة بأصول الخيل .. ثم صادف أن اختار - حين ولى الحكم فى شهر ابريل - صديقى « ادوارد هاميلتون » سكرتيرا خاصا له ، وبذلك توثقت بينى وبينه الصلات ..

هل كان « غوردون » مجنونا ، أم سيرا ، أم مقامرا ؟

وهذه مقتطفات من يومياتى فى تلك الفترة :

« ١٦ مارس - تناولت طعام الافطار مع ريفرز ويلسن، وكان حديثنا عن شخصية الكولونيل غوردون .. فان العالم يجمع على أنه شخص رائع ، وقد حكم السودان وحده أربع سنوات - ثم عاد الى الوطن فلم يحفل به أحد ، ولم يقابله أحد من الوزراء » .. وقد عرف بالجرأة والصراحة وعدم التقيد بالروتين الحكومى ، مما دمغه فى نظر الجهات الرسمية بأنه مجنون .. وقال عنه البعض أنه سكير .. وقال آخرون أنه مقامر حتى انه اذا أحز به أمر ، طوح باحدى العملات النقدية فى الهواء ورأى على أى وجه تستقر على الارض ليختار طريقه !

وفى هذه الفترة من أوائل ربيع سنة ١٨٨٠ ، كان غوردون ساخطا أشد السخط على الحكومة الانجليزية للدور الذى لعبته فى خلع الخديو اسماعيل ، اذ كان - لسبب ما - يحبه ويكره خلفه « توفيق » .. فما أن بلغه فى الخرطوم ما حدث ، حتى استقال من منصب حاكم السودان .. ثم ازداد غضبا حين علم أن الذى خلفه فى منصبه تركى وليس أوربى !

ولعلنا نذكر أن السياسة الشرقية كانت موضوعا رئيسيا فى معركة الانتخابات العامة فى سنة ١٨٨٠ ، وقد هاجم « جلادستون » مشروع التوسع الاستعمارى الذى وضعه « دزرائيلى » مهاجمة عنيفة ، واستنكر تدخله فى القسطنطينية وبرلين من أجل تركيا ، وضم قبرص ، وشراء أسهم قناة السويس ، وسياسته العدوانية فى مصر ، والحملتين اللتين أوفدهما لقتال الافغان والبوير ..

وكان « جلادستون » قد سجل على نفسه آراءه فيما يتعلق بمصر ، فى مقال نشره فى عدد أغسطس ١٨٧٧ ، من «مجلة القرن العشرين» تحت عنوان «الاعتداء على مصر والحرية فى الشرق» .. **وقد عبر بجلاء عن معارضته لكل سياسة تجعل انجلترا تضطلع بأية مسئولية كانت فى حوض النيل..**

وبنى رأيه على أن ذلك يؤدى الى مضاعفة أعباء انجلترا فى الشرق ، والى أن التوسع الاستعمارى لا يتم الا بالخروج على المبادىء الخلقية والادبية ، وان التظاهر بأن احتلال مصر ضرورى لحماية طريق الهند خدعة كاذبة ، وان أى تدخل فى مصر كفيل بأن يشجع على مزيد من المغامرات فى افريقيا ..

كذلك دعا « جلادستون » الى وجوب استمرار مصر كدولة اسلامية ذات حكومة مستقلة.. كما تنبأ بأن محاولة انجلترا الاستيلاء على مصر ستزج بها فى خلاف مع فرنسا ، وستفسد العلاقات السياسية القائمة على المودة بين الدولتين

« **٦ أبريل :** باريس (وقد انتهت الانتخابات فى انجلترا بحصول الاحرار على أغلبية ساحقة) ـ على الرغم من عزوفى عن السياسة الا أننى أعتقد أن فوز جلادستون (زعيم الاحرار) كان من سوء الطالع .. لسوف تعانى سياستنا فى آسيا من جراء ذلك ، فان الاحرار لا يعرفون شيئا عن الشرق ، ومن ثم فسيخشون الاقدام على أى تغيير فى سياسة المحافظين. ولسوف يحاولون اصلاح تركيا ، فاذا تبينوا استحالة ذلك ، فقدوا حلمهم وأعلنوها حربا .. »

« **٩ أبريل :** باريس ـ قابلت اليوم ريفرز ويلسن الذى سيرحل غدا الى مصر » .. وكانت هذه آخر مهمة يوفد فيها الى مصر ، وقد أعد خلالها قانون التصفية .. لتسوية الديون ..

« **٢٦ أبريل :** عدت الى انجلترا حيث وجدت جلادستون موضوع حديث كل مجتمع.. فقد تولى رئاسة الوزارة» ..وقد كان من أهم أنباء الاسبوع تعيين اللورد جرانفيل وزيرا للخارجية .. وهو رجل محبوب، ولكنه أصم، وبطىء التصرف ، ومن أتباع المدرسة القديمة فى الديبلوماسية .. ومثل هذا الوزير لا يرتقب منه جديد .. **وكان العمل الاوحد الذى أبرمه ، أنه شاء أن يبرهن على أن جلادستون كان على صواب فى مهاجمة سياسة دزرائيلى فى تركيا ، فسمح بنشر تقرير سرى كان سفير انجلترا فى تركيا قد أرسله مضمنا اياه مساوىء ومثالب السلطان عبد الحميد .. وكان هذا النشر**



دزرائيلى

فضيحة ديبلوماسية : أولا لمخالفته للتقاليد ، وثانيا لأن السلطان كان يقرب السفير ويتخذه صديقا ويثق فيه .. ومن ثم فانه اعتبر التقرير غدرا قضى على كل نية حسنة لديه نحو انجلترا ! »

ولقد شجعنى وجود صديقى سير ادوارد هاميلتون سكرتيرا خاصا لرئيس الوزراء ، على أن أسعى لاثارة عطف جلادستون على حرية الشرق ..

وكان ممن تناولوا الغداء على مائدتى فى ١٢ يونيو « لورنس أوليفانت » .. وقد جاء فى مذكراتى عنه : « لقد عاد أخيرا من القسطنطينية ، حيث كان يحاول الحصول من السلطان على امتياز يسمح لابنـاء اسرائيل بأن يستعمروا الاراضى الواقعة خلف نهر الاردن »

« **٢٦ يونيو :** نشرت « السبكتاتور » رابعة مقالاتى اليها .. كما نشرت مجلة « فورتنايتلى » مقالا لى بعنوان « خلفاء السلطان فى آسيا » ..وقد هنأنى لورد نورثبروك .. » .. وكانت المقالة الاخيرة وسيلة للفت نظر جلادستون الى آرائى .. وقد أفلحت ، وان كان الشىء الذى أثار اهتمامه فى المقال هو أقل الامور قابلية من الناحية العملية فى دنيا السياسة .. فقد قلت أن من العدل تحقيق الاستقلال لولايات تركيا الآسيوية ، كما حدث لولايات تركيا الأوربية .. على أن الذى خرجت به هو أن آرائى ــ كما كان هاميلتون يبلغها الى جلادستون ــ كانت تتفق فى كثير مع آرائه ..

ثم استبنت أمرا سرعان ما جعل اليقين يتملكنى بأننى فى جميع تفكيرى فى تحرير واصلاح الشرق بدأت بداية خاطئة .. واننى اذا شئت أن أنفع العرب أو غيرهم من الشعوب الاسلامية الخاضعة للاتراك ، فخليق بى أن أكون على دراية بآرائهم الدينية .. وكان هذا سببا فى الاتجاه الذى اتخذته فى القاهرة بعد ذلك بعام

« **١٣ يوليو :** ــ ذهبنا الى حفلة أقامتها مسز جلادستون وقد وصلنا مبكرين قبل حضور الضيوف ، فأتيح لى أن أقضى عشرين دقيقة فى الحديث الى الرجل العظيم ، وشرحت له آرائى فى انهاض الشرق ، فأصغى فى اهتمام الرجل الذى يجهل جهلا تاما الفرق بين الالف والباء فى هذه المسألة .. وكان لملاحظته وقع يناقض ذلك الذى شعرت به ازاء الاسئلة التى وجهها الى سالسبورى منذ ثلاث سنوات .. »

« **١٧ يوليو :** ــ قابلت السير «تشارلس ولكه» وكيل وزارة الخارجية، فشرحت له الغرض من ذهابى فى الخريف الى نجد مع عبد الله بن سعود..

وكانت أسئلته صريحة واضحة ، وبادر الى اعداد صيغة برقية الى سفيرنا فى القسطنطينية ، كما أحالنى على الوكيل الدائم لوزارة الخارجية لمزيد من البيانات .. فلقد تملكتنى الرغبة فى انهاض همم العرب للسعى لبعث الخلافة العربية (بدلا من أن تكون الخلافه الاسلاميه ممثلة فى شخص سلطان تركيا) .. »

ولقد قدر للسير تشارلس ولكه أن يقوم بدور كبير فى الاحداث التى جرت لمصر فى سنة ١٨٨٢ ..

وكان عبد الله بن سعود الذى ذكرته ، هو عبد الله بن ثنيان بن سعود، سليل أمراء نجد السابقين ، وكان قد سعى الى القسطنطينية ولجأ الى السفارة البريطانية يلتمس عونها فى استعادة مكانه سياسية فى بلاده ، فوجدتها فرصة سانحة لمشروعى ..

على أن لورد تنتردن ـ الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ـ عارض بحجة أن علم وزارة الخارجية برحلتى يجعلها بمثابة « بعثة سريه » . وهو ما يتعارض مع تقاليد الوزارة .. فاضطررت الى التخلى عنها .. لا سيما وقد وقعت فى تلك الاثناء الهزيمة المخزية التى لحقت بالجيش البريطانى فى الافغان ، والتى كانت ضربة قاضية على سياسة « ليتون » .. الذى قدر له أن يكون أول « نائب للملكة » خائب فى الهند .. والواقع أن سياسة « ليتون » كانت ضرورية ، وقد سار تنفيذها فى الطريق الصحيح ، فبذل أقصى ما كان فى وسعه ، ولكنه لم يكن يملك حولا ولا سلطه ازاء تطور الاحداث وتيارها . فان تداعى انجلترا وهزيمتها يستندان الى أسباب عامة أقوى من أن يسأل عنها فرد أو يحمل وزرها جماعة من البشر .. انما نشغل لأننا لم نعد سادة مهذبين نتمسك بالاخلاق والشهامة .. ان حكومتنا شلة من الصعاليك الطغام ، لا هيئة أوتيت ادراكا سليما ، ومؤ زرة ناشئة عن ادراك الامة ووعيها .. أننا لم نفز بمكانتنا فى الدنيا الا بجهود هائلة ، وادراك عظيم ، وشرف وأمانة بالغين ، فلما ذهبت هذه جميعا ، هوينا الى المستوى الطبيعى .. لقد ظللنا مائة عام نفعل الخير فى الدنيا .. وسنظل مائة عام نفعل الشر والسوء ، ثم لا يعود العالم يسمع لنا ذكرا ! »

« ٧ سبتمبر : تحدثت و « ليتون » اليوم عن المسألة الشرقية ، فتبينت أن آراءه فيها لا تختلف كثيرا عن آرائى .. ونحن نتفق فى أن «امبراطورية» انجلترا تسير حثيثا الى حتفها .. ولا يهمنى كثيرا أن يقترب الاجل .. ولكن « ليتون » أكثر منى وطنية »

ومن المهم لاستكمال صورة الموقف السياسى ، أن أورد بعض ما كتبه لى « ليتون » فى ١٨ نوفمبر من ذلك العام :

« قرأت فى احدى الصحف منذ أيام بيانا عن أن شريف مكة الجديد « عبد المطلب » ـ وهو أداة من أدوات السلطان ـ يعمل بنشاط لتنفيذ تعليمات من القسطنطينية لاثارة المسلمين ضدنا فى كافة أرجاء العالم .. وقد أصبحت الصرخة التى تتردد اليوم أن « الخليفة فى خطر » .. وهذا ما كنا نتوقع ، وأخشى ما أخشاه أن الفرصة قد فاتت لاصلاح الموقف .. ولست أرى لتصرف جلادستون من نتيجة سوى القضـــاء على نفوذنا فى القسطنطينية ، وافساح الطريق لألمانيا ، دون أن نعوض ذلك بوسائل أخرى للاشراف على العالم الاسلامى »

الفصل الخامس ـ زعماء الاصلاح فى الازهر

◆ غادرت انجلترا فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٠ الى مصر ، فلما بلغت القاهرة وجدتها قد تغيرت كثيرا .. كان طنيان اسماعيل قد زال ، وقام نظام الاشراف الثنائى « الانجليزى ـ الفرنسى » .. وزرت بعض القرى التى كان أهلها يتضورون جوعا منذ خمس سنوات ، فوجدت أنهم وان ظلوا فى فقر يرزحون تحت ضرائب عالية ، الا أن السوء كف عن الاستفحال ، فلم يعد للقنوط الذى كان يصحبه وجود !

وسعيت الى الوكالة البريطانية ، فسرنى أن وجدت صديقى «ماليت» يتولى منصب القنصل العام ، وقد روى لى أنباء الاصلاحات التى كان مرجوا تنفيذها ، اذ لم يكن العمل قد بدأ بعد فى غير الاصلاح المالى .. ومع أن كل شىء كان يسير ببطء ، الا أنه كان يسير نحو التحسن قدما .. ولم تكن ثمة غيوم فى الافق ، الا فيما يختص بالسودان الذى كان يثقل موارد مصر المالية ، فيما يتعلق بالجيش حيث بدت أعراض التذمر ..

ورشح لى « روجرز بك » ـ الذى عرفته حين كان قنصلا فى دمشق والذى أصبح من رجال نظارة المالية المصرية ـ عالما شابا من الازهر لأتلقى على يديه المعرفة التى كنت أنشدها بتعاليم الدين الاسلامى ..

وهكذا أصبح الشيخ محمد خليل يزورنى يوميا ليلقى على دروسه ، ثم يمكث معى فترة العصر نتجاذب اطراف الحديث .. وتبينت انه من أكثر المسلمين الذين عرفتهم اخلاصا وتحررا فى أفكاره وتحمسا للمدرسة الجديدة التى كانت قد بدأت تنتشر فى القاهرة فى ذلك الوقت بقيادة أستاذه الشيخ محمد عبده .

كانت مدرسة الاجتهاد فى التفسير من أوسع المذاهب نطاقا ـ وراح الشيخ محمد خليل يبين لى كيف انه يؤمن بكافة الشرائع التى تعترف بوحدانية الله .. وان المسيحية واليهودية صورتان غير مكتملتين لدين

النبيين ابراهيم ونوح .. وان المسلم الحق لا يقر التعصب ولا الاضطهاد الدينى ، لا سيما وان الرسالات السماوية الثلاث تنبع من أصل واحد ومن ثم فخليق باتباعها أن يتعاونوا ، فى سبيل الوصول بالعالم ، الى الكمال الاجتماعى الذى يقر الاخوة والسلام بين الامم ..

جمال الدين الافغانى

وأكد لى ان هذه هى الآراء التى بدأت تسود الجيل الجديد من تلاميذ الازهر ، والتى أخذت تنتشر فى العالم الاسلامى .. وكان رافع لواء حركة التحرر الاصلاحى الدينى بين علماء القاهرة رجل ، لا هو بالعربى ولا هو بالعثمانى ، وانما هو نابغة أفغانى المولد ، تعلم فى « بخارى » ، وهداه تفكيره فى تلك البقعة النائية عن الاوساط الاسلامية المتحضرة ، الى الآراء المتحررة التى اقترنت باسمه .. ذلك هو الشيخ جمال الدين الافغانى ، الذى كان يدعو الى تدبر الحال التى بلغها الاسلام من تداع وانهيار ، والعمل على دفع العقلية الاسلامية الى السير مع العلم الحديث بدلا من التشبث بالماضى .. وكان يرى أن القرآن والسنة لو فسرا التفسير الصحيح، فان الشريعة الاسلامية كفء لأن تساير كل تقدم وتطور .. ومن ثم راح يلقن تلاميذه أن المذهب السنى قادر على أن يكيف نفسه وفقا لأسمى رغبات الروح الانسانية ولحاجات الحياة الحديثة ..

وراح يكافح فى جرأة وشجاعة واصرار .. واضطر فى القسطنطينية الى أن يهاجم السلطات الدينية العليا ، وأن يغضب شيخ الاسلام الذى ما لبث أن بحث بين محاضراته عن أقوال فسرت على أنها مروق على الحكومة والدين .. ومن ثم عاد جمال الدين الى القاهرة بعد أن ترك بذور تعاليمه فى القسطنطينية تنمو وتؤلف الجانب الدينى فى الاصلاح الدستورى الذى قام هناك بعد ذلك بسنوات !

وكانت شهرة جمال الدين قد سبقته الى القاهرة ، مع أن مصر كانت فى أظلم عصور الفكر الدينى اذ ذاك - لا سيما بعد الفساد الخلقى الذى استفحل فى عهد اسماعيل - وكان النفاق قد دب بين العلماء وقضى على كل أثر للشجاعة واستقلال الرأى لديهم .. ولكن تعاليم جمال الدين ، وعباراته النارية ، ما لبثت أن جمعت حوله الشباب المتحمس .. وكان من أبرز تلاميذه السباقين فى الازهر ، الشيخ محمد عبده ، الذى قدر له أن يقوم بدور كبير فى المسائل العامة فى مصر فيما بعد ، والذى يتولى الآن منصب مفتى مصر الأكبر ..

وكانت تعاليم جمال الدين قبسا من نور انبثق فشق الظلام الفكرى والخلقى الذى ران على مصر .. ولعل نقمة القسطنطينية عليه كانت جواز مرور جعل اسماعيل يفسح له صدر مصر .. أو لعله فكر فى أن يستغل تعاليمه فى صراعه ضد القناصل الأوربيين.. ومهما يكن من أمر، فان اسماعيل تركه ينشر آراءه فى فترة حكمه .. فلم يقبض عليه الا عندما تولى توفيق الحكم وأقيمت المراقبة الثنائية الانجليزية والفرنسية .. ولكن جمال الدين كان قد أدى مهمته ، ونشر آراءه الاصلاحية المتحررة !

ولقد عثرت بين أوراقى على مذكرة بأننى افندت الى بيت الشيخ محمد عبده لاول مرة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ .. وهو يوم من الايام البارزة فى حياتى ، اذ فيه بدأت صداقة دامت حوالى ربع القرن مع شخص من خيرة الرجال وأحكمهم وأهمهم .. وليس فى هذه الاوصاف شىء من المغالاة . فقد بينها على دراسة لشخصيته فى ظروف متباينة ، وفى أصعب المناسبات والمحن .. فعرفته كمعلم دينى ، وكزعيم لحركة للاصلاح الاجتماعى ، وكرأس مدبرة لثورة سياسية ، ثم كأسير فى أيدى أعدائه ، وكمنفى فى بلاد أجنبية ، وكمراقب تحت أعين البوليس فى القاهرة بعد ذلك .. ثم كرجل أوتى من قوة الذهن والخلق ما جعله قوة فى وطنه ، وما رده مرة أخرى الى الازهر ، ثم رفعه الى منصب القضاء ، ثم انتهى به الى مركز المفتى الاكبر ..

وكان الشيخ محمد عبده حين رأيته لأول مرة فى الخامسة والثلاثين .. وقد ساعد الشيخ محمد خليل — الذى كان يلم بقسط من الفرنسية — على سير الحديث بيننا .. وقد خرجت من هذا الحديث مقتنعا بما عنى الشيخ محمد عبده بتأكيده من أن ما تمس اليه حاجة المسلمين لا يقتصر على الاصلاح فحسب ، بل وعلى تفهم الدين من جديد على حقيقته .. وان الخلافة يجب أن تقوم على أسس روحية ، اذ أن آل عثمان — الذين استأثروا بها عدة قرون — لم يكونوا أهلا للزعامة الروحية للمسلمين .. كذلك خرجت مقتنعا بأن الحاجة ماسة الى أسس سياسية جديدة تتمشى مع الحاجات الروحية للاسلام ..

السلطان يغتال أمير مكة !

◆ **وقمت** وزوجتى خلال الشتاء بزيارة جدة .. وكان السلطان عبد الحميد قد شاء أن يظهر مدى سلطته على مكة فعمد — قبل الزيارة بشهور قلائل — الى تعيين أمير جديد لها ، عرف برجعيته المتزمتة ، وآرائه المعادية للاوربيين .. وكان الشريف الاكبر السابق « الحسين بن عون »

ذا عقلية متحررة ، وقد عرف بصداقته القنصل الانجليزى ـ مما انتهى به الى ميتة شنيعة ، كان السائد ـ عندما زرت جدة ـ أن وزرها يقع على السلطان !

وعدنا بعد ذلك الى السويس فى طريقنا الى سوريا ، وفى أثناء مرورى بمصر ، تلقيت خطابين من «هاميلتون» أدركت منهما ان الحكومة الانجليزية قد شغلت عن المسائل الشرقية بالثورة التى نشبت فى ايرلندا .. وان ضغط الاعضاء المحافظين فى الوزارة ، أدى بها الى الاتجاه الى قمع الوطنية والحرية فى أيرلندا بالقوة .. وان « جلادستون » اضطر الى المشى مع هذا الاتجاه الذى كان حجر عثرة فى سياسته ، والذى أدى ـ كما سأبين فيما بعد ـ الى استخدام الغصب والاكراه فى مصر أيضا ، تحت ستار « الاجراءات الوقائية » !

وصادف أثناء اقامتنا فى دمشق ، ان كانت دارنا مجاورة لدار امرأة انجليزية ذائعة الصيت هى « ليدى الينورة » ، أو ـ كما تدعى الآن ـ « مسز ديجبى » ، التى قامت بعدة مغامرات فى الشرق والغرب ، انتهت بها الى الزواج من بدوى من شيوخ قبيلة « عنازة » يدعى « مجول » .

غدر الحكومة العثمانية بزعماء القبائل

وحدث فى تلك الاثناء حادث كان له فيما بعد معنى .. فقد حدث ونحن نجتاز الصحراء من الاسماعيلية شرقا الى دمشق ، أن بلغنا بقعة جبلية تدعى « جبل هلال » تعرفنا عندها بقبيلتى « العبايدة » و « الطياحة » .. وكانتا من القبائل المستقلة فى ذلك الحين عن الحكم العثمانى ، ولكنهما كانتا فى صراع دائم بعضهما مع بعض، وكان القتال يشتد ويتسع حتى أصبح يثير الاضطرابات حول مشارف « غزة » .. ولكى تضع الحكومة العثمانية حدا لذلك ، دعت زعماء القبيلتين الى اجتماع للصلح لدى متصرف غزة ، ثم غدرت بهم واعتقلتهم ليكونوا رهائن لضمان السلم على الحدود !
.. وقد سعى أقاربهم لدى كى أتدخل فى سبيل اطلاق سراحهم .. فاتجهت بمساعى الى الوالى فى دمشق ، ونصحنى « مجول » ـ زوج مسز ديجبى ـ بأن ألجأ الى السيد عبد القادر الجزائرى ، الذى كان قد انصرف الى التعبد فى دمشق بعد ان فشلت ثورته فى الجزائر .. والذى كان له نفوذ قوى فى كل المسائل التى تتعلق بالعرب ..

ولكن الوالى اعتذر بأن المسألة فوق سلطته ، وبناء على نصيحته ، كتبت الى السفير الانجليزى فى القسطنطينية «جوشن» .. ولكى أستحثه، قلت: « ان حكومتنا قد تحتاج يوما الى صداقة هذه القبائل، لتأمين قناة

السويس من أى هجوم يشن على الجانب الشرقى لها اذا قدر لانجلترا أن تكون فى حرب .. » وقد تولى اللورد « دفرن » المسألة - حين خلف « جوشن » بعد أسابيع - ووفق فى تحقيق ما رجوت .. **وقد صح ما توقعته بعد ذلك - وان لم يكن فى الحدود التى رجوتها - اذ أن «جوشن» تذكر تلك العشائر عند ما تقرر ايفاد البعثة العسكرية بقيادة « ولسلى » فى صيف سنة ١٨٨٢ ، فاتصل بها مستغلا اسمى لديها ، وأوفد جاسوسا للتودد الى القبائل المقيمة فى جنوب غزة واستمالتها الى التحالف مع القوات الانجليزية ضد الجيش المصرى عندما قام بحركته الوطنية !**

الحياة
قصة



روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارئ ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :

- اموك : ستيفان زفايج
- قلب عذراء: جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج: اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام: فكتور هوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- ايام بومباى الاخيرة : لتون
- مانون لسكو : الاب بريفو
- حديقة الله: روبرت هتشنز
- عندما تحقد المراة : اوسه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمرلن: سنكلر لويس
- الشيطان على الارض: رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- الحب الاول : ترجنيف
- تاييس : اناتول فرانس
- بلاد العميان : هـ.ج. ولز
- نادى الانتحار : ستفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- مروج والعشيق : موم
- البوهيمية : هنرى مرجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه
- الخوف : ستيفان زفايج

واليوم أقدم لك لأول مرة قصة للروائية المعاصرة « كوليت »


CHÉRI
Par
COLETTE
كوليت
الزوجة ..
والعشيقة !
(شيري)

الجزء الاول

ـ ليا ٠٠ امنحينى هذه اللآلىء ٠٠ اعطينى هذه القلادة !

وانزاحت الستائر المسدلة على الفراش ، وبرزت من أطوائها ذراعان بضتان ، رائعتا الفتنة ، وانبعث صوت ناعم يقول : « **دع القلادة يا شيرى ، فقد شبعت لعبا بها** »

وتراقص شبح « شيرى » أمام الستائر القرمزية التى تراخت عليها أشعة الشمس ٠٠ ثم تبدى فى قوام ممشوق ، و«بيجامة» حريرية بيضاء ٠٠ وقال : « **انها ثقيلة ٠٠ ان الذى أهداك هذه اللآلىء لم يكن خادعا مغررا** »

ووقف أمام المرآة يتأمل صورته ٠٠ وأية صورة !٠٠ شاب صغير ، وافر الملاحة والرشاقة ، لا هو بالطويل ولا هو بالقصير ٠٠ أسود الشعر ناعمه ٠٠ وفى دلال وخلاعة فك أزرار المنامة فكشف عن صدر لا ليونة فيه ، بل كان قويا بارز العظام ٠٠ وانعكست على صفحة المرآة أشعة الشمس التى كانت تسطع على الستائر القرمزية والحجرة الوردية اللون ، فأرسلت على أسنان الشاب ، وعلى بياض بشرته المحيط بعينيه السوداوين ، واللآلىء التى تدلت على صدره ، اشعاعا ورديا ٠٠ وصاحت المرأة فى اصرار : « اخلع القلادة ! »

فهرع الى الفراش وقفز الى أحضانها ، وهو يرسل ضحكة مرحة كشفت عن أسنانه البيضاء الدقيقة ٠٠ فاستوت « ليا » فى الفراش قائلة : « **ألا تستطيع أن تضحك دون أن تتجعد أنفك ؟** »

واذ ذاك أمسك عن الضحك فجأة ، واكتست أساريره رصانة ٠٠ وجلس كل منهما يرمق الآخر فى تحد ٠٠ هى مسندة وجهها الى راحتها وقد ارتكز مرفقها على فخذها ٠٠ وهو جالس على

طرف السرير ٠٠ وراح كلاهما يفكر ٠٠ كان هو يسائل نفسه : **« ماذا ؟٠٠ ان التجعدات آخر شيء يحق لها أن تذكره ! »** ٠٠

وكانت تسائل نفسها : **« لماذا يبدو قبيحا اذا ضحك ، مع انه يعتبر أروع صورة لجمال الرجال ؟ »**

وقالت أخيرا : **« أنت تعرف انك تبدو بشعا فى ابتهاجك ، فلست تضحك الا لشر أو سخرية ! »** ٠٠ وعقـــد الغضب حاجبيه ، وأذكى جذوتى عينيه ، فأخذتا تومضـــان فى مجون وقحة ، وقد أحاطت بهمـــا أهداب مرهفة كسهام مســـددة ، وانفرجت شفتاه عن قوس بديع ٠٠ وابتسمت « ليا » اذ رأته كما تحب أن تراه : متمردا ، ولكنه سهل الارضاء ٠٠ طليقا من كل قيد ، ومع ذلك فهو عاجز عن التحرر ٠٠ ووضعت يدها على رأسه ، فألقى بنفسه على صدرها ، وراح جبينه وأنفه يبحثان عن مقرهما المألوف ٠٠ وأغمض عينيه موشكا على النعـاس ، فدفعته « ليا » عنها قائلة : **« شيرى ٠٠ لسوف تتناول الغداء عند أمك ، وقد أشرفت الساعة على الثانية عشرة ٠٠ أما أنا ، فقد أعفيت من هذا ٠٠ وسأذهب لتناول القهوة معها فى منتصف الثالثة ٠٠ أو الشاى فى السادسة »**

واستوى واقفا وقد تبدى عابسا ، يشوب عبوســـه مكر ودهاء ، وقال : **« أعرف السبب ٠٠ سنقابل لديها بعض علية القوم ٠٠ سنرى مارى لور الفاتنة ، وابنتها الشبيهة بالبرص! »**

فاتسعت حدقتاها الزرقاوان دهشة وهتفت : **« لعمرى ٠٠ انها لفاتنة ، وان كانت أقل من أمها سحرا »**

وقفز فى الهواء ، ثم جرى وغاب بين الستائر المفضية الى الحمام ٠٠

*

◆ **كانت** ليونى فالون – التى اشتهرت بليا دولونفال – فى التاسعة والاربعين ، تنعم بحياة ناعمة كغانية ثرية جنبها القدر ما تلقاه مثيلاتها فى أخريات أعمارهن ٠٠ وكانت قد اجتازت

الشباب ثم مرحلة النضوج ، وفرسان الهوى يتبـــارون لغزو قلبها ، دون أن تلحق باسمها أتفه فضيحة !٠٠ وكانت الشابات اللاتى يصغرنها يحسدن قوامها السمهرى، ويغبطنها لاستئثارها بشيرى ٠٠ والواقع أنها كانت مزهوة بهذه العلاقة التى كانت تصفها بأنها « أمومة » ، لعجزها عن الاعتراف بحقيقة ما كان بينهمـــا !

وراحت تفكر فيما علمته من سعى والدة فتاها كى تزوجه من ابنة مارى لوز، فحدثت نفسها: « **ولكن ٠٠ كيف يسمح لشيرى بالزواج ؟٠٠ هذا أمر غير محتمل ٠٠ عمل غير ٠٠ انسانى !٠٠ ان اسلام فتاة صغيرة الى شيرى ، أشبه بالقاء ظبية الى كلاب الصيد الضارية ٠٠ فالناس لا يعرفون حقيقة شيرى !** »

واعتصرت العقد اللؤلؤى بين أصابعها ٠٠ كانت قد باتت لا تخلعه الا فى الليل ، خشية أن يلاحظ شيرى أن عنقها قد ازداد تضخما ، فبدأ يفقد لونه الناصع ، وأخذ جلده يكشف عن أعصاب متراخية تحته !

وأحاطت عنقها بالقلادة ، وأخذت تتأمل شكلها فى مرآة ٠٠ ثم هزت كتفيها ٠٠ انها لم تعد تحب لنفسها البشرة الناصعة والملامح التى تطفر صحة ، والوجه المتورد ٠٠ بل ان خير ما أصبح يلائمها الآن ، بشرة لوحتها الشمس قليلا ، وابتسامة يصاحبها وميض من عينيها وغمزة خفيفة ، فى تباطؤ مثير ٠٠ ابتسامة طالما تغنى بها العشاق ، والتقطت لها الصور مئات المرات ٠٠ ابتسامة عميقـة ، عميقة ، فيها اعتـــداد لا يتولاه الفتور ٠٠

أما جسدها ، فان « كل امرىء يعرف » ــ كما تقول ابا ــ « ان الجسد الطيب يبقى طـــويلا » ٠٠ ومن ثم فهى لا تزال تعرض للانظار جسدا رائعا ، ذا بياض مشوب بلون الورد ، وأطراف ممدودة ، وظهر ناعم ، وردفين رجراجين ، وثديـــين


مؤلفة القصة : « كوليت »

بارزين ٠٠ جسد كأجساد آلهة الماء الايطالية ٠٠ « يدوم » ـ كما تقول ليا ـ « الى ما بعد زواج شيرى » !

ونهضت فالتفت فى رداء ، وأزاحت الستائر ، فاذا شمس الظهيرة تلج الغرفة الوردية المرحة ، التى ازدانت بترف لم يعد مألوفا ٠٠ وابتسمت « ليا » وهى تطلق خصلات شعرها لتنساب على كتفيها ٠٠ واسرعت تنثر المساحيق على وجهها ، اذ سمعت صوت باب يصطفق ٠٠ ونفذ شيرى الى الغرفة ـ وما زالت على أذنيه « البودرة » التى رطب بها لحيته بعد حلاقتها ـ متسائلا عن « دبوس » ربطة عنقه ، وعن حذائيه ، فقالت فى دلال : « لن أنبئك بمكانها ! » ٠٠ فصاح صاخبا :

ـ ان اليوم الذى تحبنى فيه امرأة لذكائى لهو آخر أيامى ٠٠ لقد سئمت هذه المعاملة ، فليس من أحد يعنى بأمرى ٠٠

ـ اذن ، فلم لا تهجر البيت ؟

ولم يقو على الصمود لنظرة « ليا » ، فغض بصره كالتلاميذ الخجول ، وتمتم وهو يهز رأسه كالحمل الصغير ٠٠ واذ ذاك تناولت ياقة القميص وثبتتها حول عنقه ، وعقدت له الربطة ٠٠ فلم يقاوم ، ولا احتج ، وانما استشعر لذة ونعومة استلانت لهما عواطفه ، فأغمض عينيه ، وتمتم يدللها بالاسم الذى اعتاد أن يناديها به فى طفولته : « نونون ٠٠ يا حبيبتى » ! ٠٠ وعجزت عن أن تقاوم سحر فمه ، ودفء شفتيه وأنفاسه التى كانت تلفح وجهها ٠٠ وفتح شيرى عينيه ، وانفرجت شفتاه ، وبسط ذراعيه ٠٠ ولكنها راغت منه واستحثته على الانصراف !

الجزء الثانى

◆ **أما** وقد غاب شيرى عن بصر ليا ، فقد دب فيها نشاط ، وارتياح. ففى أقل من ساعة اغتسلت ومسحت بشرتها بالكحول ، وتعطرت بزيت خشب الصندل ، وصففت شعرها ، وارتدت ثيابها وحذاءيها .. وبينما كانت تكوى شعرها ، راحت تصدر أوامرها للخدم ، وتناقش رئيسهم الحساب ، وعيناها ترمقان كل شيء دون أن يغمرهما مظهر ..

وتناولت غذاءها وحيدة ..

واذ نهضت عن المائدة بقامتها الهيفاء ، تبدت ساقاها تحت الثوب الذى التصق بفخذيها .. ولم تفتها النظرة التى لمعت فى عينى الساقى ، والتى كانت تتحدث فى صمت : « ان السيدة امرأة جميلة بكل تأكيد ! » .. ولم تستأ لهذه النظرة ...

وفكرت وهى تصعد السلم الى مخدعها : جميلة ؟ .. انها لم تعد كذلك .. بل ان عليها الآن أن تحتاط لتستبقى لنفسها لمحة من الجمال !

واذ انتهت من تناول القهوة فى مخدعها ، هبطت الى حيث كانت سيارتها فى انتظارها .. وبوجه تجلت عليه امارات التحفز ـ وكأنها ذاهبة الى معركة ـ قالت للسائق : « الى منزل مدام بيلو » .. (والدة شيرى !)

◆

◆ **وقبل** ان تبارح سيارتها ، نثرت مزيدا من « البودرة » على خديها ، وأرخت نقابا أزرق خفيفا ، بدا وجهها خلفه كما لو كان وراء سحابة رقيقة من الدخان تتصاعد من اناء البخور فى معبد قديم !

وكان القوم فى البهو ، ولكنها آثرت أن تقوم بجولة خلال الحديقة التى كانت من أجمل الحدائق المنزلية ، كما كانت « الفيلا » قصرا من أبدع قصور ضواحى باريس .. وكانت تسمع وهى سائرة فى ظلال الاشجار صوت «مدام بيلو» الحاد ، يكاد يصم الآذان .. وضحكات شيرى الجافة التى كانت ترثى لها .. **ثم توقفت لحظة لتنصت الى صوت نسائى آخر ، واهن ولكنه عذب ، أدركت أنه صوت الفتاة الشابة ، فأوسعت الخطى حتى بلغت مدخل بهو ذى واجهة زجاجية .. وهناك استقبلها صوت مدام بيلو : « ها هى ذى صديقتنا الجميلة » !**

كانت مدام بيلو تشبه « البرميل » .. عملت فيما بين العاشرة والسادسة عشرة من عمرها راقصة .. ولكن « ليا » لم تعد تجد فى صديقتها

الحالية العجوز ، شيئا من جمال تلك الفتاة الراقصة الشقراء ..

وتقدم « شيرى » فقبل يد « ليا » ، ثم علق على نقابها بملاحظة أغاظتها .. ونهضت سيدتان كانتا تجلسان الى شيرى وأمه ، فبسطت احداهما لها يدا متراخية ، بينما تأملتها « ليا » ثم صاحت : « يا للسماء .. ما أجملك يا مارى لور ! »

فانتصبت هذه ابتسامة ، وأشارت الى الفتاة التى بجوارها فى شىء من الاستفزاز وقالت : « ألا تعرفين ابنتى .. ادميه ؟ »

وتناولت الفتاة يد « ليا » فى تردد بينما قالت هذه : « كان يجب أن أعرفك ياصغيرتى ، لولا أن بنات المدارس يتغيرن بسرعة .. وان كانت مارى لور لا تتغير الا لتزداد فتنة .. هل أتممت دراستك ؟ » .. فصاحت مدام بيلو : « هذا ما أرجوه حقا .. ما أظنك تتوقعين أن تظل مثل هذه الفتنة وهذا السحر مستترين وراء جدران المدرسة ، لا سيما اذا كانت صاحبتهما تجتاز الربيع التاسع عشر من عمرها .. بل الثـامن عشر .. ألا تذكرين يا « ليا » أننا رأينا الطفلة للمرة الاولى فى السنة التى هرب فيها شيرى من مدرسته ؟ »

فتبادلت «ليا» مع «مارى لور» هزة رأس، كما يفعل الغريم حين يقر لخصمه باصابة فى المباراة .. وخيل لليا وهى تتأمل الفتاة انها صورة من أمها ، مع شىء من الصقل والتهذيب .. شعر أصفر خفيف ، وعينان تنمان عن سر تكتمه صاحبتهما وهى به مشغولة ! .. ونقلت «مدام بيلو» نظرها بين «ليا» والفتاة فى ابتسامة أموية حانية ، ثم قالت للاولى مشيرة نحو شيرى : « كان يسرك أن ترى كيف ائتلف الشابان فى الحديقة منذ برهة »

وكان شيرى اذ ذاك يقف أمام الواجهة الزجاجية وهو يحاول أن يثبت «مبسم» سيجارته بين أسنانه ، وقد طوح برأسه الى الوراء ، وأطبق أهدابه على عينيه نصف انطباق .. واذ تطلعت اليه النسوة لم يفت «ليا» أن تلمح فى عينى الفتاة نظرة الخوف من الهزيمة ، فلذ لها أن تراها وهى ترتجف اذا ما مست ذراعها ، كما يفعل كل شخص يفاجأ وهو يختلس النظر الى شىء محرم ! .. وفعلا ارتجفت الفتاة وسحبت ذراعها ، ثم تمتمت فى صوت أجش خافت : « ماذا ؟ » .. فاعتذرت «ليا» بأن قفازيها وقعا على الارض ..

وقالت « ليا » عقب انصراف الفتاة وأمها : « ألا ترين ان مارى لور لا تزال جميلة ؟ .. صورة حية للشباب ! » .. فصاحت مدام بيلو بصوتها الرفيع الحاد: « صورة للشباب ؟.. عفوا ! .. لقد أنجبت ادميه سنة ١٨٩٥ .. لا بل سنة ٩٤ ، عندما تخلت عن عشيقها المصرى خليل بك ، لتفر مع مدرس للغناء ! »

فرفعت ليا يدها الى أذنها .. وقال شيري في تأنيب لاذع : « عسير علينا ان نقضي الاصيل مرة دون ان نضيق بصوت امي الحاد » .. فحدجته هذه بنظرة مغضبة ، ثم سادهم صمت، كان كل منهم مرتاحا اليه.. وتطلعت «ليا» بعد قليل الى «شيري» . فاذا به قد أغفى . واستلقت أهدابه على خديه الناصعين ، وانطبقت شفتاه فرسمتا قوس كيوبيد .. وفي تراخ ، التقطت من بين أصابعه لفافة ، نام وهي مشتعلة .. وبدت يده بعيدة الشبه بأيدي النساء ، ولكنها أكثر نعومة مما يليق بالرجل .. ومع ذلك فقد ودت لو تقبلها ، لا ذلة ، وانما لتنتشي بلذة خفية كانت تستشعرها في تقبيلها !

ورمقت مدام بيلو بنظرة ، فاذا هي تملأ قدحها كلما فرغ .. وودت لو أن الأم نامت كما نام ابنها ، لتخلو هي الى أفكارها ..

❖

◆ كانت كل منهما قد عرفت الاخرى منذ خمس وعشرين سنة ، اذ ربطت بينهما مودة من ذلك النوع الذي ينشأ بين أولئك النسوة اللائي يصبن الثراء من رجل ، ثم يأتي رجل آخر فيفقرهن ويهدم حياتهن ! .. كانت علاقتهما نوعا من العطف الذي يجمع بين المتنافسين عندما يلحق بكل منهما نكد الطالع .. وكان نكد الطالع يوم بدت في مفرق احداهما شعرة بيضاء ، وفي عنق الاخرى ثنية مجعدة ! .. ولكن صلة أخرى لم تلبث ان عززت دعائم ارتباطهما . تلك هي.. شيري !

وان ليا لتذكر شيري طفلا مدللا ذا شعر انسابت جدائله حتى منتصف ساقيه .. وكان الطفل في كل مرحلة من مراحل نموه يجد من تهيم به ، مبتدئا من خادمات الحجرات والوصيفات .. وهكذا نشأ طليقا ، لا رقيب عليه ، فعرف كل ملاذ الطفولة المستقبحة ، وشهد مباذل الخدم ، وفضائح المطابخ .. وفي الرابعة عشرة ، الحقته أمه بمدرسة داخلية ، ولكنه لم يكن يؤمن بجدوى المدارس ، فهرب منها ! .. ولم تحاول أمه أن تؤنبه ، بل انها لم تقو على رؤيته باكيا ، فخلفت المدينة في صحبة شاب ماجن خليع ، لتعود بعد عامين ، وحيدة ، وقد نفضت يديها من آخر مغامراتها الغرامية..

ونحل عود شيري ، اذ كان جد مسرع في نموه ، وقد غارت عيناه وأحاطت بهما دوائر داكنة . وساء لسانه فلم يعد ينطق بغير فحش القول ، واستطاب حياة الكسل والبطالة والمتعة .. وما اجتاز عامه السابع عشر حتى أصبح يبدو كصورة مصغرة لكهل من الوارثين المسرفين في اللهو والعبث .. بيد أنه ظل محتفظا برشاقته وملاحته .. وكانت أمه تخشى أن تحاسبه على تبذله كي لا تستثير غضبه .. أما ليا فلم تكن تحفل بهذا الغضب الصبياني المدلل ، بل كانت تلاحقه بالحساب .. اذ كانت تقضي معظم وقتها مع أمه ، كعادة الفانيات في أواخر أعمارهن ، حين تلوذ الواحدة منهن بالأخرى ، لا

عن حب ، وانما لترمق كل منهما الاخرى فى شىء من الحسد والريب ..

وذات يوم ، ذكرت «ليا» أنها ذاهبة فى الغد الى « نورماندى » ، فهتف شيرى : « مع من ؟ .. مع صديقنا الطبيب ؟ »

ـ يالك من متأخر .. لقد هجرته منذ شهرين ، فرحل الى روسيا .. لا ، بل اننى ذاهبة وحدى .. وسأصحبك ان شئت .. لن يكون هناك سوى الاكل والشرب والنوم ..

وكان الحديث يغيظ مدام بيلو ، فلما عجزت عن تسفيهه غادرت المجلس ، فتبادلت ليا وشيرى نظرة ماكرة ، ثم انفجرا ضاحكين ..

وقالت ليا وهى تميل نحوه : « انك تهدم نفسك » .. فصاح فى مجونه : « أوه !.. اننى ما زلت نافعا »

ـ ربما كنت نافعا لغيرى .. ولكنك لا تصلح لى أنا ، مثلا .. لم لا تأتى الى الريف ؟ .. حيث الكريز الناضج ، والفطائر الطازجة ، والزبد والدجاج الشهى .. وحيث لن تنفذ الى حياتك نساء ؟!

فأسند رأسه الى كتفها وأغمض عينيه قائلا : « لا نساء .. بديع جدا .. ستكونين خير صديقة لى .. نساء !؟ .. لقد سئمتهن .. »

وكان صوته ناعسا ، ولكنه حار .. وراحت أصابعه تعبث بحبات قلادتها اللؤلؤية .. وضمته اليها كما اعتادت ـ مذ عرفته طفلا ـ فبدأ يستسلم للنعاس ، وهى تتأمل أهدابه الجميلة تستلقى على وجنتيه الذابلتين .. وسألها أن تقبله ، فطبعت قبلة على جبينه ، واذ ذاك طوق عنقها بذراعيه واجتذبها اليه .. وتماست شفاههما ، فجمدت ليا وأمسكت بأنفاسها ، ثم أفلتته واستوت قائمة تسوى شعرها وقد شحب وجهها ، وتألقت عيناها ، وقالت فى صوت مرتعش : « كانت هذه براعة منك ! »

فقال فى غير اكتراث : « لقد عرفت أمرا كنت أسعى لمعرفته »

وتضرج وجهها ، وداخلها شعور بالمهانة دفعها الى أن تقول فى تحد ووخز : « ماذا عرفت ؟ .. ان فمك لذ لى ؟ .. لقد قبلت أقبح منه ياطفلى المسكين .. أظننتنى سأترامى على قدميك وأسألك أن تتخذنى خليلة ؟ ان مثلك لا يجدر أن يتعرف بغير اليافعات .. »

وراح كل ينظر الى صاحبه ، كغريمين يقيس كل منهما قوة الآخر .. وراحت « ليا » تقاوم شبابه الذى كان يناديها فى اغواء ، فلوغلت فى السخرية .. ثم هدأت انفعالاتهما .. واستهوتهما رائحة الزهور « الفتنة » فسارا الى الحديقة ، وفى نفس ليا خوف من أن تتداعى ثانية ، وتشف عن الرغبة التى تمردت فى أعماقها .. ومع ذلك فانها لم تلبث أن تداعت فعلا ، ولبت النداء .. وراحت تقبله فى نهم أنانى وقد فاضت عواطفها وكأنها تنتقم

لحرمانها السنين الماضية من هذا الشباب الفض ! .. وأثملتهما القبلات فنسيا العالم ، وراحا يترنحان .. ثم تمالكت ليا نفسها ، وهمست فى استفزاز : « هه .. وبعد ؟ »

وتوقعت أن يهينها بكلماته الجارحة ، لكنه بسط ذراعيــه .. ومن بين أهدابه الناعمة انحدرت دمعتان ، وهو يهزج بأغاريد الهوى ، ويدللها بأعذب الاسماء .. لقد اعتادت كلما ذكرت صيفها الاول معه فى نورماندى أن تقول: « لقد لقيت من الشباب المدلل من كانوا أكثر متعة وذكاء من شيرى ، ومع ذلك فاننى لم أحظ بعاشق مثله » ! .. وداخلتها مشاعر غريبة أذهلتها.. وراحت تحنو عليه فى الريف الجميل وتغذوه وتطرد النحول والشحـــوب عنه بأشهى الأغذية الدسمة .. واستدعت صديقا كان ملاكما رشيقا ، فراح يدربه فى صبر وأناة ، فاذا الفتى ينمو ويتطور ، واذا جسده ينم عن بنيان بديع ، رشيق ..

وكانت سعيدة به وبتطوره .. سعادة انبعثت عن شعور « أموى » راح يتدفق على قلبها فيغسل عنه كل عاطفة أخرى .. فكانت تربت جسم الشاب الذى يدين لها بما أصاب من تقوية وتجديد ، كمربية تهنأ بالاطمئنان على طفلها .. وكان المدرب يسأله أحيانا : « أية غبطة تجدها فى أن تكون مدللا ؟ » ، فيرميه بنظرة « عدائية » قبل أن يجيب : « ان هذا يسرى عنى .. لن يقدر لك أن تدرك يوما هذا النوع من السعادة أو تفهمه ! »

والواقع ان ليا نفسها لم تستطع أن تفهمه ، ولا أن تفهم شيرى .. ولا أن تفهم حقيقة شعورها نحوه .. وكانت كلما اعتزمت الرحيل ، عادت فأرجأته.. فى أمل وارتقاب .. كانت تنتظر من عشيقها الشاب ثقة ، واعـــترافا ، واستسلاما .. كانت تنتظر تلك الساعات التى تقبع فى أواخر الليل ، حين تطغى عواطف الشباب فتبعث الدموع الى عينى الرجل وهو ملق رأسه على صدرها .. ولاول مرة طال انتظارها عبثا ، فان هذا الشاب المدلل كان يفوت عليها هذه المتعة ! .. كان اذا أوى الى المضجع تراءى غامضا ، مبهما .. وتولاه ملل يخالط الوجد المتكلف الذى كان يحتضنها به .. وكان حنانه يتراجع أمام نزوات من القسوة وتعمد اخفاء حقيقة نفسه .. والضن باعترافه .. الاعتراف الذى طالما تلقته من خلانها فى سويعات الفجر الحالمة !

وعندما أوشك سبتمبر على الاحتضار ، عادا الى باريس ..

وأوت الى دارها وحيدة ، وتركته يسعى الى أمه .. وخيل اليها أن البيت موحش .. والحياة خواء .. ولكنها لم تلبث فى الليلة التالية أن فوجئت به يقتحم مخدعها .. وندت منها صيحة مفعمة بالعواطف .. وجرى نحوها .. وبعد لحظات ، كان شيرى مستلقيا الى جوارها ، يصطنع النوم والتعب ، ملتفا

فى أردان الصمت .. ولكنها كانت تنصت وهى مضطجعة الى جواره ، الى ثورة تتبدى فى تهدجات صدره ، والى شجون تنبعث مع أنفاسه .. والى اعترافه الصامت بجميلها .. وبحبه لها !

*

وكان نبأ اعتزامه الزواج مفاجأة حاولت أن تنكر قسوتها .. كان ذلك فى أغسطس بعد أعوام خمسة .. وكان المطر غزيرا ، والغيوم تحيل النهار ليلا .. وتنهدت فى أسى ، فسألها : « ماذا بك ؟ » .. فأجابته : « لا شىء.. انما أكره المطر » .. فقال فى تخابث : « آه .. ظننت .. انك تحسين بتعاسة » .. فتضاحكت قائلة : « أأستشعر تعاسة لانك ستتزوج ؟ .. لا .. انك سخيف .. »

وحاولت أن تنزع نفسها من فيض ذكريات السنوات الخمس لتبدى له ابتهاجها بأن تلقى عبء ترويضه على سواها ، فقال :

ـ لن يكون لها من الامر شىء .. سأتزوجها .. وسيكون أقصى ما لها ان تسجد عند قدمى لترفع صلواتها الى ..

قالت تحاول التظاهر بعدم الاكتراث : « ولماذا اخترت هذه الفتاة الصغيرة ؟ »

ـ كان لا بد من هذا مهما طال الاجل .. ثم ان هناك فوائد جمة .. فللفتاة ثروة طائلة !

وقفز ضاحكا ، ثم استلقى عند قدميها، وتطلع اليها بعينيه الفاتنتين .. فسألته وهى تتحسس قسماته الساحرة :

ـ ولكن .. ما شعور الفتاة نحوك ؟ .. وما شعورك ؟

ـ انها تحبنى .. تعبدنى .. ولكنها لا تبوح بشىء .. أما أنا ، فلا أحس بشىء البتة .. ولكن ، يخيل الى أنك تفكرين فى كل شىء عدا دورك أنت فى هذه الرواية ؟

فنظرت اليه مبهوتة ، ثم ارتسمت على شفتيها الابتسامة الخلابة ، فمضى فى حديثه وفى لهجته ألم : « أجل .. انك الضحية ياليا .. انك أهل للعطف ، اذ سأهجرك ! »

فأخلدت الى الصمت برهة ، ثم قالت فى شىء من الوجوم :

ـ ماذا تتوقع ؟ .. ان آوى الى الريف أخفى أساى ؟ .. ان أصاب بالهزال ؟ .. ان أكف عن صياغة شعرى ؟ .. أن أدعو أمك لتعنى بى بينما ألازم فراشى مريضة الهم ؟ .. لشد ما أنت واهم اذ تتوقع هذا لحرمانى من عاشق تافه .. مدلل .. لم يصلح يوما لارضائى .. ان من عادتى أن أغير عشاقى من آن الى آخر !

❖

◆ **وغرقا** فى أمواج من المرح خلال الاسابيع التالية .. كان اعلان خطوبته يضطره الى البعد عنها بضع ساعات كل يوم ، بينما حرصت أمه على أن تبقيها بعيدة عن دارها .. فكان اذا عاد اليها مضى يروى لها ما حدث فى بيت أمه .. ويحشو حديثه بالسخرية من أمه ، فتظل « ليا » تضحك حتى تنساب دموعها ..

وسألته أخيرا : « متى يحين زواجك ؟ » .. فلما قال انه بعد أسبوع من يوم الاثنين ، وراح يحدثها عن رحلة شهر العسل ، قالت فى احتجاج : « والفتاة ؟ .. انك تغفلها فى حديثك »

فأجاب : « والفتاة طبعا .. وان لم تكن لها أهمية كبرى .. أما أنت فستظلين ذات قيمة عظمى فى حياتى الى الابد .. طالما أسعدتنى »

وضحك فى خبث .. ولم تنبس ببنت شفة ، جاهدة أن تكتم الزهو الذى تملكها ، وان تمسك لسانها عن أن ينطلق صائحا : « سل ما شئت .. طوق عنقى بذراعيك ، فقد أسعدتنى ردحا »

❖

◆ **بدا** على مدام بيلو أنها قضت وقتا طويلا فى التأنق ، قبل مقدم «ليا» لزيارتها فى أصيل يوم أحد بعد سفر شيرى وعروسه لقضاء شهر العسل .. وكان الجو قيظا رغم ان باريس كانت فى أحضان شهر أكتوبر .. وكانت مدام بيلو وضيفاتها يتحدثن عن جو ايطاليا وعن العروسين .. وأحست « ليا » بغيظ .. وودت لو أخلدن الى السكينة .. وسألتها مدام بيلو عما بها ، ففطنت الى أن النسوة يرقبنها ، يحاولن أن يستشففن ما وراء مظهرها ، فبادرت ترسم على أساريرها امارات الهناء ، وقالت : « لقد أفرطت فى الغذاء .. ولكننى سأبدأ من غدى نظاما خاصا لاحفظ على جسمى رشاقته »

فقالت مدام بيلو : « ألا تكفى أحزان قلبك لتجعلك نحيلة ؟ »

وتضاحكت الموجودات ، فنهضت « ليا » بقامتها الهيفاء ، مزهوة بأنها تمثل الشباب بين هذه البقايا المحطمة من النساء ، وصاحت مبتسمة : « أوه .. لا .. اذا كانت القلوب الكسيرة تخفف السمنة ، فمن لى بعشرة منها ؟ »

وتهادت الى الحديقة ، فتهالكت على مقعد دافىء ، وأغمضت عينيها مسلمة كتفيها لاشعة الشمس تلثمهما .. وعندما فتحت عينيها ، التفتت فى لهفة نحو البهو ، وكأنها كانت ترجو أن ترى شيرى واقفا لدى الباب .. فلما فطنت الى الامل الخادع ساءلت نفسها : « ماذا دهانى ؟ »

وعندما بلغت دارها فى المساء ، أسرعت الى فراشها وهى ترتجف ، رغم ان المدفأة كانت موقدة ، وأمرت وصيفتها بأن تحيط جسمها بزجاجات الماء

الساخن ! .. حتى اذا خف ارتعاشها ، ودبت الراحة فى أوصالها ، ساءلت نفسها : « ما الذى أصابنى ؟ » .. وعاودتها لوعة الهم وقد تراءى لها باب البهو الزجاجى فى بيت مدام بيلو خلوا من شبح شيرى .. ومنظر العجائز اللاتى كن هناك .. ترى أى هاته المكتهلات ستكون هى بعد عشر سنوات ؟

وراحت تهيم متخبطة بين أحداث الماضى وذكرياته ، وأحست بوحدة موحشة .. فاشتد ارتجافها ، ولم تعد تستطيع أن تخدع نفسها ، فهتفت فى لوعة وحنين : « شيرى ! ».. ثم انهمرت دموعها .. وعندما استعادت سيطرتها على عواطفها بعد هنيهة ، بادرت تجفف عينيها فى حزم .. لقد فهمت سر حالها .. لم تكن مريضة ، وانما كانت تعانى أزمة عاطفية نفسية يجب أن تحول دون تكرارها .. يجب أن تحتاط من العدو الذى لم يكن لها عهد به قبل اليوم .. من الاحزان والاشجان !

وغادرت فراشها ، فالتفت فى رداء حريرى ، وجلست بجانب المدفأة .. وما لبثت أن نهضت ففتحت النافذة وأطلت منها تصغى الى صوت لم تدر كنهه .. وأقبلت ريح ندية تدفع أمامها بعض السحب .. وعادت تغلق النافذة ، وتتناول احدى الصحف ، فاذا تاريخها « ٢٦ أكتوبر » .. اذن **فقد مضى شهر منذ زواج شيرى ..أجل ، زواج شيرى ! .. ولكنها لم تكن تعترف قط بأنه زواج « ادميه » أيضا .. بل انها لم تعتبر الفتاة يوما زوجة من الاحياء .. حتى لقد تلاشت ملامحها من ذاكرتها ! .. وتمتمت تحدث نفسها : « كل منهما فى أحضان صاحبه فى ايطاليا فى هذه اللحظة التى تفارقنى فيها الراحة والهدوء .. ومع ذلك ، فماذا يعنينى ؟ » .. ولكنها رغم ذلك ظلت نهب القلق والاسى ..**

وفى خلال الايام الخمسة التالية ، انهمكت فى اعداد العدة للرحيل الى جنوب فرنسا .. وتركت لمدام بيلو هذه الرسالة : « لا يسوءنك رحيلى دون وداع ، ودون افضاء بسرى الصغير المكتوم .. اننى أحاول العودة ثانية الى مغامرات الحب الحمقاء .. ان الحياة قصيرة فلنجعلها مرحة عابثة .. أذكرينى للفتى عند عودته ، ولا تجشمى نفسك عناء سؤال خدمى ، فلن يعرف أحد وجهتى ! »

❉

◆ **راحت** مدام بيلو تتأمل ابنها بعين فاحصة مدققة ، بعد أن فرغا من أول افطار تناوله الشاب المدلل فى بيت أمه عقب عودته من رحلة شهر العسل .. وكان « شيرى » يبدو أكثر جاذبية وفتنة من ذى قبل .. وقد انصرف عن حديث أمه ، واتكأ على حافة النافذة مسرحا بصره فى الحديقة..

وفجأة ، التفت نحوها قائلا : « هل كان الخطاب الذى أريتنيه ـ خطاب ليا ـ يحمل تاريخا ؟ »

ـ كلا يا عزيزى .. ولكننى أذكر اننى تسلمته فى الليلة السابقة لآخر يوم أحد قضيته هنا فى أكتوبر الماضى قبل رحلتى .. ولقد سمعت بعض أقاويل .. يلوح انها رحلت مع شاب صغير ، ليس بالجميل ، ولكنه أنيق..

وراح الابن يجوس خلال البيت وكأنه يشاهد حجراته للمرة الاولى ، الى أن بلغ حجرة فى الطابق العلوى كانت مخدعه قبل حياته مع « ليا » .. وفتح الباب دون استئذان ، فانبعثت صيحة خافتة من الفراش القائم فى ركن الحجرة ، حيث كانت « ادميه » جالسة ... ووقف شيرى يتأمل زوجته الشابة ، وكأنه يراها لاول مرة . كان شعرها متهدلا فى فوضى رشيقة ، بينما بدت وجنتاها شاحبتين لفرط التعب الذى لقيته فى رحلتها .. كانت تلوح كصورة جديدة لم يفرغ الرسام منها بعد ..

وتقدم شيرى فجلس الى جوارها واحتضنها .. فاستلقت الى الخلف وجذبته اليها .. واعتمد جسده على مرفقيه ومضى يتأمل هذه المخلوقة التى لا تزال فى جدتها ونضارتها .. ثم سحب ذراعيه فجأة من حولها ، فهوت على الفراش ، وتناول مرآة راح يحدق فيها ، ثم هتف : « أتعرفـين اننى تجاوزت الخامسة والعشرين ، فى حين انك فى التاسعة عشرة .. بل لم تبلغيها .. انك أصغر منى سنا .. ما أغرب ذلك ! »

واستسلم لتفكير عميق وقد أومض فى عينيه بصيص من الخوف .. خوف من ذكرى بدأت تعيد الماضى الى ذهنه .. ثم نهض فألقى بجسمه على الفراش الى جوار ادميه ، وأسند رأسه الى كتفها البضة اللينة ، فتلقته الشابة منصاعة باسطة ذراعيها .. وأغمض عينيه لا يحير حراكا .. وبقيت هى يقظى متأهبة لاى نداء ، وان بدا لها انه قد استغرق فى النعاس .. هكذا كان دائما معها !.. وهكذا تعودت ان تقضى الليل الى جواره مؤرقة ، مسهدة ، فى هذه الحجرة الضيقة التى اضطرت الى أن تتيم فيها مع زوجها ريثما يتم بناء البيت الذى أمر شيرى بأن يقام لهما .. وكانت الشابة تعانى ارهاقا شديدا فى تشبثها بالاستكانة وتفادى الشراك التى كانت مدام بيلو تحاول أن توقعها فيها لتعكر عليها هناءها ..

وحدث اذ كان أفراد الاسرة يجلسون الى العشاء ذات مساء ، ان تعمدت مدام بيلو ذكر اسم «ليا» ثلاث مرات بدلا من «ادميه» ، أثناء الحديث ، فقطب شيرى جبينه وصاح : « يظهر ان ذاكرتك قد بدأت تضعف يامدام بيلو ، فهل ترين ان الوحدة تشفيك من هذا الداء ؟ »

وسكتت الأم على مضض ازاء هذا الانذار بالهجران .. وساد المكان صمت واجم ، بعث فى نفس « ادميه » خوفا لاحظه « شيرى » ، فلم يكد يخلو اليها ، حتى سألها : « أخائفة أنت من أمى ؟ » .. فابتسمت ابتسامة شاحبة ، وقالت : « كلا .. ان اصطفاق الباب فجأة قد يدفع المرء الى أن يقفز من مكانه ، ولكنه لا يخيفه .. انما أخشى الافاعى التى تختفى بين الاعشاب » !

فطوقها بذراعيه قائلا : « كلانا يتيم فقد أباه .. واصطلى بنار أمه .. أليس كذلك ؟ » .. فتعلقت بدورها بعنقه ، وكانت الامسية قارسة البرد، ولكن «ادميه» أحست فى أحضان زوجها دفئا وحمى وملاذا ! .. استشعرت طمأنينة بين ذراعى هذا المجهول ، الذى كان غريبا عنها منذ قليل ! .. ثم تطلعت اليه ، فارتجف جسمها وندت عنها صرخة ، اذ رأت على أساريره معالم اليأس والقنوط ، وقد انطبقت أجفانه على دمعتين ، فصاحت منزعجة : « شيرى .. شيرى .. ماذا جرى ؟ .. أواه يا الهى ! .. اننى خائفة فماذا أصابك ؟ »

فضمها الى صدره قائلا : « ياطفلتى المسكينة .. ما الذى يخيفك ؟ » .. وتحولت عيناه المخمليتان نحوها ، وقد زادتهما الدموع فتنة ... ولكنه ما لبث أن استعاد هيئته الاولى ، ومضى يطفىء الشموع .. ثم استلقى الى جوارها وهو يقول : « وما الذى يحول دون أن أنساق للعاطفة ؟»

*

ـ ماذا تفعلين ؟

ارتبكت ادميه اذ انبعث السؤال هادئا من فم شيرى ، فجمدت فى مكانها وقد بسطت يديها على بعض الاوراق المبعثرة..وأرسل شيرى ضحكته الوقحة المتبجحة ترن فى أرجاء الحجرة ، وقال : « آه.. كنت تبحثين عن خطابات غرامية ! » وتقدم فملأ قبضته من الاوراق وطوح بها فى الحجرة ، ثم قال: « ليس لدى خطابات غرامية .. لا ، بل لدى واحد .. »

فقالت وقد غاظها تهكمه وأثارها حتى لقد تعمدت أن تخزه : « مثل هذا الخطاب ولابد ـ بداهة ـ من « ليا » .. ألا اذهب .. اننى أمقتك .. انك لم تحبنى قط..لم تهتم بى أو تشعر بوجودى .. جرحت كرامتى وحطمت كبريائى.. اننى أمقتك .. انك لا تفكر الا .. فى تلك العجوز ! »

وهزت رأسها كحيوان تعتصر عنقه قبضة قوية .. ورفعت رأسها تستنشق الهواء وقد انهمرت دموعها ، فاذا بها تذيب جموده .. فما رأى من قبل دموعا تذرف من أجله .. وبسط ذراعيه نحوها فى غير وعى ، فتراجعت وكأنما خشيت أن تلقى منهما قسوة أو عنفا ، ولكنه وضع يديه الناعمتين المعطرتين على رأسها ، وربتها بحنان مواسيا ، فازدادت الفتاة بكاء .. ثم

هدأت عواطفها رويدا ، وان ظلت شهقاتها تنبعث بالرغم منها..وكان «شيرى» قد جلس الى جوارها وأخذ يمر بيده على شعرها وقد بلغ آخر حدود الصبر .. وقال أخيرا : « لست أدرى ماذا تريدين ؟ .. ما الذى تؤاخذيننى من أجله ؟ .. هل أنام فى حجرة غير التى تنامين فيها ؟ .. هل قصرت فى حبك ؟ »

كانا كطفلين ساذجين .. وترددت ، ثم ابتسمت ، وقالت فى ليونة : « أو تسمى هذا حبا ؟ ..ألا يجوز أنه ليس أكثر من .. ارضاء لغريزتك الجنسية ؟ »

فبعث من بين شفتيه صفيرا نفس به عن ضيقه .. ورات « ادميـــه » خياشيمه تنتفخ .. وزفر فى ضجر، ثم مس كتفها باصبعه فى خشونة وقال: « ألا تعرفين ان من الحكمة أن لا تجرحى شعور رجل بأن تسفهى الحب الذى يهبك اياه ؟ »

فهمست : « انك تتكلم كـ .. البغى » .. ثم تضرج وجهها واضطربت .. كرهت أن يظل شاحب اللون ، متعاليا .. بينما قال هو : « بل أنت التى تفكرين كالبغى ،. ان البغى - كما تدعينها - هى المرأة التى تسعى عادة لان تنال أكثر مما تهب .. انك فى التاسعة عشرة : بيضاء ، ذات شعر عاطر الشذى ، وعينين نجلاوين ، وذراعين بضتين .. كل هذا جميل ، ولكن .. أترينه نادرا ؟ »

وبدت لها كل كلمة كطعنة تثيرها نحو الصراع الذى احتدم منذ الازل بين الذكر والانثى .. فقالت فى وخز : «لا تبتئس، ففى الوسع اصلاح كل شىء، ان الزواج اليوم رباط من السهل التخلص منه .. ليس أسهل من الطلاق السريع ! » .. وكان صوتها مؤثرا .. وقد خبا تورد وجنتيـــها ، وبدت التعاسة فى عينيها .. فمال نحوها ، وافترقت أهدابه كجناحى طائر يرفرفان .. ثم استطرد : « هذا لا يجدى ، لانك .. تحبيننى ! »

ولم تسمع من صوته غير اللهجة الودية التى طالما سمعتها فى أســـعد لحظاتهما .. واعترفت فى أعماقها بصدقه .. حقا ، انها تحبه !

✤

◆ **كان** يسير كالذاهل ، تحف به نسمات الربيع الواهنة المبـــكرة ، وتلاحقه نظرات النساء فى اعجاب .. ودعواتهن فى صمت .. واغراؤهن فى استتار .. ولكنه كان لاهيا عنها جميعا .. كانت قدماه تدفعانه على الرغـــم منه نحو غاية محتومة اختارتاها له .. نحو بيت « ليا » !

ورآه حارس الباب فتقدم يرحب به فى حفاوة بالغة .. وحاول الشاب دون طائل أن يعرف منه البلد الذى رحلت اليه مولاته .. وأخيرا تحول

شيرى يسير فى تؤدة مطوحا عصاه فى الهواء .. وأحس بأن قدميه تتخبطان وتتعثران .. وبلغ سياج حديقة عامة ، فاستند اليه يتأمل الزهور ، وفطن الى أن التعب قد برح به .. وعندما انتبه أخيرا الى نفسه ، كانت الاضواء قد انتشرت فى جنبات المكان ، فهتف فى نفسه : « لا .. هذا غير محتمل .. اننى ولابد مريض ! »

وراعه انه استسلم خلال الساعات الطويلة لنوبة من الشرود الذهنى .. وفكر فى العودة الى البيت ، فتبدت له صورة الشابة التى تنتظره الى جوار النافذة .. وأمه وقد جلست ترشف الشراب فى تؤدة من كأسها .. فاذا به يعدل عن الذهاب الى البيت ، ويستقل أول سيارة « تاكسى » مرت به ، الى مطعم « التنين الازرق » .. واستقبلته الاضواء الباهرة ، والموسيقى العنيفة ، فشق طريقه بين الموائد .. حتى لمح شابا طويلا نحيل القامة يجلس الى أحداها ، فأسرع اليه وحياه قائلا :

– ديزموند !؟ .. انك الشخص الذى تمنيت ان أراه ..

وجلس .. ومست حسناء على مائدة مجاورة كتفه بمروحة كبيرة ، ولكنه لم يحفل بها .. وسأله ديزموند : « ماذا تشرب منذ زواجك .. شاى ؟ »

فتفتحت خياشيمه لرائحة الشمبانيا ، وأبرقت عيناه ، وقال : « بل عصير التفاح .. هلم اطلب تليفون رقم ١٧ – ٨٠ فاجرام ، وسل عن أمى وأخبرها اننى سأتناول العشاء معك »

وأكل وشرب كثيرا .. وضاعفت الضوضاء العابثة ، ورنين الكؤوس ، وأنغام الموسيقى ، من سروره ، فتخلى عن جموده .. وسأله ديزموند فجأة عن « ليا » ، فلم يرتبك بل قال وكأنه موقن : « ليا ؟ .. انها فى ميدى »

ومضى وقد ثمل بنشوة الخمر يتغنى بمحاسن الزواج ، ويطيب فى امتداح زوجته ، وكأنه يبحث عن ثغرة يوجه منها الى « ليا » سهام النقد ويبين أنه قد نفض قلبه من حبها .. وهو فى الواقع يلتمس متعة الحديث عنها – ولو بالافتراء – ليرضى حنينا طاغيا استبد به ..

وحوالى الساعة الحادية عشرة ، نهضا يتأهبان للانصراف .. وعندما صارا فى عرض الطريق ، توقف فجأة وقال لصديقه : « اسمع ياديزموند .. اتصل ببيت أمى تليفونيا مرة أخرى ، وقل لمن يجيبك اننى أصبت بمرض طارىء ، فحملت الى مسكنك .. وسأبقى فى رعايتك الليلة . »

وعندما عاد اليه ديزموند ، أدرك من حديثه أن « ادميه » هى التى تلقت الرسالة التليفونية .. وما لبث أن سأل صديقه أن يقوده الى مسكنه ، فصاح الشاب : « فى مثل هذا الوقت المبكر .. لعلك تمزح .. أتراك راغبا .. ؟ »

ولكن شيرى تعلق بذراعه وأغمض عينيه وهتف : « فى النوم .. صدقنى ! »

✽

◆ **مضى** « شيرى » فى خجل يعد الايام التى تلت تلك الليلة ، دون أن يعود الى داره ، فاذا هى واحد وعشرون ! .. وكان اذا ثاب الى نفسه بعد السهرة ، وعند اليقظة، علل تصرفه بأن جبنه من أن يواجه الموقف لن يلبث أن ينجاب ، فتواتيه الجرأة على أن يعود الى حيث أمه و «ادميه» فى انتظاره ..وأخذ يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن ادميه «زوجة كاملة لم يحصل رجل على مثلها .. لا عتاب ولا شكوى!» .. ومع ذلك ، فانه كان يرتجف اذا رأى امرأة تشبهها .. كان يخجل من أن يلقاها بعد اذ هجرها !

وراح ينفق عن سعة ، مسفا فى الشراب والسهر والعبث .. ولكنه قط لم يقرب من امرأة الى أبعد مما ينبغى.. **وكان كلما اعتزم العودة الى «نويى»، تلكأ على أمل أن « ليا » راجعة عما قريب .. ولكن ابريل انتصف ولما تعد ! .. وتوالت أحداث زادت من تردده فى العودة الى « نويى » ، اذ زارته أمه يوما ، فاذا بها تجزع لما تشيه من نحول وشرود .. واذا بها تصدمه بأن « ادميه » تقبع فى انتظار « أوامر أخرى » ..**

لكنه لم يذهب الى « نويى » .. وأخذ يغرق نفسه فى عزلة كئيبة عابسة ، بينما راح شهر أبريل ينفث أنفاسه على باريس ، فيبعث الزهور اليانعة تبتسم للعالم .. ومضى ينأى عن مجالس العبث ، لينطلق يهيم فى ظلمة الليل وحيدا .. على غيرى هدى ، ودون وعى .. وذات ليلة ، أعياه الصراع ضد الحافز الذى كان يدفعه الى التمسح فى جدران بيت « ليا » ، فاستسلم له .. وأحس بغصة أليمة وهو يقترب من البيت.. ثم أجفل فجأة اذ رأى الاضواء متألقة فى الطابق الثانى .. واستند الى شجرة ووقف يتطلع مكذبا عينيه، ثم سمع صوت الحارس يكلم «ليا» ، فأطلق لساقيه العنان حتى بلغ الغابة المواجهة للبيت ، فجلس فى أطواء ظلامها متطلعا الى الاضواء ، وقد تهدجت أنفاسه ، وخيل اليه أن قلبه يكاد يقفز من صدره !.. واسترخى فى جلسته وقد جثم على صدره عبء ثقيل ، ولكنه حبيب ، فتمتم فى خفوت : « آه .. أهذه هى السعادة ؟ »

ومضى يستعرض حياته الماضية فى اشفاق، رائيا لما كان يتخللها من حرمان .. وانتهى الى أنه لم يعد يتوق الى شىء .. ولا رؤية « ليا » .. وملأ رئتيه من نسمات الفجر الزاحفة ، وسار الى الفندق الذى كان ينزل فيه وقد راوده حنين الى « ادميه » .. وأيقن انه سيستعذب العودة اليها !

✽

◆ **لم تكد** الساعة الثامنة من الصباح التالى تحين ، حتى كان شيرى مستيقظا ، وقد ارتدى ثيابه وحلق لحيته ، وتولته حمى من النشاط ..

وارتدت له روحه المرحة ، فأخذ يتأمل صورته فى المرآة ، ويصفر لحنا طروبا .. وتذكر المرآة التى كانت فى مخدع « ليا » ، وصورته التى كانت تنعكس على صفحتها .. صورة الشاب السعيد ، المرح ، المدلل ، المولع بتلمس لآلىء قلادة عشيقته ، فقال لنفسه : « لعل هذه الصورة لا تزال فى مرآة « ليا » .. ! »

وعجب لنفسه .. كيف لم يذكر خلال بعده عن « ليا » ذلك العشيق الذى خلفه لديها ؟ .. وأخذ يحاول أن يحدس أى نوع من الرجال ذلك العشيق.. ثم انتهى قائلا : « ولكن ، من يصلح غيرى لارضائها ؟ » .. وأسند رأسه وغمغم فى شوق ووجد : « نونون.. ياحبيبتى!.. أتراك خنت عهدى وعلقت بسواى ؟ » .. وأذكى جذوة الشقاء فى نفسه بكلمات الشك والرثاء يذكرها فى لوعة .. وحاول أن يذكر أيامه معها ، ولكن شبحا راح يخيم على هذه الذكريات .. شبح عشيق استكان الى أحضان « ليا » .. وأدهشه أن تبين ان الطيف لم يكن لشخص سواه .. اذن ،فلابد من أن ليس ثمة عشيق سواه!

وهم أن يتصل بها تليفونيا ، ولكنه قاوم الشوق المتقد ، ونهض فابتاع حلية مرصعة بالجواهر الثمينة لزوجته ، وباقة زهور وبعض العطور ، وأمر سائق سيارته بأن يحمله الى بيت .. أمه !

واذ استقرت به السيارة أخيرا ، شرع يصعد الدرجات بخطى ثابتة ، نحو الشابة التى هجرها منذ ثلاثة شهور ، كملاح يعود من رحلة طويلة الى شريكته !

❉

◆ **جلست** «ليا» تقلب الاشياء التى كانت فى حقائبها ، ثم هتفت فى ملل : « آه .. يالها من رحلة ! .. لكم كانت مدعاة للسأم ! » .. لقد عادت ــ بعد أشهر ستة ــ أنحف قليلا مما كانت ، وأكثر ضعفا ، وأشد سمرة .. فعبست «ليا» وهى تتأمل صورتها فى المرآة ، وتحولت ففتحت النافذة على مصراعيها وسرحت بصرها فى حديقتها المزهرة اليانعة .. وراحت فى اشمئزاز تستعرض العشاق الذين حاولوا أن يتقربوا اليها فى رحلتها .. كانت تضيق بهم وتصدهم فى جفوة لم تدر لها سببا .. ولكنها الآن أدركت انها كانت تقارن كلا منهم بصورة فى أعماقها .. بطيف رابض فى فؤادها !

وأنعش صباح باريس الوضاء قلبها وروحها .. وتملكتها رغبة طاغية فى أن تسعى لتبدو فى أجمل بهائها .. وتمتمت : « ولكن .. لمن ؟ .. فليكن لنفسى .. ولأغيظن مدام بيلو ! »

ولم تكن تجهل نبأ فرار شيرى من زوجه ، فقد تناهت اليها الشائعات والهمسات .. ولكم ضحكت اذ ذاك ، وغشيتها هناءة أم هجر ابنها دارها، ثم واتتها الانباء بأنه فى الطريق اليها .. تائبا ! .. وفكرت فى شيرى ..

لابد وانه عاود السهر والعبث والتقلب بين أحضان الغانيات ! .. ولقد سبق أن أنقذته من الحياة البوهيمية .. أفتراها تنقذه مرة أخرى ؟

وأقبلت فى نشاط على زينتها ، وقد داخلتها رغبة فى أن تغير الجو الذى عاشت فيه خلال العشرين عاما الاخيرة .. حتى أثاث بيتها .. كان بنفسها اصرار على أن تكافح السن ، والوحدة ، والمصير المرتقب لكل غانية مثلها تقدم بها العمر ..!

وحاولت فى الايام التالية أن تبحث عن عشاقها السابقين .. ولكن زهدا غريبا لم يلبث أن صرفها عن المحاولة .. وساءلت نفسها : ترى ماذا جرى؟.. كانت تشعر بنقص .. بفراغ .. بحنين الى شىء مبهم غامض حرمت منه !

ووجدت الدماء تفر من وجهها والارتباك يعتورها ، اذ فوجئت ذات يوم بزيارة من « مدام بيلو » ! ـ وكانت قد علمت بعودة « شيرى » الى زوجته ـ بيد انها سرعان ماأحست لصوت زائرتها بحلاوة ، فتركتها تتكلم .. بينما اختارت لنفسها مقعدا مستوى الظهر حتى تجلس منصوبة القامة ، مرفوعة الذقن ، مخفية آثار الكبر .. وراحت ترمق غريمتها القديمة فى ارتيـاح مصطنع ، وقد ساورها أن هذه العجوز المترهلة ما جاءت الا لتستبين عزيمتها وقوتها .. ولكن « ليا » كانت قادرة على مقاومة عواطفها .. وأخرجها من تأملاتها صوت مدام بيلو تقول :

ـ لقد كان فرار شيرى نوبة طيش ما لبثت أن انقشعت .. ألا دعينى ألومك ياعزيزتى ، فمنذ بلغ التاسعة عشرة حتى أربى على الخامسة والعشرين كنت ترعينه ، فما عرف حياة العزوبة بمفاسدها الا فى الاشهر الثلاثة التى هجر فيها زوجته ..

فقالت الاخرى فى هدوء أخفى أساها : « بل كان هذا درسا طيبا لزوجه الشابة »

ـ أجل هو كذلك .. وقد أثمر الدرس فى الزوجة الصغيرة ، فوجد عند عودته استقبالا طيبا .. قط لم أر فى حياتى من تبزها .. تصورى أن شيرى تركها ، فما شكت ولا تبرمت ولا أقدمت على حماقة .. وعندما عاد تلقته فى غير لوم أو تأنيب ! .. وقد أكدا صلحهما بساعة قضياها فى مخدعهما ، فلم تكن فى الدنيا امرأة أسعد منى !

فقالت ليا فى سخرية متوارية : « اللهم الا ادميه نفسها ! »

ـ اننى أبنى آمالا جساما على شيرى .. لسوف يحب بيته حبى له .. وهى .. انها تأمر الخدم فى صوت خافت مستكين ، وتتلقى رغبات شيرى فى استسلام .. اننى لاخشى أحيانا هذا الاستسلام ، وذاك الهدوء المستكين ..

انها توشك أن تهدىء من عنفه وثوراته ، وتجعله مثلك هادئا باردا ، فمثلا ، عندما سمع اننى قادمة لزيارتك ..

ـ ماذا .. هل عرف ذلك ؟ .. هل أخبرته بعودتى ؟

وتدافعت الدماء الى وجهها .. لكنها لعنت عجزها وتسرعها حين لمحت عينى مدام بيلو تومضان فى خبث .. وخيل اليها ان دقات قلبها تتابع فى دوى مسموع وهى تسمعها تقول:

ـ بل هو الذى اخبرنى .. ثم قال : « انك تصنعين معروفا اذا ذهبت فجئتنى بأنباء نونون » .. انه ما زال مغرما بك .. ان الرجل لا ينسى امرأة مثلك بسهولة يا عزيزتى « ليا » .. وبصراحة ، أعتقد ان اشارة واحدة منك كفيلة .. ولكن .. لقد أهملت السؤال عنك .. حدثينى .. هل كانت رحلتك موفقة .. وهل هناك حب جديد ؟ ـ أجميل هو ؟

فهزت « ليا » رأسها ، وقالت : « لا .. لن تحصلى منى على جواب شاف.. هل أخفقت فى تسقط الانباء كعهدك ؟ »

ـ بل اننى لا أحفل بالشائعات التى زعمت انك هربت من عشيق جديد .. وانك فى ضائقة مالية !

*

وعند ما حان أوان انصرافها ، راقبتها «ليا» وهى تجتاز الحديقة .. وهمست لنفسها : « أسرعى أيتها الشريرة .. ما أراك الا مشوقة الى بث سمومك لتعكير صفاء الزوجين المسكينين ! » .. وارتعشت مفاصلها كفرس ارهقه تسلق تل وعر .. وارتاحت الى الحرص الذى التزمته فى أحاديثها مع العجوز الخبيثة ..

وقضت ليلتها تلك مسهدة ، تتصور نفسها وقد استسلمت لموجة الكبر ، وأصبحت ولا تسرية لها الا الجلوس الى مدام بيلو ! .. واستعذبت التفكير فيما ينتظر ان يداخلها فيما بعد من حقد وخبث.. فهتفت فى أعماق **الليل من صميم الفؤاد : « آه ، ياشيرى ! .. كم هو غريب أن يكون فى فقدك عشيقتك العجوز ، وفى فقدانى عشيقى الشاب الفاجر ، حرمان لكلينا من أنبل عاطفة كانت لنا فى هذه الحياة ! »**

*

◆ **ومر** يومان .. كانا من أطول ما مر فى حياة « ليا » ، ولكنها تحملتهما فى صبر المريض اذ يعرف الالم للمرة الاولى .. حاولت أن تندمج فى حياتها الجديدة ، ولكنها ألفت نفسها تتخبط على غير هدى فى دياجير الوحدة والسأم .. وتحلم ـ كالمحموم فى هذيانه ـ بأن « شيرى » ولابد قادم اليها ! .. وكان الوقت يمضى متباطئا ، ممضا ، موحشا .. واخذت

تجوس خلال مسكنها كالهائمة وهى تناجى نفسها : « ما هذا ؟ .. ان اللحظة التى يهملنى فيها هذا الصبى لا يجب أن تكون لحظة انكسارى .. لقد عشت وحدى ستة شهور فى ميدى، فكنت اكسب فى كل خطوة مزيدامن المعجبين، حتى شعرت بقوى الشباب تعاودنى ..كنت كفتاة قبيحة تزوجت من أقبح رجل على وجه البسيطة ، فما أشقاها الزواج .. بل كانت كلما رأت دمامة زوجها أحست بأنها جميلة .. ولكن فراق شيرى أوجد فى حياتى فراغا موحشا .. أواه ، اننى الآن فى الخمسين ، وقد استأثرت به سبع سنوات، فغدا جزءا من حياتى ! .. كان من الخطأ أن أتشبث فى مثل سنى بفتى سبعة أعوام .. »

وارتاحت اذ اكتهل الليل ، وآبت الى مخدعها .. كانت تتمنى أن تجد فى النوم ملاذا من السأم .. وراحت تخلع ثيابها حتى غدت عارية .. وانعكست أضواء الحجرة الوردية على جسدها .. وفى نشوة ، طرحت على البدن العارى رداء خفيفا وهى تقول : « كل هذه ترهات .. الى الفراش ياسيدتى، فقد فر عشاقك الى حيث لا رجعة ! » .. **وتحولت الى فراشها .. وفيما هى تهم برفع الاغطية الناعمة ، دوى فى البيت رنين جرس الباب الخارجى ، فهتفت مختنقة : « أى شيطان !؟ » .. ولكنها بترت سؤالها ، ووقفت فاغرة فاها ، ممسكة بأنفاسها، ورنين الجرس يتوالى ويزداد عنفا.. وهرعت تنثر بعض « البودرة » على وجهها اذ سمعت صوت الباب الخارجى يفتح ، ويعقبه وقع قدمين يجتازان الحديقة ويصعدان السلم.. ثم صوت وصيفتها مع رجل .. ثم باب مخدعها يفتح فى عنف !**



.. ورأت أمامها شيرى ، فى ملابس السهرة ، شاحب الوجه ، تنذر عيناه بالشر والوعيد .. واستند الى الباب ، وعيناه تكتسحان كل ركن فى الحجرة، كما لو كان يبحث عن عدو كامن متربص .. وبقدر ما كانت « ليا » لا تفكر الا فيه ، فانها فى هذه اللحظة لم تحس غير الاستياء الذى يداخل

أية امرأة يقتحم مخدعها غريب وهى شبه عارية .. وبادرت تضم أطراف ثوبها حول جسمها .. ثم استعادت هدوءها فقالت :

ـ ما أبدعها من طريقة لدخول البيت .. كان ينبغى على الاقل أن ترفع قبعتك وأن تلقى تحية المساء !

وبدأ يتمالك نفسه ، وانطلقت من عينيه شبه ابتسامة حومت على فمه، فرفع قبعته وقال فى تلطف : « مساء الخير ! » .. ثم ألقى بنفسه على مقعد .. وجلست هى على مقعد بعيد عنه ، تقرض أظفارها .. وأشعل شيرى سيجارة .. ولم ينبس ببنت شفة ، بل غض بصره .. وانهمكت « ليا » تطلى أظافرها ، وهى ترمقه من آن الى آخر بنظرة خاطفة .. وضاقت أخيرا بالسكون فقالت : « أتسمح لى بأن أسألك عما اذا كنت تعتزم أن تطيل المكث أكثر من هذا ؟ .. وما الذى دعاك الى أن تبيح لنفسك المجىء الى بيتى فى منتصف الليل ؟ »

ونهض فدفع المقعد بعنف وسار نحوها .. وأحست به ينحنى فوقها كما لو كان يهم بأن يضربها ، ولكنها لم تتراجع أو تنكمش .. وقال : « ألا تعرفين لماذا عدت ؟ » .. وخلع معطفه فطوح به على أريكة ، ثم صاح فى وجهها بلهجة الغازى المظفر : « جئت عائدا الى بيتى ! » .. وهدأت دقات قلبها المنفعل ، وشاءت ان تلعب دورها كما لعب دوره ، فنهضت قائلة :

ـ ولم لم تستشرنى ؟ .. كيف لم يخطر ببالك أنك بقدومك الى هذا البيت ستسىء الى .. الى شخص ما ؟

فسرح بصره فى الحجرة وهو منكس الرأس ، ثم قال : « ألم يأت بعد سيد البيت ؟ »

ـ ليس هذا من شأنك ..

فعض شفته .. ثم انصرف الى تأمل خاتم ذى زمردة بديعة ، وما لبث أن قال : « ما .. ما هذا ؟ .. من أهداكيه ؟ »

فأعادت اليها لهجته كل سلطانها على نفسها ، وأثارت رغبتها فى الاستمتاع بمزيد من الزهو ، فقالت : « لا أحد كما تعرف .. ان الكل يطرون ذوقى فى اختياره »

فدق المنضدة فى غضب وصاح: «كفى!» .. وهوت كوب على الارض ولكنها لم تتحطم .. وظلت « ليا » جالسة وقد أولته ظهرها ، بينما بقى هو واقفا ، فاغرا فاه .. ثم جلس .. وارتبكت «ليا» اذ أحست بنظراته تلهب ظهرها ..ونهضت الىمنضدة الزينة فأصلحت من شعرها ، وفتحت زجاجة عطر يحبه ، فهتف : « نونون ! » .. ولم تجب ، فعاد يهتف بالاسم المدلل ، فقالت : « استغفر أولا » ..

واذ سألها الصفح ، ربتت رأسه فى رفق ، فارتجف .. وقال : « ليس ثمة غموض .. لقد عدت .. هذا كل ما هناك ! »

واقترب بمقعده .. وتسارعت لهثاته .. ثم ارتمى عند قدميها ممسكا بساقيها .. وتشبثت بمقعدها تاركة اياه يناجيها والدموع تنساب من عينيه: « نونون ! .. أيتها الحبيبة ! .. لقد وجدتك ثانية .. كما كنت .. لم يتغير فيك شىء .. أواه ، يا حبيبتى ! »

واحتواها بين ذراعيها وهو راكع ، ورفع اليها عينيه وما زالت الدموع تندى شفتيه .. و «ليا» ترمقه مسحورة وقد نسيت كل شىء .. وطوقت عنقه ، وراحت تهزه فى حنان مغمغمة : « أيها الحيوان .. أحقا عدت .. ياجميلى المدلل ! »

وانبعثت منه أنة والهة ، والصق خده بصدرها .. وأفلتت منها ضحكة عالية ، اذ أوشكت أن تستسلم ، ولكن رغبة ماكرة أوحت اليها ان تطيل من حرمانه ! .. وسادتهما فترة صمت لم يسمع خلالها غير زفيف الريح ، وزقزقة الطيور وقد هزها تألق البدر .. وقالت «ليا» أخيرا فى اشفاق : « شيرى .. أنائم أنت ؟ » .. فتنهد فى ضنى وقال : « لا يانونون .. اننى فى سعادة لا يحلو لى معها نوم .. لقد انتظرت طويلا أرقب الدار .. أردت أن أتأكد من ان ليس ثمة شخص آخر ! »

ولم تستطع ان تكتم الضحك .. أكان يعقل ان تتخذ عشيقا آخر طالما كان هو على قيد الحياة ؟ .. ما أغباه ! .. وانحنى وهو يدفع رأسها الى ظهر الاريكة .. وأحست بأنفاسه تلهب جفنيها ، فلم تحاول الخلاص .. وأحست بدوار وغيبوبة تحت نظراته المفعمة بالغيرة .. وعاد يقول : « قولى .. ألك عشيق آخر ؟ »

وأجابت أخيرا : « لا .. لا عشيق سواك .. اننى أحبك »

وراحت تدفعه عنها كلما اقتــرب .. كانت تدرك انها لن تلبث أن تستسلم ، ولكنها حاولت ان تقاوم .. وخارت قــواها أخيرا ، فأمسكت بذراعيه ، وانخرطت فى البكاء وهى تتهالك على مذبح الحب !

وأحست بوجيب قلبه ينتظم مع وجيب قلبها .. ورانت على مشاعرها غيبوبة عذبة .. وهتف فؤادها : « انه هنا .. للأبد ! »

*

وأنستهما السعادة كل شىء .. وبدءا فى الايام التالية يفكران فى الفرار من باريس الى حيث لا يعرف لهما مخلوق مقرا .. وكانت «ليا» تحدثه عن التدابير التى سيتخذانها ، وهو صامت ، يرمق قسمات وجهها المشرق

بالفرح والسيطرة ، ويسائل نفسه عن سر سعادتها ؟ .. وقالت أخيرا : « ألا تنبس بكلمة .. ألا تبدى رأيا ؟ .. لسوف تظل عمرك ذاك الغلام ابن الثانية عشرة ! »

فمر بيده على جبينه وقال : « سأبدو فى عينيك فى الثانية عشرة .. أما فى عينى سواك فأنا فى الخمسين »

واختلجت عيناها كأنما صدمت كلماته أجفانها .. واصطنعت ضحكة تخفى بها ما داخلها من توجس ، وقالت : « ولكن مظهرك الصبيانى نصف سحرك وفتنتك .. وسيكون فيما بعد سر شبابك الخالد الذى لا يتداعى للكبر .. ألديك شكاة ؟ »

فأمسك بيديها ، وأبرقت عيناه وقال : « نونون ، ياحبيبة القلب .. لست أشكو من نفسى فحسب .. بل وأتهمك أنت .. »

ولم تكن بالغبية ، ولم تكن تجاربها فى الحياة هباء .. أدركت ان العينين اللتين شهدتا الشباب فى غيابها ، لم تغفلا ما بدأ ينال منها من آثار الكبر .. وحاولت أن تصطنع الغضب كعادتها كلما أرادت ان تخمد ثورة تعتمل فى نفسه .. لكنه رفع يديها الى شفتيه فانهال عليهما تقبيلا ، ثم ألصق بهما خده ، وتمتم : « نونون .. يا فتاتى المسكينة ! »

ولذعتها اللهجة الرائية .. وكادت تنفجر باكية. لولا ان تمالكت نفسها فصاحت : « اذن ، فأنا الآن محط رثائك ومبعث أساك .. فلماذا كنت تبغى اتهامى منذ لحظات ؟ »

وهم أن يستغفر لذنبه ، ولكن القلق والاستغراق والهواجس التى تبدت لها فى عينيه ، أثارت شجونها ، وأوحت اليها بأن اللحظة التى كانت تتحاشاها قد حانت ، فقالت : « لست أرى كيف يتسنى لمخلوق يستمد قوته من ضعفه ، أن يقلب حياة امرأتين .. أتظننى لا أفهمك .. انك مولع بالتنقل .. كنت بالامس فى « نويى » .. واليوم هنا .. فأين تكون غدا ؟ .. ان هذا الوجه لا يستطيع ان يغرر بامرأة ، ولو كانت أكثر منى غفلة وسذاجة .. بل حتى هذه المرأة .. حتى زوجتك .. لن تجدها دائما هناك اذا فكرت فى متعة العودة الى البيت الآخر .. ان المرء لا يعرف يا عزيزى كيف يكتسب الزوجة .. وهو أكثر جهلا بوسائل فقدها .. أتظن أن أمك تستطيع أن تحبس زوجتك فى البيت ؟ .. دعنى أتكلم !.. أتظن أنك تخيفنى ؟ .. انك تريد أن ترتشف من منهل المتعة وفق أهوائك ! .. وأن تستغل حب امرأتين لتتنقل بينهما كما يحلو لك .. ولكنك لن تلبث أن ترى كيف تقلب ابنة مارى لور آراءك .. »

وأمسك بذراعها فى قسوة ، فأفلتت منه .. ودار حول المائدة وهو يرتجف انفعالا ، وصاح : « صه ! .. أحذرك من المضى .. لا غيرة على

ادميه ، وانما اشفاقا من أن تشوهى نونون التى عرفتها وأحببتها .. لقد عرفتك ياحبيبتى رقيقة ، لطيفة ، فهل تنقلبين امرأة كسائر النساء اذا وجب علينا أن نفترق ؟ »

.. فأخفت وجهها فى راحتيها وقالت : « لقد كنت ناعمة بوحدتى .. فلم جئت ؟ »

رفع ذراعيه ثم تركهما تتراخيان فى قنوط وقال : « لاننى لم أقو على الحياة بدونك » ! .. وراح يحدثها عن اللوعة والضنى اللذين كان يعانيهما فى شهور الفراق .. كان قد اعتاد وجودها الى جواره فى الحياة ، فكانت فى عينيه مثلا أعلى لكل النساء ! .. وأردف وقد تبدى له فى غمرة الضوء وجهها الفاتن ويد الكبر ترسم عليه التجعدات : « وهكذا عدت بعد شهور قضيتها فى أتعس حياة ، لكى .. » ، وأمسك مترددا ، فأتمت له القول فى هدوء : « لكى تجد امرأة عجوزا .. قلها ياحبيبى .. مم تخشى ؟ »

.. وأحاطت كتفيه بذراعيها ، فأجهش بالبكاء .. وحاول أن يتملص .. فمست بوجنتها شعره قائلة : « أكنت حقا أثيرة بحبك ، حتى فى هذه السن التى تنزوى فيها كل امرأة عن الحياة ؟ .. كم أنا شاكرة لك ياطفلى المسكين ! .. اننى لأزهو بأننى جعلت منك رجلا ، بدلا من أن أقصر تفكيرى على متعة جسدينا .. أحقا كنت ترانى مثلا أعلى للنساء ؟ .. يا للحسرة .. لكنى لم أكن كذلك ، اذ ما كنت لأجرؤ من قبل على تسريحك من أحضانى .. ولكن الفرصة فاتت الآن يا حبيبى ، فانتبه ! .. لا تجفل من النظر لى ، فأنا رغم كل شىء ، المرأة التى أحببتها وجعلتها مثلا أعلى .. كنت يا أعز الناس أشفق على الفتاة التى دفعوا بها الى أحضانك .. ولكنك انفصلت عنى متأخرا يا طفلى المفسود.. ان عليك الآن تبعات ثقالا ، وأنا مسئولة عن كل ما ينقصك لتحمل هذه التبعات ، فبسببى ما زلت ـ فى الخامسة والعشرين ـ أرعن مدللا .. حزينا ! .. اننى قلقة لكل هذا .. ستسبب الضنى لغيرك .. ولنفسك ! »

وأحست بأظافره تغيب فى بشرة صدرها ، ولكنها لم تحفل ، بل مضت تقول : « أنت يا من أحبنى .. لست أدرى كيف أجلو لك ما بنفسى .. أملى ، اذا ما شعرت بأنك توشك أن ترعب الطفلة التى ألقوا بها الى أحضانك، أن تبتدع كل ما لم أعلمكه من فنون لتهدىء روعها ، ولتحتفظ بها .. اننى لم أعدك للمستقبل ، فاغفر لى .. أحببتك حبا صور لى أننا سنموت فى لحظة واحدة .. وكنت قد بدأت أنهار ، اذ ولدت قبلك بأربع وعشرين سنة ، فكنت أجتذبك معى الى الهاوية .. أتتصور أن فى وسعنا أن نظهر فى المجتمعات العابثة الآن ؟ .. اننى أسير نحو النهاية ككل مخلوق

اكتهل ، فأسرع أيها الطفل وانقذ شبابك الذى كدت تعدمه بين ذراعى غانية عجوز .. انقذ شبابك للفتاة التى تنتظرك ! .. ولئن كانت لذة شبابها لم ترق لك فى البداية ، فلانك تذوقت متعة الكبيرات المجربات ، فلم تستعذب سذاجة الصبا ! .. انك لم تفكر فى المقارنة بينى وبينها منذ الليلة الماضية فقط.. كلا.. بل قارنت بيننا منذ أدخلتها الى حياتك ، وقد جاء الآن دورها لتجزع وترتجف .. لن يكون عذابها عذاب الام التى أفسد التدليل ولدها فهجرها ـ كما هو عذابى ـ ولكنه عذاب الحبيبة تخشى الحرمان من حبيبها .. فانها تحبك ، وفى وسعك أن تتسلط عليهـا وأن تسودها . ان تكون لها سيدا ، لا عشيقا ماجنا كما كنت لى .. اسرع .. اننى أحبك ولكن .. ولكنك تأخرت عن الوقت المناسب ! »

وكانت تخشى ان تضعف ، فراحت بنفسها تعد له ثيابه وتستحثه .. حتى اذا أغلقت الباب خلفه ، وسمعت خطواته تبتعد متعثرة ، هرعت الى النافذة .. ورأته يصل الى الحديقة ، فيقف عند بابها برهة .. واذ ذاك رفعت ذراعيها هاتفة : « انه سيعود .. سيعود ! »

وانتبهت الى امرأة عجوز تقلدها فى المرآة ، فساءلت نفسها : أية صلة بينها وبين هذه العجوز الكئيبة !؟

..وواصل شيرى سيره .. وأفلتت الستار من يد «ليا» وكانت تتشبث بها .. واستندت الى النافذة تشيعه ببصرها .. فاذا به يرفع رأسه يستقبل الربيع ، والسماء الصحوة، والنسيم المحمل بعبير الاشجار وأريج الزهور ..

ثم ينطلق .. كسجين يفر من سجنه !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمي
(التمثيلي... والغنائي)

عزيزي القارىء ...

قدمت لك في هذا الباب في الاعداد الماضيه المسرحيات العالميه الاتيه :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الآثم : تولستوى
نزاهه الحكم : جوجول
سلاح المراه : اريسوفان
فولبون : بن جونسون
جوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوريه اشيجاراى
مدرسه الفضائح . شريدان
سرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت: رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير : اوسكار وايلد
فاوست : جيته
اوديب الملك : سوفوكل
في سبيل الحب : جون درايدن
وليم تل : شيللر
الام : مكسيم جوركى
الملك يلهو : فيكتور هوجو
الذبيحة اندريه اوبيه
الجنس الآلى : كاريل كابيك
الابن الاكبر : جالزورثى
هرنانى : فيكتور هوجو
ترويض النمرة : شكسبير

واليوم أقدم لك هذه المسرحية الطريفة ، والعميقة : ((الحياة نفاق)) !


SIX CHARACTERS
IN SEARCH OF
AN AUTHOR
By
LUIGI PIRANDELLO
قصة تمثيلية كبرى
للروائى الإيطالى
"لويجى بيرانديللو"
الحياة نفاق!
(ست شخصيات
تبحث عن مؤلف)

المؤلف

(١٨٦٧ - ١٩٣٦)

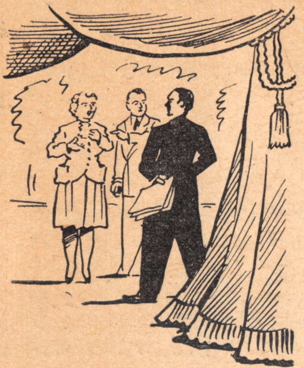
◆ « لويجى بيراندللو » مؤلف هذه المسرحية - واسمها الأصلى « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » - من عباقرة المسرح المعدودين فى العصر الحديث ، وان كانت عبقريته قد نضجت فى سن متأخرة. ولد فى صقلية ، وحين بلغ طور الشباب رحل الى روما حيث اشتغل مدرسا فى احدى المدارس العالية للبنات، لكنه عكف فى أوقات فراغه على التعمق فى دراسة الأدب ، حتى خرج من دراسته بفلسفة خاصة تتلخص فى عبارة واحدة هى « ان الحياة مهزلة محزنة ! » .. وعند بلوغه سن الخمسين قرر أن يترجم فلسفته الساخرة الى مسرحيات خلابة ، كتب أولاها فى سنة ١٩١٧ .. وسرعان ما أصبح المعلم المغمور ، بين عشية وضحاها ، مؤلفا مسرحيا ذائع الصيت ، يمزج حكمة سقراط بالفكاهة المستملحة ، ويمتاز بالأفكار الغريبة والعقد المبتكرة ، مما رفعه الى مصاف الأدباء العالميين .. ورغم أنه بدأ حياته الأدبية فى تلك السن المتأخرة ، فانه أنتج عشرات من الدرر المسرحية والقصص الطويلة والقصيرة التى من أشهرها هذه المسرحية التى أقدمها لك فيما يلى :

- ١ -

◆ **عندما** يخلق المؤلف فى قصة من قصصه شخصية ما ، هل يستطيع التحكم فى أفكار هذه الشخصية والسيطرة على تصرفاتها وأفعالها ؟ .. أم تستقل الشخصية بنفسها فتفكر كما يحلو لها وتفعل أشياء لم تخطر على بال مؤلفها ؟

.. أو بعبارة أخرى : هل يصبح المؤلف سيد شخصياته ، أو تصبح الشخصية سيدة مؤلفها ؟

ترفع الستار عن الفصل الاول ، فاذا فرقة تمثيلية منشغلة باجراء تجارب مسرحية فكاهية .. ثم يقطع « البروفة » دخول ست شخصيات هى : الاب .. والام .. وابنة الزوجة .. والابن .. والصبى .. والطفلة .. وقد جاءوا جميعا يبحثون عن مؤلف يدمجهم فى رواية محبوكة :



الاب (الى مدير المسرح) : اننا نحمل فى أشخاصنا قصة دراما رائعة ‥ اعطنا مؤلفا ، نعطك ثروة !

المدير : لكن هذا يبدو أمرا جنونيا ‥

الاب : انه بالفعل كذلك ، لكن كل دراما جنون ‥ انها تجعل الحياة وهما ، والوهم شبيها بالحياة ‥ فهل هناك جنون أكثر من هذا ؟

ابنة الزوجة : أوجد لنا مؤلفا يا سيدى ٠ نحن جماعة من الشخصيات الجذابة ، خذلنا المؤلف الذى خلقنا فتركنا فى منتصف الرواية !

الاب : ونحن نبحث الآن عن مؤلف يتم روايتنا ‥

المدير : ولكن لا يوجد هنا مؤلف ‥

الاب : اذن لماذا لا تحاول أنت أن تكون مؤلفنا ؟

المدير : هراء ‥ ولكن قولوا لى ، ما هى الصلة بينكم ؟

الاب (مشيرا الى الام) : هذه المرأة زوجتى ‥

المدير : اذن فلماذا تلبس ثوبا أسود ؟

الاب : لانها أرملة

المدير : ماذا تقول ؟ ألست أنت زوجها ؟

الاب : انها ترتدى الحداد على عشيقها ، وهذه هى مأساتها !

ابنة الزوجة : نعم ، هذه هى مأساتها ، ومأساتنا نحن ‥ وهذا الشخص (**مشيرة الى الابن**) هو ابنها الشرعى الوحيد‥ أما بقيتنا (**تشير الى نفسها والى الصبى والطفلة**) فنسلها غير الشرعى ‥ والدنا كان عشيقها !

الام : وهو الآن قد مات ..

الاب : بينما عادت الام ـ أقصد زوجتى ـ الى بيتى تجرأطفالها غير اشرعيين

الابن : وانا لا أريدهم هنا . لا أريد أن تدخلونى فى هذه الروايه

الاب : أوه ، انك قد خلقت وانتهى الامر ، ولا مفر من بقائك معنا سواء أردت أم لم ترد !

الابن : ان الامر كله يدعو الى الاشمئزاز ..

ابنة الزوجة : وخاصة ذلك الحادث الذى وقـــع فى بيت « مدام بيس » ذى السمعةالمريبة !

الابن : حيث حاول أبى أن يدفع لك (**مشيرا الى ابنة الزوجة ـ أخته**) المائة ليرة !

الام : يا للعار .. ابنتى .. يا للعار !

المدير : لست أفهم شيئا ..

الاب : دعنى أحاول ايضاح الامر لك . كان يعمل فى مكتبى موظف ما ، لم يلبث أن وقع فى هوى زوجتى ، وبادلته هى الحب .. ففصلته من خدمتى ..

الام : ثم طردنى أنا من البيت ..

الاب : عن جدارة واستحقاق . لقد طردتها من البيت كى تغدو حرة فى الذهاب مع حبيبها . ان وقارى لم ..

ابنة الزوجة : لا تضحكنى بالحديث عن وقارك .. أنت الذى كنت دائم التردد على بيت « مدام بيس » !

الاب (للمدير) : هذا الذى تقوله هى صحيح .. لكنه انما يثبت أننى انسان من البشر .. شخص حى ، لا شـــخصية خيالية من شخصيات القصص .. بغير روح !

المدير : حسنا ، امض فى قصتك ..

الاب : ومن ثم ذهبت زوجتى وعشيقها الى بلدة أخرى .. حيث أنجبا هؤلاء الابناء الثلاثة

ابنة الزوجة : وعندئذ ·· عندما مات أبى ··

الاب : تعنين عشيق أمك ··

ابنة الزوجة : عندما مات أبى عدنا الى هذه المدينة ، حيث كدنا نموت جوعا ··

الاب : لو أنهم أخبرونى أنهم فى فاقة لساعدتهم ··

الام : لم أخبره لانى لم أتوقع أن يعبأ بذلك ··

الاب : الامر الذى يظهر انك لم تفهمينى يوما على حقيقتى ··

ابنة الزوجة : وعندئذ ، لكى أنقذ الاسرة من الموت جوعا اضطررت للتردد على بيت مدام بيس !

الام : مدام بيس هذه صانعة قبعات للطبقة الراقية ، تبيع قبعاتها للنساء المثريات ··

الاب : وتورد نساء للرجال الاثرياء !

الام : وقد اشتغلت أنا بائعة عند مدام بيس ، وكنت أعتقد أن ابنتى أيضا لم تكن تعمل عندها الا بائعة قبعات !

المدير (بصبر نافد) : امضى فى قصتك ·· أرجوك ··

الاب : وذات يوم قابلتها **(مشيرا الى ابنة زوجته)** عند مدام بيس !

ابنة الزوجة : يا له من موقف « درامى » رائع !

الاب : ثم فاجأتنا الام ··

ابنة الزوجة (فى خبث) : فى الموعد المناسب ··!

الاب : بل فى أسوأ وقت !·· وبعد ذلك أخذت العائلة كلها معى ، حيث كفلت لهم بيتا ··

ابنة الزوجة : ليس بيتا ، بل مجرد مأوى ·· فان ابنه هذا صار ينظر الينا كدخلاء ، جاءوا ليزعجوا المملكة « الشرعية » ! وان تصرفه هذا غير المحتمل ، هو الذى أغرانى بأن أتحداه ، وأحالنى من ضيفة لابيه الى ·· خليلة !

الابن (للمدير) : انك يا سيدى تستطيع أن تفهم مركزى بسهولة ·· اننى لا أمت الى هذه الدراما بصلة ·· فأتوسل

اليك أن تدعنى خارج هذه الشبكة القذرة كلها ..

الاب : ولكننا لا نستطيع أن ندعك خارجها .. فأنت أهم وأقوى حلقة فى السلسلة كلها .. ان ترفعك وقسوة قلبك هما اللذان سيؤديان بالماساة الى غايتها .. انك تحتقر أمك وتشمئز من أختك وتضطهد الصبى والطفلة الصغيرين حتى تسبب فاجعة الصبى ووفاة الطفلة !

المدير : ان القصة قد بدأت تصير مثيرة وشائقة .. وفيها بذرة مسرحية لا بأس بها

الاب : لماذا لا تجعل نفسك مؤلف هذه الدراما ؟

المدير : انى لم أكن مؤلفا فى يوم من الايام ..

الاب : اذن ابدأ الآن ، بهذه المسرحية .. سوف تكون مهمتك سهلة .. سنمثلها نحن منظرا منظرا ، وأنت تكتبها طبقا لما تراه أمامك ..

المدير : أعتقد أنها فكرة صائبة .. تعالوا الى غرفة مكتبى أنتم الستة ، ولنر ما أستطيع فعله ..

- ٢ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثانى فقد بدأ الستة يجرون تجارب الرواية ، وممثلو الفرقة أمامهم يحفظون الادوار التى تمثل على الخشبة .. لكن « البروفة » تجىء أروع من الرواية ذاتها ، لان الشخصيات الستة « يحسون » أدوارهم ، بينما ممثلو الفرقة يتخيلونها فقط !

الاب (وهو يراقب الممثلين) : لا ، لا .. هـذا يخالف ما نشعر به فى هذا الموقف .. انى معجب بتمثيلكم ، سيداتى سادتى ، لكنكم لستم « حقيقيين » .. انكم غيرنا نحن

ابنة الزوجة : انه محق . انكم لا تفهموننا .. فمثلا حين التقيت أنا بهذا الرجل **(تشير الى الاب)** فى بيت مدام بيس ، قلت له انى أرتدى الحداد على أبى .. فبماذا تحسبونه أجاب ؟

قال لى : « فلنضع حدا لهذا الحداد ٠٠ دعينى أساعدك فى خلع هذا الثوب ! »

المدير : ما هذا ٠٠ أتريدون أن يحدث هياج بين النظارة وثورة فى المسرح ؟

ابنة الزوجة : لكنها الحقيقة المحضة !

المدير : الفنان الاصيل لا يذكر الحقيقة بحذافيرها ٠

ابنة الزوجة (ثائرة) : عليك أن ترسم شخصياتنا كما هى ، لا كما يريدنا المجتمع أن نكون !

المدير : كونى معقولة ٠٠ ان الكاتب المسرحى لا يستطيع أن يفضح كل أسرار شخصياته ، وانما يجب أن ينتقى من بينها ما يصلح ، وأن يراعى شيئا من التحفظ ٠٠

ابنة الزوجة : حسنا ٠٠ اقتل أدوارنا اذا شئت ، لكنك لن تستطيع أن تقتلنا نحن ، بعواطفنا ونزواتنا وعارنا وندمنا واشمئزازنا !٠٠ استمر فى اخراج مشاهدك المصطنعة ، بضحكاتها الزائفة ودموعها المنافقة ٠٠ حاول أن تقلد موقفى حين أقبل هذا الرجل، وأنا مغمضة العينين، تاركة رأسى يغوص فى صدره ٠٠ هكذا **(تمثل الدور)** ٠٠ وفجأة تدخل أمى فتصيح به ٠٠

الام (مندفعة نحوهما لتفرق بينهما) : ابنتى !٠٠ دعها أيها الوحش ٠٠ ألا تعلم أنها ابنتى ؟

المدير : رائع !٠٠ بديع !٠٠ خير نهاية لهذا الفصل ٠

- ٣ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثالث، فقد تأهب الستة لاخراج الفصل الاخير من روايتهم ٠٠ وهو يجرى فى حديقة منزل الاب ، بعد أن انتقلت اليه الام وأبناؤها الثلاثة ٠٠ برغم معارضة « الابن » !

المدير : فلنبدأ تمثيل هذا الفصل الآن ٠٠ ولنر مدى نجاحنا فى تحويل الخيال الى حقيقة !

الاب : تقصد تحويل الحقيقة الى خيال ٠٠ اننا أشخاص حقيقيون ، وأنتم الوهميون ٠٠ ومع ذلك فان الشـــخصيات الحية تموت ، بينما شخصيات الروايات تعيش وتخلد !

المدير : هلا كففت عن فلسفتك وتركتنا نكمل الرواية ؟٠٠ انى لم أسمع من قبل بشخصية خيالية تخرج من دورها كى تلقى علينا خطبا وآراء لم يقصدها المؤلف ٠٠

الاب : ذلك لانك ما تزال مؤلفا هاويا ٠٠ بينما كل مؤلف عظيم يعلم أنه تحت رحمة شخصيات رواياته ، عليه أن يتبعهم حيثما ذهبوا !

المدير : انك على حق ٠٠

ابنة الزوجة : وماذا نفعل نحن الستة الآن ، بعد أن تركنا المؤلف الذى خلقنا فى نصف الرواية وأبى أن يتبعنا الى النهاية؟

الاب : الحل الوحيد الذى أمامنا أن ندع هذا المؤلف الهاوى يتم مغامراتنا ٠٠

ابنة الزوجة : ويا لها من مغامرات مريرة !

الاب : انتبه جيدا ، وأنت ترى

*

◆ **ويستأنف** الستة مأساة صلاتهم المتشابكة الغريبة حتى نهايتها المنطقية ٠٠ فنرى الاب والام يحاولان تصفية النزاع القديم الذى كان بينهما ، وايجاد نوع من « الانسجام » فى جو الاسرة ٠٠ أما ابنة الزوجة ، فهى ماضية فى موقف التحدى ! وأما الابن ، فهو ماض فى موقف القسوة التى لا تلين ٠٠ وأما أحق شخصيات الرواية بالشفقة والرثاء فهما الصبى والطفلة ٠٠ فان الصبى يراقب تصرفات أفراد الاسرة الكبار بادراك متزايد وفهم ينمو كل يوم ٠٠ وشيئا فشيئا ، تتأصل فى عقله جذور قرار رهيب ٠٠

المدير : وماذا كان هذا القرار ؟

ابنة الزوجة : فلندع الابن يحدثنا عنه ٠٠ فهو المســئول عن ذلك



الابن : دعونى وشأنى ٠٠ لا أريد أن أقول شيئا ٠٠ ان المؤلف الاصلى لم يرغب فى أن أتكلم ٠٠ لهذا أبى أن يضعنا فوق خشبة المسرح

الاب : لكنك مطالب بالكلام ٠٠ يجب عليك أن تتم الرواية الى نهايتها المريرة ٠٠ ولا يليق بك أن تنسحب ٠٠

الابن (يتراجع) : أخشى أن تكون على صواب يا أبى ٠٠ على كل حال ، ليس هناك شىء كثير يقال ٠٠ كنت أتمشى فى الحديقة ٠٠ واقتربت من النافورة ٠٠ واذا أنا ألمح الطفلة فى قلب الماء ٠٠ عدوت اليها مسرعا، وكنت على وشك أن أقفز كى أنقذها ، حين رأيت الصبى واقفا ينظر الى الماء — حيث أخته تغرق — بنظرة جامدة ٠٠ وعندئذ ٠٠ دوت فى الفضاء رصاصة بين الاشجار التى كان الصبى مختبئا بينها ٠٠ لقد انتحر ، ولحق بأخته !

الام (فى لوعة) : أولادى ٠٠ النجدة !

المدير (يهرع الى حيث رقد الصبى) : هل جرح ؟

أحد الممثلين : لقد مات !

ممثل آخر : لكن الامر كله خيال ٠٠ انه من خلق الانسان ٠٠ مجرد تمثيل ٠٠٠

المدير : تمثيل ؟ حقيقة ؟ ٠٠ انى لم أر فى حياتى مثل هذا ! ٠٠ الى الجحيم بالرواية كلها ٠٠ لقد أضعت يوما كاملا فى الاستماع الى هؤلاء المجانين ٠٠ يوما كاملا !

ستار

الجريمة.. والعقاب



المحاكمات الكبرى

فى الماضى والحاضر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة « جورجيت هودو » ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين «بيرك» و «هير» .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم «سقراط».. ومحاكمة «آن بولين» ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن، فمحاكمة «دريفوس» .. ومحاكمة «ستافسكى» .. ثم محاكمة «مرجريت فهمى» .. ومحاكمة ملك انجلترا «شارل الاول» واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. ثم محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات أثينا القديمة) .. وأخيرا « جريمة درب العشاق »

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه المحاكمة المصرية التى جرت وقائعها فى حى العباسية بالقاهرة ، والتى تلقى ضوءا على نفسيات «أبطالها» ومطامعهم وأهوائهم .. التى أودت بهم جميعا!

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله فى هذا الباب مزيدا من القضايا والمحاكمات الشائقة ، سواء من الغرب أو الشرق


جريمة حارة
عرض وتعليق

دراسة للغرائز !

◆ .. أما اليوم فأنا أقدم لك محاكمة من مصر ، بل من عاصمة مصر ، ومن حى ((العباسية)) بها .. بعد أن طفت بك فى المحاكمات السابقة بباريس ، ولندن ، ونيويورك ، وأثينا القديمة .. الخ

ففى ذلك اليوم من عام ١٩٤٥ دعانى صديقى الاستاذ أنور أحمد كى أحضر مرافعته - كممثل للاتهام- فى هذه المحاكمة التى تمثلت فيها، وفى آثام أبطالها ، معان وعبر لا حصر لها : تمثل فيها مكر المرأة المتصابية .. وطمع الشاب الجشع .. ثم تنكر الرجل لزوجه العجوز، وتحلب لعابه شوقا الى زهرة ريانة العود .. ثم الغيرة ، الغيرة القاتلة التى تأكل الصدر ، حتى تفضى الى القبر ! .. والغيرة من طبعها الانتقام .. والفزع من الانتقام يغرى فريسته بالفرار منه بأية وسيلة .. ولو بالجريمة !

.. ومن هنا كانت هذه المحاكمة التى خرجت منها يومئذ لأعكف على أوراقها أستخرج منها هذه الصفحات :

معرض الاحياء !

◆ ميدان باب الخلق .. صباح الاربعاء ، ٢٨ مارس سنة ١٩٤٥

دار محكمة مصر ، بواجهتها الصماء وأبهائها الفسيحة ، تستقبل - ثم تبتلع فى جوف قاعاتها الكبيرة - أفواج الوافدين عليها ، من مختلف الطبقات والاجناس : قضاة ومتقاضين .. متهمين ومحامين .. شهودا ومتفرجين .. رجالا ونســاء ، وأطفالا على الاكتاف .. حضريين وقرويين وريفيات .. طرابيش وعمائم وقبعات ! .. أجساما اكتنزت شحما ولحما ، وهياكل عظمية خاوية .. أناسا فى ثياب أنيقة معطرة ، وحفــاة فى أسمال بالية .. شبابا يصعدون السلالم قفزا ، وشيــوخا يتوكأون على عكازات .. وجوها نضيرة متفتحة للحيــاة ، وأخرى شاحبة خطف لونها المرض ، أو الخوف ! .. عيـونا ضاحكة مستبشرة ، وعيونا ذابلة أطفأت بريقها الايام .. أو الاحزان !

٠٠ خليط عجيب من الصور والنفسيات ! منهم من جاء يسعى للخير ، ومنهم من جاء يضمر الشر ! ٠ ٠ هذا يطلب التبرئة ، وذاك يلح فى طلب العقاب ٠٠ هذا ينتصف للفرد من المجتمع وذاك ينصف المجتمع على حساب رقاب العباد ٠٠ واحد يهيىء لسانه ليشهد بالحق ، وآخر يلوك فى فمه شهادة الافك والزور !٠٠ هذا يفك حبال المشانق عن الاعناق ، وذاك يفتل للمذنبين الحبال !

٠٠ أتوا من كل صوب وفج ، لكى يلتقوا فى ساحة المحكمة، فيخلع بعضهم على عتبتها قناع الزيف ٠٠ ويرتديه البعض !

فى الخارج يكون بينهم الظالم والمظلوم ، والمعتدى والمعتدى عليه ، والمذنب والبرىء ٠٠ أما فى الداخل فكلهم مظلومون ، مغبونون ، أبرياء ٠٠ فى عرف أنفسهم !

أما فى عرف القانون فبقدر اختلاف النفسيات والسرائر تختلف المصائر ! هذا يدخل مكبلا ٠٠ ويخرج حرا ٠ وآخر يدخل طليقا ، ويخرج مسوقا الى السجن ! ٠٠ وثالث يقبل مقرح الجفون ، فيعود متهللا ٠٠ ورابعة تدخل مزغردة فتخرج مولولة ٠٠ أو العكس !

٠٠ والمحكمة تستقبلهم جميعا بنفس الواجهة الصماء ، والطلعة الجامدة ، الصارمة ، التى لا تنم عن شىء ٠٠ ولا تنبىء، أو تعد ، الا شىء واحد : هو أن العدالة ساهرة على حقوق الناس ـ فى الارض كما فى السماء ـ ترعاها فى غير مراعاة، أو محاباة ! ٠٠ قد تعرف الابطاء ، ولكنها لا تعرف الاغضاء٠٠ فانها دائما ٠٠ للكل بالمرصاد !

*

♦ فى ذلك الصباح كانت دار العدالة قد فتحت صدرها لهذا الخليط من الوافدين ، فبدأت تدب فى ممراتها الاقدام ، وتتجاوب فى بهوها الكبير صيحات السعاة والحجاب ، تمهيدا لافتتاح الجلسات٠٠ حينما أقبل على بابها، يسعى بين اثنين من

الجند ، شيخ مهدم فى ثياب السجن ، حافى القدمين ، مكبل بالحديد . كانت مشيته المتخاذلة ، ولحيته الطويلة البيضاء ، ونظراته الكليلة ، وبصره المنطفىء .. تضفى كلها عليه مسحة من وقار المسنين ، وتلقى فى روع الناظر اليه انه قد جاوز « الستين » ، بسنوات .. وهو فى الحقيقة فى الخامسة والاربعين !

.. وجلس في قفص الاتهام ، ساهما ، شاردا، كالمذهول.. ينتظر بين لحظة وأخرى انتهاء المحكمة من نظر الجناية المعروضة ، كى تنطق بحكمها فى قضيته ، بعد أن سمعت أقوال الشهود ومرافعة الدفاع فى جلسة سابقة . ولكن أية مرافعة ؟ لقد همس له الجندى الموكل بحراسته ، مشجعا : « شد حيلك يا عبد الحليم.. المحامى اتكلم كويس ، وربنا برضه موجود ! » فأجاب فى حشرجة خافتة : « أنا ماسمعتش حاجة ما فيش محاميه اكلموا » !.. رغم أنه لم تكن مضت على جلسة المرافعة غير أربعة أيام .. ترى ، أفقد الرجل وعيه ، أم كان يتصنع الذهول ، كما تصنع الورع والصلاح منذ أطلق لحيته عقب القبض عليه ؟

وطال نظر القضية الاخرى .. وانشغل الجميع بتتبعها، حتى هو ، كان ينسى نفسه أحيانا فيبدو عليه أنه منصت لما يقال ، ثم لا يلبث أن يتنبه الى أن تلك القضية لا تعنيه ، وأن قضيته تكفيه .. فيسترد محياه مسحة الهم الدفين !

وأخيرا انتهت القضية ، فخلت المحكمة للمداولة .. وطلب الرجل سيجارة ، راح يدخنها وأصابعه ترتعش ، وبصره الاعشى يطوف بالنظارة ، فيلتقى بنظراتهم التى يكاد أن يطفر منها الرثاء ، والفضول ! انهم مثله ينتظرون سماع الحكم فى قضيته، ويهمسون بعضهم لبعض شتى الخواطر والتعليقات، ولكن الفارق شاسع بين انتظار وانتظار : ان القضية بالنسبة لهم تسلية وملهاة .. أما بالنسبة له ، فهى موت .. أو حياة !

وأعيدت الجلسة ، فأمسك رئيس المحكمة ـ الاستاذ محمود منصور ـ بالورق ، وتوجه الى المتهم ، شارحا له قبل النطق بالحكم ، مبرراته ، وحيثياته ، الانسانية لا القانونية ٠٠ ثم معقبا على الشرح بالنص :

« بناء عليه ٠٠ حكمت المحكمة بالنسبة للمتهم عبد الحليم عطية يوسف ب ٠٠ الخ »

ولنعد الى الوراء !

البيت رقم ٢٨

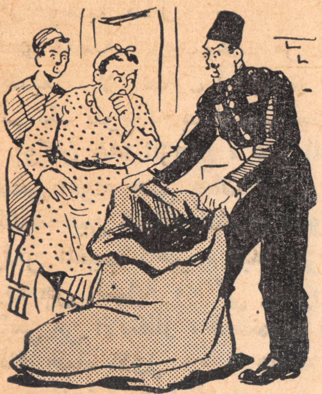
ليلة ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣

◆ **هبط** الظلام على أزقة ذلك الحى المتواضع من أحياء العباسية ، واشتدت وطأة البرد ، فبدأ دبيب الحياة يخفت فيه شيئا فشيئا ، ووقع الاقدام يخف بالتدريج ـ فان الليل والنعاس غالبا ما يترادفان في أمثال هذه الازقة ! ـ وبدأ الصبية يفضون حلقات لهوهم ، ويتفرقون الى عدد من الدور المتلاصقة المتساندة ، وقد اصطكت أسنانهم ، ولسع البرد أكتافهم العارية المطلة من « نوافذ » جلاليبهم الممزقة ، وخوى وفاضهم من المليمات القليلة التى انتقلت من جيوبهم الى بائع (الكشرى) القائم دكانه عند ناصية الحارة ٠٠ فأخذ هو الآخر بعد رحيلهم يتأهب « للتشطيب » ٠ وبدأت مصابيح الحارة تنطفىء واحدا واحدا ، تاركة اياها بين براثن الظلام ، غارقة فى الوحشة !٠٠ وبين وقت وآخر كان ينعطف الى الحارة شبح أحد قاطنيها ، عائدا من عمله ، أو من « القهوة » القريبة، فلا يلبث أن يختفى داخل أحد الابواب ٠٠

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة من ذلك المساء ، حينما دخل باب البيت رقم ٢٨ بعطفة التونى ، اثنان من قاطنيه : كان « ربيع عبد الغفار على » ـ الفراش بالجيش البريطانى ـ و « فتحى ماهر سليم » ، النسفرجى « المولود بأسوان » ! ،

عائدين من المقهى الذى اعتادا قضاء الامسية فيـــه ٠٠ الى غرفتهما ، الغرفه الوحيدة التى يتكون منها الطابق الثالث لبيت ٠٠ وصعد الاثنان يتحسسان طريقهما على الضوء الخفت لمصباح البترول المعلق فى (بئر السلم) ٠٠ حتى بلغا الطابق الثانى لفت فتحى زميله الى رائحة كريهة كانت تنبعث منه ، فوافقه هذا ، لكنهما واصلا الصعود مرجئين الامر الى الغد ٠ وفى الصباح المبكر ، لاحظ كل منهما عند خروجه الى عمله أن الرائحة قد فاحت أكثر من الامس ٠٠ ثم تكررت الملاحظة عينها عند عودتهما فى المساء ٠٠ وصارت الرائحة خانقة لا تطاق ، فتشاورا فى الامر مع جاريهما « لطيف مسعد عبد النور » و « نجيب سعد عبد النور » اللذين يتقاسمان غرفة الطابـــق الرابع ، فعزز هذان شكواهما ، وتبادل الاربعة الشكوك ٠٠ فقال لطيف انه لا بد أن تكون فى غرفة الطابق الثانى « حاجة ميتة » لم تتنبه لها ساكنتها ـ مالكة البيت ـ قبل سفرها منذ أيام الى كوم حمادة لحضور قضية لها ٠٠٠ كما أنه ليس غريبا ألا يكون قد تنبه للرائحة زوجها أو زوجته الاخرى التى تقطن معه غرفة الطابق الاسفل ، فانهما بدورهما غائبان عند شقيق الزوج فى اتياى البارود ٠

٠٠ وذهب « ربيع » الى قسم الوايلى لاتخاذ الاجراءات اللازمة لكسر الباب واخراج « الشيء الميت » ، فانتقل معه الى البيت كل من الملازم الثانى احمد حسن الصبان ، وشـــيخ الحارة عبد الله الشلبى ، وعسكرى الداورية عبد المجيد شلش ٠ ويقول أولهم فى محضر الانتقال : « وتأكدنا من أن الرائحـــة الكريهة منبعثة من الحجرة التى تقع بالدورفوق الارضى ، وهى التى تسكنها المدعوة حسنة بسيونى عبده صاحبة المنزل ٠ فعالجنا فتحها ، ولما دخلناها وجدنا فى وسط أرضيتها ثلاث جوالات داخل بعضها وبداخلها جثة آدمية ملفوفة فى ملاءة من القماش ٠ وبمعاينتها وجدنا الجثة ينقصها الجزء العلوى بأكمله بما فيه



الرأس والذراعان . ووجدنا قدميها مقطوعتين من الركبة وملفوفتين فى قطعة قماش أخرى بداخل الاجولة ، ووجدنا الجثة فى حالة تعفن رمى شديد ، ولاحظنا وجود بقع دموية بالجوالات كما وجدنا بالحجرة سريرا ودولابا وبوفيه وبضعة كراسى .. ووجدنا الدولاب مغلقا والسرير فى حالة غير منتظمة ، ولم نشاهد آثارا أخرى تفيد التحقيق .. الخ »

.. وتولى الاستاذ « أنور أحمد » ، وكيل نيابة مصر وقتئذ، دفة التحقيق

*

◆ منذ عشرين سنة ، كانت حسنة بسيونى عبده قد جاوزت الخمسين وتقلبت فى الحياة .. تزوجت أكثر من مرة ، ولكن فى كل مرة كان زوجها يطلقها أو يموت ، دون أن تنجب منه نسلا ، فتتحرك فيها غريزة الامومة أقوى وأعنف مما كانت.. وتغريها « بتجربة » زوج جديد !.. حتى بلغت الخمسين وصارت فى خريف الحياة .. فتشبثت بالحياة ، وأمعنت فى التصابى !.. وألقى الجوار فى طريقها شابا فى عنفوان قوته وصبوته ، شابا فى الخامسة والعشرين ، فمناها شبابه بحلميها : الزوج ، والولد .. وذكرها بربيع حياتها الذى انصرم ، فأرادت أن تسترجعه ، أو فى القليل تتمثله .. ولئن لم يسع الشباب اليها فلتسع هى اليه .. ولتتزوج من هذا الشاب الذى كان فى مقام ابنها !

ولم يكن فيها ما يغرى ، ولكن كان عندها ما يطمع٠ فتوسلت الى غرضها بالمال ، بدل الجمال ٠٠ فقد كانت تملك المنزل الذى تقطنه ، ومصوغات من الذهب !٠٠ وكان الفتى فقيرا ، وضيعا ، لا تتطاول أمانيه الى مستوى أسرتها و « ثروتها » ، فلم تكد تلوح له بسلاحيها حتى رضخ ٠٠ وضعف !

وكان هذا الزواج ، غير المتكافىء ، بداية المأساة !٠٠ فلم تمض أعوام حتى بدأت تثقل على الزوج وطأة الاحساس ببعد الشقة بين شبابه المشرق ، وحياتها المنحدرة نحو المغيب ٠ ولكن المغيب تأخر ، فبدأ الزوج يضجر ٠٠ ويتململ ٠٠ ويتعجل النهاية ٠٠ كى يتحرر من قيد هذه الزوجية ٠٠ حتى يئس من الانتظار ، فاختمرت فى ذهنه فكرة الزواج من أخرى أثناء حياة الاولى ٠٠ ما دامت لا تنوى أن تموت !

وعندما تم هذا الزواج - فى سنة ١٩٤١ - وزفت الى الزوج الذى كان قد بلغ الاربعين ، زهرة جميلة فى الخامسة عشرة هى « دولت حافظ فرج حلاوة »٠٠ كان القدر يكتب فى لوحه : الفصل الثانى من المأساة !

عاش عبد الحليم مع عروسه الجديدة فى منزل أهلها بروض الفرج ، أكثر من عام ٠٠ تاركا زوجته العجوز فريسة لاعنف غرائز النساء : الغيرة ! فتمردت على هذا الوضع ٠٠ وما زالت به ، تزين له أن يحضر عروسه الى غرفة تفردها لهما فى بيتها ، حتى قبل ! فاحتل الاثنان غرفة الطابق الاول من الدار ، وقنعت هى بالعيش فى غرفتها منفردة ٠ وحين عجزت الجنيهات الثلاثة التى يتقاضاها الزوج من عمله - كساع بمصلحة الاملاك - عن أن تسد مطالب الاسرة ، تكفلت هى بالباقى ٠٠ كما تكفلت بتمكينه من أداء فريضة الحج معها ، وعلى نفقتها !

ثم مضت شهور ٠٠ حتى فاحت من غرفة العجوز ذات مساء ٠٠ رائحة كريهة ، واكتشفت بقايا جثة !

ولندع التحقيق يكشف الستار عن بقية فصول المأساة ٠٠

اختفـــاء !

◆ **كان** الجيران أول من سئلوا فى التحقيق : فقرر « ربيع عبد الغفار » ـ المبلغ ـ أنه لم ير القتيلة طيلة الاسبوع ، منذ مساء الخميس ٢٥ نوفمبر . وأن غرفتها قد ظلت مغلقة بعد ذلك . أما زوجها فكان يراه فى حجرته الى ما قبل اكتشاف الحادث بيومين ، أى بعد بدء انبعاث الرائحة ، ثم اختفى . وأما الزوجة الشابة فهى غائبة منذ شهر ، وقد قال زوجها لكل من سأله انها عند أخيه فى اتياى البارود

ثم سئل بقية قاطنى البيت ـ وهم : فتحى ماهر سليم ولطيف ونجيب سعد عبد النور . ـ فعززوا كلام الشاهد السابق ، وزادوا عليه انهم عندما سألوا الزوج عن المجنى عليها ، بعد اختفائها بيومين ، أجابهم بأنها قد سافرت الى كوم حمادة لمباشرة قضية لها !

وأجمعت أقوال الاربعة على أن الزوج كان فى حالة مالية سيئة ، وكان دائما يقترض منهم مبالغ صغيرة . وأنه كان يقضى معظم أوقاته مع زوجته الشابة . أما علاقته مع القتيلة فكانت تشوبها منازعات مالية بشأن « قضايا نفقة » رفعتها ضده

فى هذه الاثناء كانت النيابة قد أمرت بضبط الزوج وزوجته الثانية دولت، فى منزل أخيه باتياى البارود ، فتم القبض عليهما وارسالهما الى القاهرة .. وعندما ووجه « عبد الحليم » بالتهمة أنكرها قائلا ان القتيلة قد تركته منذ أسبوع وسافرت دون اخطاره عن الجهة التى ذهبت اليها ! فقاده المحقق الى مشرحة النيابة لعرض أجزاء الجثة عليه . **فلم يكد يرى أوصال زوجته الممزقة حتى اعترته رعدة شديدة وقال انه يستطيع التعرف عليها وانها جثة زوجته حسنة بسيونى عبده . ثم عاد فقال انها ليست هى .. ثم انها هى ! وظل يتخبط فى اجابته وكأنما**

أثر « المنظر » فى أعصابه ، فتخاذل ٠٠ لكنه أصر على انكار ارتكاب الجريمة قائلا : « هى صحيح كانت واخده على حكم بالحبس ، وبعدين اتفقت معها على أن أدفع لها كل شهر ١٢٠ قرشا ، وذلك على يد شيخ الحارة والسكان ٠ وأنا سفرت مراتى دولت من شهر علشان حسنة تستريح فى المعيشة ٠ وبعدين سافرت من كم يوم علشان أجيب دولت ، وما اعرفش حصل لحسنة ايه »

ثم جاء دور دولت فى التعرف على الجثة ، فجزمت بأنها جثة « ضرتها » ، قائلة انها قد ميزتها من بروز « عظمة ابهام قدمها اليمنى » الذى لاحظته كثيرا وهى تعينها على الوضوء ! وغلب الفتاة التأثر فاستخرطت فى البكاء ٠٠ وعندما تمالكت نفسها استجوبها المحقق فقررت أنها وحسنة كانتا متحابتين ، تقضيان النهار كله معا ، فى غرفة احداهما ٠ وقالت ان المجنى عليها كانت قد وقفت البيت الذى تملكه على زوجها ، ولكنها عادت فمزقت العقد حين تم زواجه الثانى منها هى !٠٠ ثم شرحت الفتاة ظروف سفرها الى ايتاى البارود قائلة ان زوجها قد أخذها قبل الحادث بشهر لكى تقضى مدة فى ضيافة أخيه هناك « بحجة تغيير الهواء » ، ثم تركها وعاد الى القاهرة فى اليوم التالى ٠ فلما اقترب عيد الاضحى ، أرسلت اليه فى أول ديسمبر خطابا تنبئه فيه باعتزامها العودة الى مصر صباح الجمعة ٣ ديسمبر ، ولكنها فوجئت بسفره اليها فى مساء الخميس بحجة انتوائه قضاء عطلة العيد فى منزل أخيه !٠ فلما رفضت ، وافق على سفرها الى مصر على أن تقضى العيد فى منزل أهلها لا منزله ! ولكن فى صباح اليوم التالى فاجأهما البوليس بالقبض عليهما فى ايتاى البارود ذاتها ٠٠

ثم قالت ، ردا على سؤال من النيابة ، بأن المجنى عليها كانت تظهر فى الايام الاخيرة عزمها على وقف بيتها على قريب لها

يدعى حسين محمد على ، وان زوجها لم يخف حنقه عليها لهذا السبب ؟

•• وهكذا بدأت الحلقة تضيق حول رقبة المتهم •• وكانت زوجته الشابة هى التى أحكمت وثاقها •• بنفسها !

*

◆ **على** أن دور دولت فى تدعيم الاتهام لم يقف عند هذا الحد ، ففى يوم ٥ ديسمبر انتقلت النيابة الى منزل الجريمة مرة أخرى وأجرت تفتيش غرفة المتهم التى كان يقيم فيها مع « عروسه » ، فعثرت على « قميص مدفون بين المرتبتين ، وهو من الزفير الابيض به أقلام طويلة زرقاء ، وفى وسطه بقع وتلوثات دموية •• كما وجدت فى منتصفه من الامام بعض أجسام محمرة داكنة اللون لاصقة بالنسيج ، يرجح أنها قطع صغيرة من اللحم ! فلما عرض القميص على دولت قررت أنه قميص زوجها ، وأنه كان يتركه عادة بغرفة القتيلة !

ثم صعد المحقق بعد ذلك الى غرفة المجنى عليها فوجد بها « طشت » غسيل ، يرجح أن به أثر دم ، وقرمة من الخشب — — كالتى يستعملها الجزارون فى قطع اللحوم — طولها ٤٥ سنتيمترا ، وبها تلوثات ، يرجح أنها دموية ، وان كان الظاهر أنها قد غسلت لازالة أثر الدم ••

أعيد استجواب المتهم على ضوء هذه التطورات ، ولكنه أصر على انكار ارتكاب الجريمة ، كما أنكر أن القميص له !•• فلما قيل له ان زوجته قد تعرفت على القميص ، أسقط فى يده فقال: « لا مش بتاعى ، ولكن اذا كانت دولت تقول كده يبقى بتاعى ! •• ثم عاد فعدل قائلا : « أبدا مش بتاعى وما وضعتوش على جسمى أبدا وديه مش هدومى » •• وازاء هذا رأى المحقق أن يقطع عليه السبيل ، ولنتركه يصف المنظر فى المحضر : « لبس المتهم القميص المضبوط ، فانطبق على جسمه تماما ، واستقر

كتفاه فى موضعهما ، وعندئذ أخذ المتهم يصيح قائلا : « أبدا مش بتاعى ومش قميصى » وأخذ يحاول خلعه عنه مرارا ورفض ابقاءه على جسمه ، وكان فى حالة هياج شديد ، يحاول التخلص من القميص !

واستمر التحقيق يتقدم بعد ذلك بخطى واسعة ٠٠ **فشهد ابن عم القتيلة ـ وهو ترزى يدعى عبد العزيز على لمعى ـ بأنها كانت قد زارته فى منزله قبل الحادث بحوالى شهرين ، وشكت اليه من أن زوجها قد جثم على صدرها وحاول خنقها « وطبق ضلوعها » ، وكانت رقبتها ما تزال تؤلمها من أثر المحاولة ، فأضافها الرجل عنده فى تلك الليلة ، وفى الصباح أخذها الى طبيب من أقربائها ليتولى علاجها ٠٠ ثم عادت اليه منذ نحو عشرة أيام وهى منزعجة ، لان ساكنا كان يقطن غرفة بمنزلها حذرها من نيات زوجها قائلا انه قد عرض عليه بمناسبة انتقاله من البيت أن يعاونه على قتلها ووضعها فى جوال يأخذه معه ضمن متاعه ، فلا يتنبه للجريمة أحد !**

وشهد نفس الشاهد بأنها كانت تملك بضع مصوغات ذهبية ثمينة رآها تتزين ببعضها يوم أن زارته ٠ وقد اختفت هذه المصوغات فلم يعثر لها المحققون على أثر !

٠٠ وشهد الطبيب ، قريب المجنى عليها ، بما يؤيد رواية ابن عمها عن حادث محاولة زوجها خنقها ، وأضاف أنه (هو) قد تولى علاجها بنفسه ، وبقيت فى منزله نحو أسبوع حتى شفيت ٠ ثم زاد على ذلك أن الزوج ـ فى مرة أخرى ـ سرق مصوغات زوجته وهربها ، فلما استدعاه الطبيب وأحرجه ادعى أنه كان يحفظها لها فى مكان أمين ، واضطر الى اعادتها !

وجاء شاهد آخر يدعى « حسين محمد على » برواية هامة تعزز الاتهام ، فقرر بأنه غضب من زوجته ذات يوم فاعتزم أن يقيم مع قريبته المجنى عليها ، بناء على الحاحها ، وأخذ متاعه



فعلا على عربة صباح يوم الاحد ٢٨ نوفمبر . فلما وصل طرق الباب العمومى ففتح له المتهم ، وتجنب أن يدعه يدخل ، بل حرص على أن يخرج هو اليه .. ثم أجابه بجفاء بأن زوجتـه غير موجودة ، وأنه لا يمكنـه قبول المتاع بالمنزل ، ثم نهره وطرده !.. ففسر الرجل ذلك بأنه من تأثير حنق المتهم عليه بعد علمه أنه هو غريمـه الذى قررت زوجته وقف بيتها عليه ، بل وسلمته فعلا الاوراق اللازمة لاتمام اجراءات الوقف !

وهكذا تراكمت على المتهم القرائن وحاصره الشهود من كل ناحية ..

ولكن عماد الاتهام الذى لا يقف بدونه على قدميه ، ظل رغم ذلك مفقودا .. فقد فشلت جميع الجهود التى بذلت للعثور على النصف الآخر من جثة القتيلة !.. والنصف الذى وجد لم يكن يحمل الدليل على أن تقطيع أوصالها كان هو سبب الوفاة.

أوكان حسب التعبير الفنى «حيويا» !.. وما من شيء ينفى بصفة قاطعة افتراض أن تكون الجثة قد قطعت على هذه الصورة « بعد » الوفاة الطبيعية .. لحكمة خافية !

الحلقة المفقودة

◆ **وهكذا** ظل الاتهام معلقا ، أياما ..

.. حتى تلقى بوليس الوايلى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٤٤ بلاغا من الساكنة التى أعقبت القتيلة فى شغل حجرتها ، وتدعى (ياسمين على) ، تقول فيه انه بينما كانت أختها فتحيـة

عبد الرسول الجندى تعاونها على نشر « ثياب الغسيل » فوق سطح المنزل ، **عثرت فى مخبأ بعيد عن الانظار على « صفيحة » يحوم حولها الذباب والدود ، وتنبعث منها رائحة خانقة ، فلما حركتها بقدمها فى اجفال تدحرج منها رأس بشرى وقطع متآكلة من اللحم !٠٠ فصرخت مذعورة واستغاثت بالجيران**

٠٠٠ وبالفحص الدقيق بواسطة الطبيب الشرعى المساعد (الدكتور كمال السيد مصطفى) ، ثبت أن الوفاة « جنائية ، وأن صاحبة الجثة قد ماتت مخنوقة بضغط شديد على عنقها ، تسبب عنه كسر العظم اللامى ، كما استعمل العنف فى ازهاق روحها وذلك بضغط على صدرها تسبب عنه كسر الاضلاع ، كأن جثم الجانى على صدر المتوفاة وخنقها بيده على سبيل المثال ! »

(صدر عن دار فحص الموتى فى ١١ مارس سنة ١٩٤٤)

٠٠وأخيرا ، فى ١٣ ابريل وقع « رئيس نيابة مصر » تقرير الاتهام فى هذه الجناية (رقم ٤١٦ الوايلى سنة ١٩٤٤ ـ ١٤٠ كلى سنة ١٩٤٤) وقد جاء فيه ان النيابة العمومية تتهم « عبد الحليم عطيه دسوقى ساعى محبوس بسجن مصر » :

« لانه فى خلال المدة من ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣ الى أول ديسمبر سنة ١٩٤٣ بدائرة قسم الوايلى بمدينة القاهرة : « قتل عمدا زوجته حسنة بسيونى عبده ، بأن جثم على صدرها وخنقها قاصدا من ذلك قتلها ، فأحدث بها الاصابات المبينة بالتقرير الطبى الشرعى والتى أودت بحياتها ٠ ثم فصل رأسها وقطع أوصالها ، وكان ذلك مع سبق الاصرار ! »

*

◆ وفى قفص الاتهام، بقاعة محكمة الجنايات، جلس المتهم فى ذلك اليوم ينتظر النطق بالحكم ٠٠ ساهما ، شاردا كالمذهول !

ترى فيم كان يفكر ؟ وأية أطياف من الذكريات دهمته ؟ أطيف ليلة الجريمة ٠٠ وهو فى غرفة ضحيته يشاركها طعام

العشاء ويناولها طبق (الكشرى) بنفس اليد التى كان يهيئها للاطباق على رقبتها بعد لحظات ثم لتقطيع أوصالها ٠٠ وتركها طعاما للديدان ؟؟

٠٠٠ أم طيف يوم الحج قبيل تلك الليلة بشهور معدودات ـ وهو واقف معها فى عرفات ، أو متعلق بأستار الكعبة ، يستغفر ربه عما تقدم من ذنبه ٠٠ وما تأخر !؟

٠٠ ونطق القاضى بالحكم ٠٠ بالاعدام شنقا !

٠٠ ففرت من خيال الجانى جميع الاطياف ، تاركة مكانها لطيف واحد مخيف : حبل المشنقة !

نحن فى ركب الأدب



ظهر فى المكتبة العربية

عزيزى القارىء ...

هذا باب جديد أحسبه قد طاف بخيالك منذ زمن .. ففى كل شهر تخرج المكتبة العربية عشرات من الكتب، لعشرات المؤلفين ، فى شتى الموضوعات .. وأنت حائر لا تدرى أيها تقرأ وأيها تدع - فان وقتك لن يتسع لقراءتها جميعا ولا شك ، ومن العسير عليك ان تعرف مايوافق ذوقك من المطبوعات من مجرد معرفته اسم الكتاب واسم كاتبه .. بل ان تصفح الكتاب بين يديك فى المكتبة التى تبيعه لن يكفى كى تعرف عنه ما تود معرفته من أبوابه وجزئياته ..

لذلك رايت أن أفتح لك فى «كتابى» هذا الباب الذى سيقدم اليك فى كل شهر ملخصا لاهم كتاب ظهر حلال الشهر المنصرم ، فى أسلوب يكاد يكون هو أسلوب كاتبه ، وبعبارات أكثرها عباراته ذاتها - أو على حد التعبير الانجليزى In the author's own words - كيما تلم الماما وجيزة بالكتاب ، فتقتنيه اذا راقتك مادته ووافقت هواك، أو تقنع بهذه الخلاصة اذا آثرت عليه كتابا آخر .. وهكذا سستطيع كل قارىء أن يقتنى أقرب الكتب الى ميوله ومزاجه

وسبق أن قدمت لك فىهذا الباب:

ابو نواس : للعقاد

الهوى والشباب : بشارة الخورى

واليوم أقدم لك هذا الكتاب الذى أحدث ظهوره ضجة كبرى ، ((هذا .. أو الطوفان)) للكاتب الثائر خالد محمد خالد



خالد محمد خالد

هذا.. أو الطوفان!

١ ـ هنا .. لا هناك

◆ « بدون شجاعة لا توجد حقيقة ، وبدون حقيقة لا توجد فضيلة »

◆ لست أعرف شيئا عن سر الاله .. ولكننى أعرف أشياء عن بؤس الانسان »

◆ منذ اكتشف الانسان نفسه وهو يعمل دائبا لترقيتها .. ولقد ثبت فى روعه منذ يومه البعيد الذى نهض فيه ، انه يسير الى أفضل .. وكان لا يفتأ يذكر الزواحف المهولة والحيوانات الجبارة ، تلك التى كانت معه فى سباق لاهث للسيادة على هذا الكوكب وامتلاك زمامه .. لقد عجزت هى عن التكيف ولم يعجز هو .. اصطنع التقاليد والاخلاق ليؤمن بها الارض التى يقف عليها ، ويدعم بها حاضره .. ولبث وهو ماض الى مستقبله يعدل من أخلاقه ، ويتسامى بتقاليده وعاداته ..

ولكن التناقض الذى تتشح به أنظمتنا ليكاد يريبنا فى أن تكون أخلاقنا سائرة الى أفضل .. فنحن نحرم الرقيق عندما يكون « بيع فرد لفرد » ، ونجيزة بل نتسابق فيه عندما يكون « بيع أمة لأمة » .. فالسلاسل القديمة وضعت ليوم تحت اسم «المنفعة» .. والسخرة القديمة وضعت اليوم تحت اسم «التعاون» .. وأسواق الرقيق صار اسمها « المنظمات الدولية ! »

ومع هذا فليس لليأس مبرر .. فارادة التسامى والقدرة عليه جزء من طبيعتنا ، ولكن علينا أن نشحذ العقل ونمكنه من جميع سلطاته .. فان هناك قوتين خارقتين تتنازعان العقل الانسانى وتتوزعانه : هما الدين والعلم

فلنتتبع مصير الاخلاق بين العلم والدين ..

كان من الطبيعى أن يدعو الدين الى الفضيلة ، ولكنه يحصر اهتمامه فى الله .. ويهيب بالناس أن يصيروا آلهة .. وأهدى السبل لكى لا تطاع ، ان تأمر بما لا يستطاع ..

لقد نادى المسيح عليه السلام : « لا تقاوموا الشر » .. وجاء محمد عليه السلام ليقول : « تخلقوا بأخلاق الله » ولكن الله سبحانه يقاوم الشر كما لا يقاومه أحد ، فكيف اذن يطالب الانسان بأن يكون أكثر ألوهة من الاله ؟ .. وكيف السبيل الى التخلق بأخلاق الله ؟ .. ان ثمة استحالة مادية تعترض طريقنا ، فنحن البشر لنا أمعاء يحتشد فيها الميكروب احتشادا يدفع النفس مكرهة الى سلوك ما لا ترضاه .. ولكل انسان كبد وغدد ،

اذا أصاب احداها الخلل سرت العدوى فى غير ابطاء الى سلوكه فجعلته غضوبا ، أو مدمنا ، أو عربيدا .. أو غير ذلك من الصفات التى يقول العلم انها تنشأ ـ الى حد كبير ـ من افرازات الغدد وتأثيرها ..

ومع ذلك ، فقد ظلت تعاليم الدين موضع تقدير العلم واجلاله . وهب من العلماء من جعلوا رسالتهم التوفيق بين المثالية التى تدعونا اليها السماء ، والواقعية التى تجذبنا الى الارض .. حتى جاء من بعد الانبياء خلف أمعنوا فى تجاهل الانسان ، وشقوا على النفس الانسانية وارهقوها حتى سئمت العمل الصالح وتراخت قبضتها على الفضيلة .. وبالغوا ـ عن سوء قصد ـ فى تخويفها بالمجهول ، حتى صمم الانسان على اكتشاف ذلك المجهول ، فلما لم يجد هناك شيئا يخيفه ، هم بأن يمرق من كل قيد فاضل .. لولا ان العلم كان هناك فى الانتظار ، فأعطى الفضيلة معانى جديدة ، وبث فى قلوب الناس وعقولهم اقتناعا لا ينبعث من رهبة ولا جبروت ، بل من واقع الحياة الانسانية وتجاربها واحتياجاتها .. ولم يجحد العلم فضل الدين وضرورة بقائه فى الميدان ، ولكن بعد تطهيره من بعض رجاله أولا ، ومن الطفيليات التى أقحمها عليه بعض الاشرار ثانيا ..

فلنفهم جيدا ، ان أخلاق الانسان حين تدرس ، انما ينبغى أن تدرس على ضوء صلة الانسان بالارض ، لا بالسماء .. ولندرك ان سلوك الانسان ليس نتيجة لتدخل من الله، ولا لتدخل من الشيطان ، وانما هو ثمرة الانسان وحده، ثمرة أعصابه، وغدده، وغذائه، وتربيته ، وأسرته ، ومجتمعه ..



لقد وضع العلم الانسان تحت مجهر كبير، واكتشف العقد الخبيثة التى تضله وتغويه ، وأعطى التصورات الدينية للشيطان والقلب والروح ، مفاهيم واقعية صحيحة .. منها أنه :

◆ ليس هناك شياطين !

وانما لكل انسان غرائز ، وكل غرائزنا نافعة، وطريقة استخدامنا لهذه

الغرائز هى التى تثمر ما نسميه خيرا ، وما نسميه شرا .. واذن فالخير هو الاستخدام السوى لغرائزنا ، والشر هو الاستخدام المنحرف لها ..

ثم ، ما هذا القلب الذى يسكنه الشيطان ؟ .. وما معنى صلاح القلب وفساده حين قال الرسول عليه السلام : « ألا وان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب » ؟ .. انما يعنى الرسول بالقلب الارادة ، وبهذا يحقق معرفة ونبوءة .. فغاية ما وصل اليه علم النفس ان سلوك الانسان الذى هو ثمرة عوامل كثيرة يسيطر عليه عاملان : الارادة ، والاندفاع .. وهذا يقودنا الى المفهوم الثانى الذى كشف عنه العلم ، وهو ان :

◆ التدين قد يكون انفعالا مرضيا !

اذ لا بد لتحرير سلوكنا من معوقات نموه وتهذيبه ، ان نفرق بين تبعاتنا الدينية ، وتبعاتنا الخلقية .. انك تستطيع أن تصلى وتصوم وتحج ، وأنت مشحون النفس بالعقد المكبوتة .. ولكنك لن تكون قط صاحب ذات منظمة وطيدة ، وسلوك مكتمل ، وفيك هذه الشحنة المدمرة .. والصلاة مثلا ، لن ترد عن سلوكنا الآفات التى تعترضه ، كالخجل والخوف والتطلع الجنسى ، وانما تردها تلك الوسائل التى استحدثها علم النفس والتربية والاخلاق .. فالصلاة مضافة الى هذه الوسائل العلمية تكون عاملا مساعدا .. وما أكثر الرجال الذين يؤدون الطقوس الدينية ، ومع ذلك يظلون مجردين من الاخلاق الفاضلة ، الكريمة !

والتدين كثيرا ما يكون انفعالا مرضيا لعقد مكبوتة .. وقد لا يكون انصراف شبابنا ـ حين ينصرفون فى اعقاب المراهقة أو خلالها ـ الى المسجد أو الكنيسة ، فضيلة واستقامة .. ففى هذه السن تتحرك الفريزة الجنسية، وتقف ظروف بعض الشباب عقبة فى طريقها ، ويكاد يسحق شخصيتنا ذلك الجذب الشديد بين الرغبة والعجز ، فيهب العقل الباطن لانقاذنا من هذا التردد المؤئس ، فيشير نحو المسجد أو الكنيسة ، ويوحى لعقلنا الواعى بالهرب شطر احدهما .. الهرب من الواقع الذى عجزنا عن تقبله والتفاعل معه .. وهكذا يتدين الشاب فى هذه السن .. وليس هذا السلوك الطارىء سوى انفعال مرضى ، حالة نفسية وجد فيها ملاذا وخلاصا من شقاء التردد ولفح الفريزة ، وما الدين سوى اطار لهذه الحالة وعنوان ..

والحقيقة الثالثة التى أفصح عنها العلم :

◆ ان الانسان لا يولد كاملا ، ولا يولد ناقصا

.. لا يولد خيرا ، ولا يولد شريرا.. انه يولد وحسب.. وهو مجموع خليط عجيب دقيق من الاعضاء والاعصاب والدم والامعاء والغدد .. وبين

سلوكه وهذه الأجهزة صلات أشد متانة ووثوقا مما بينها وبين كافة المواعظ والقوانين .. انها تؤثر فى أخلاقه تأثيرا جما لا يكاد يضاهيه سوى تأثير التربية والبيئة .. وكل خلل ينتاب أجهزة الجسم يعقبه خلل فى النفس والاخلاق .. فهذه الغدد التى تسرف فى افرازها فتسبب لنا شعورا جنسيا ينقلنا الى الخطيئة ، أيمكن أن ننعتها بالرذيلة ؟

ان هذا يدعونا الى تغيير مناهجنا فى تكوين الاخلاق وتحسين السلوك، والاعتراف بواقعية هذه المؤثرات ..

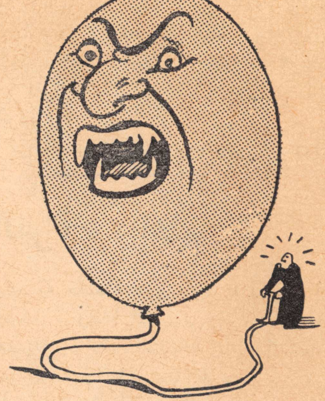
٢ - طبيعتنا الحرة .. أعلم

◆ **وخير** ما نفعله لاكتساب شخصية مكتملة ، وسلوك فاضل ، أن نجعل الاكتمال والفضيلة جزءا من طبيعتنا ، وهذا لا يتأتى الا اذا توافر لطبيعتنا الانسانية اقتناع كامل بأن الفضيلة مرادفة للسعادة .. والسعادة هنا تعنى التوافق المتناغم بين شخصيتنا الماثلة وشخصيتنا المرجوة .. بين طبيعتنا ومثلنا الأعلى .. ولا شك ان الشخصية السوية - التى تكون حياتها تعبيرا سليما وافيا عن غرائزها واحتياجاتها - هى وحدها الخليقة بأن تكون فاضلة وسعيدة .. **فالسعادة هى الحالة الوجدانية الفرحة التى نجدها حين نعبر عن غرائزنا الراسخة تعبيرا متوافقا .. وبذلك نستبعد اسطورة « السعادة الروحية » التى تقوم على تحطيم الجسد وجحود طبيعته .. وليس معنى هذا اهمال « التقوى » ، ولكن معناه ارتفاع محاولات الاكتمال الخلقى نحو نقطة أعلى ، كشف عنها العلم والتجربة .. فالتقوى هى أن تتوقى ضراوة الغريزة بخنقها .. أما السعادة فهى أن تروض الغريزة ثم تمتطى صهوتها وتنطلق بها فى سياحة بهيجة عبر حياتك الممتلئة السامقة**

◆ الدين والخطيئة !

والدين قد سمى أخطاءنا السلوكية ذنوبا وخطايا ، وعلم الاخلاق أسماها رذائل وعيوبا .. وهدف الاثنين هو التنفير من الاخطاء ، ولكن الانسان قد بالغ فى تصور هذه الدلالات الى حد أنها لفحت الضمير الانسانى بشعور طافح بالدونية ، واحتقار الذات ، والاحساس النابح بالاثم !

والدين لم يظلم الناس .. اذ لم يكن بد فى الماضى السحيق من أن توضع أخطاء السلوك تحت عدسة مكبرة لتبدو للمستهترين فادحة التبعات .. وهذا ما فعله الدين .. ولكى يقر الخوف من العقاب كحافز يدعو الإنسان الى أن يضبط سلوكه ، ربط هذا الخوف بالمجهول .. ولكن الناس


النفخ فى بالون
« التخويف من الخطيئة »

غالوا فى الخوف حتى اختلطت الخطيئة بالجزاء المرقوب لها اختلاطا كاد يأخذ على الناس مسالك الامل والنجاة .. مع أن الرسول كان يزيح عن كواهل الناس هذا الفائض من الخوف ، فيقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات »

واذا كان الخوف المدمر ينبع من مبالغتنا فى تقدير الخطيئة ، فقد عنى الدين الصحيح بأن يلاشى هذه المبالغة من وجدانيات الناس

ولما كانت للمسألة الجنسية وطأة شديدة على الناس ، سيما أولئك الذين لا يقدرون على الزواج ، فقد هدم الرسول وطأنها حين قال: "كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا ، مدرك لا محالة .. فزنا العين النظر ، وزنا اليد اللمس » .. وذكر أن العضو التناسلى يصدق هذا أو يكذبه .. أى أن كل انسان فى طور شبابه يخضع لانفعالات عاطفية ، اذا لم يسمح لها بأن تتحول الى خطيئة جنسية كاملة ، فانه لا يكون قد أتى اثما

والعادات التى يتكون منها سلوكنا مستمدة من الاتجاهات والعقد .. فالعادات الفاسدة ترجع الى عقد مرضية مكبوتة .. والعادات الصالحة تنتج من الاتجاهات المستساغة ..

وكما أننا لا نعالج مرضا عضويا بتعذيب صاحبه ولا بالمواعظ الدينية ، فكذلك يجب أن يكون سلوكنا مع المريض بمرض خلقى كالسرقة والكذب .. الخ

◆ الدين .. وتفسير الدين !

ردد رسولا المسيحية والاسلام ان الله غفور رحيم ، يقبل التوبة ويطهرنا من كل اثم .. **ولكن القصص الصوفى حاول أن يخلق فينا ادمان الشعور بالاثم ، مما يسبب لنا حالة وجدانية رديئة ومؤذية هى « الاشمئزاز من النفس » .. مع انك لكى ترتفع بنفسك لا بد أن تكون على وفاق معها واحترام لها**

اننا نبيح الشعور بالخطأ ريثما نصححه ونتحامى العودة اليه ، ولكنا نرفض ادمان الشعور بالاثم والايغال فيه .. فلو لم يكن له من ضرر سوى وقف اهتمامنا باكتمال أنفسنا وترقيتها ، لكان كافيا ..

ووجداننا يستمد المخاوف والمشاعر الحادة بالخطيئة من التحريم .. ولسنا نقصد بهذا الغاء القوانين ، أو اباحة ما حرم الله .. وانما نقصد أن الاسراف فى التحريم شىء يضعه الدين والعلم موضع الاعتبار ، لأن الاغراء وليد التحريم .. ونحن نستبعد التحريم حين نريد تصور السلوك الانسانى وتشخيص علله ..

ان غاية ما يصنعه التحريم أن يضبط السلوك بعض الوقت ، دون أن يكون له على الباعث أى سلطان .. والسلوك المضبوط ، رهبة من عقاب أو رغبة فى ثواب ، لا يدعو للاعتماد عليه ، فقد يتراخى انضباطه عندما تتراخى صلة الثواب أو العقاب به .. وما دام التحريم عديم السلطان على البواعث ، فان الاسراف فى استعماله بحجة حماية الاخلاق لغو عظيم .. ومن أذكى لفتات الرسول : « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى »

فاذا أردنا للمجتمع أخلاقا فاضلة ، فلنهيىء له البواعث الفاضلة ، التى تجىء ثمرة الارادة المشحوذة ، والتجربة الحرة ..

◆ فلنثق بغرائز الانسان الطبيعية ..

ان حياة الفرد صورة موجزة لحياة النوع جميعا .. ولقد اقترفت الانسانية من الاخطاء والخطايا ما يجل عن الوصف والحصر حتى بلغت شأوها الحاضر .. وكذلك يفعل الفرد .. فكلنا نشق طريقنا الى الفضيلة والمثل الاعلى بين عناصر غريبة عنهما ومعادية لهما .. وكما ولدت قسوة الطبيعة فى الانسان ارادة وذكاء قاوم بهما أعاصيرها وزلازلها ، فكذلك تولد فينا تلك العناصر الغريبة قوى تقاومها وتنتصر عليها .. ولكن علينا أن نثق بالطبيعة الانسانية فهى عدتنا فى النضال .. **وقد علمنا تاريخ الانسان وتطور غرائزه وخصاله ، أن نثق بهذه الغرائز .. فالحق المشاهد أنها تسير فى طريقها عن بصيرة ، وانها ماضيــة دائما الى الامام .. وقد قضت ملايين السنين وهى تعمل ، وتجرب ، وتخطىء ، فنمت قدرتها الفائقة على الاختيار ، والخلق ، والتصميم ، نموا مطردا .. وهى لا تبيد بل تتطور .. فغريزة الجنس مثلا تحولت من السبى والاغتصاب الى الزواج والاسرة .. وهكذا نجد أن غرائزنا لا تتعطل أبدا ولا تقف عن العمل ، ونحن حين نكبتها انما نحول طاقتها البناءة الى عمل هدام !**

انها أعرف منا بالطريق ، لانها قبل أن ينبثق فينا العقل كانت رائدنا العليم البصير .. أليست غريزة الجوع هى التى حققت للانسان حريته وأعلت حقوقه ، اذ لولاها ما قامت الثورات ؟

ولسنا ندعو بالطبع الى ترك حبل الغرائز على غاربها ، اذ لا بد من أن تسير فى حمى العقل وهداية المثل الاعلى ..

٣ ـ المنبع ، قبل المصب

◆ **مما** لا شك فيه ان الطبيعة الانسانية مضافا اليها النظام الاجتماعى يقرران السلوك ويعينان الاخلاق التى يتخلق بها الفرد والجماعة .. واذا علمنا أن المجتمع أقدر على التطور السريع الصاعد ، من الطبيعة البشرية ، فقد صار لزاما علينا أن ننتفع بقابلية المجتمع هذه ، ونمكنه من التحول الحاسم الى أفضل ، ليعوض تطور طبيعتنا البطىء ..

ونقطة البدء هى تحديد القاعدة التى يقوم عليها مجتمعنا ، وادراك الاوضاع التى تكتنفه .. **ومجتمعنا ـ بل المجتمع العربى كله ـ قاعدته المباراة غير المتكافئة .. وحيث يوجد هذا الوصف ، توجد النقائص الخلقية جميعها .. ومن هذا الوضع رسخت فى حياتنا مشكلات ثلاث : مشكلة العيش .. ومشكلة الجنس .. ومشكلة الفراغ .. فمجتمعنا : مجتمع استغلالى .. مجتمع انفصالى .. مجتمع عاطل !**

◆ مشكلة العيش

كان العيش ولا يزال الملحمة الكبرى التى تتناثر منها حوادث السلوك الانسانى وعثراته .. وهى لا تجد مناخا ملائما سوى المجتمعات التى تقوم على المباراة غير المتكافئة .. حيث يلهث الناس وراء الثروة والشهرة والسلطة والنجاح ..

واذا كان تكوين المجتمع لا يسمح بنوال هذه الاشياء بغير الكذب والسرقة والنفاق ، فان الرذيلة تصبح سلوكا عاما ، وقوة اجتماعية ، تزكيها وتدعمها المؤسسات التى يصطنعها المجتمع لنفسه ، كالصحافة ، والاذاعة . ولهذا يكون من العسير ـ ان لم يكن من المستحيل ـ أن ينجو الفرد منها !

◆ مشكلة الجنس

لكى يتستر مجتمع المباراة على جرائمه ، يفتعل مظاهرات كاذبة مضللة حول شىء ما ، يشغل به الاذهان عن خطاياه .. ولما كنا نحمل استعدادا

موروثا للاحساس الحاد بالخطايا الجنسية ، فقد اختارها المجتمع لتكون الستار « البرافان » الذى يرتكب وراءه آثامه !

والانسانية منذ آلاف السنين تكافح الخطيئة الجنسية بالمواعظ والزواجر ، فما يزيدها ذلك الا ضراما .. ماذا كانت عاقبة المواعظ التى أطلقتها المسيحية محذرة الرجل من المرأة والمرأة من الرجل ؟ .. كانت العاقبة أن تحول النساء بادىء الامر الى عاشقات ، أو ساحرات ، أو عذارى فررن الى الدير .. حتى اذا دقت الساعة معلنة قدوم عصر النهضة ، هبت الاباحية الجنسية اعصارا .. وصار الباباوات والقسيسون على رأس ائمة العربدة ..

وحدث فى الاسلام رد فعل مشابه لهذا .. فمن منتصف القرن الثانى الهجرى الى منتصف القرن الخامس ، جاوزت الاباحية نطاق الرشد ، وراج الشذوذ الجنسى .. وكان بعض خلفاء العباسيين هم الرواد !

وذعر المجتمع الانفصالى من الخطيئة الجنسية لا يحول بينه وبين شر ألوان هذه الخطيئة .. الا وهو الكبت .. وهو اغلاق باب النمو الخلقى أمام المراحل الوافدة من حياتنا وتطورنا .. والآثار التى يخلفها الكبت خطيرة : عشق الذات أو العادة السرية .. عشق المثل أو الشذوذ الجنسى .. أمراض النفس كالقلق والجنون ..

والكبت موجود فعلا فى مجتمعنا رغم المظاهر الخادعة .. ولا يكمن خطره فى تدمير أخلاق ضحيته وحسب ، بل ويهدد سلامة الأمة ..

◆ مشكلة الفراغ

الفراغ النفسى كالفراغ العقلى ، وكالفراغ الزمنى ، كلها شفرات (أمواس) حادة تحلق الاخلاق كما تحلق الشفرة الشعر ! .. ولكنا نظن أن الفراغ النفسى هو النبع الذى يصب فى الرافدين الآخرين : فراغ العقل وفراغ الوقت .. وهو ثمرة محتومة لمشكلتى العيش والجنس !

٤ ـ اقدم لكم الفضيلة ..

◆ **والناس فى بلادنا** اذا لم يجتازوا الطريق الى الفضيلة سيرا على أقدامهم ، فلن يجدوا طريقا آخر اليها ! .. ومن الضرورى أن نؤمن بأن لدى جميع الناس قدرة على حيازة الفضيلة ، ولكن هذه ا لقدرة وحدها غير كافية .. الى أن يتعاون معها عاملان هامان :

الاول : يقع على عاتق الفرد.. وهو تدريب هذه القدرة تدريبا موصولا ، بحيث تظل عاملة أو متأهبة للعمل

والثانى : يقع على عاتق المجتمع .. وهو أن يتيح لهذه القدرة ظروف العمل المثمر ، ويزيح من طريقها كل المخاوف والاساطير والعقبات

وهناك أربعة أزياء للتربية لا بد لمجتمعنا من التدثر بها جميعا ليصير على خلق عظيم : التربية الدينية ، والتربية الجنسية ، والتربية السياسية ، والتربية الثقافية .. وهذا بعض ما يدخل تحتها :

◆ الدين ، بلا أكاذيب

ليس كالدين وسيلة اذا أسىء استعمالها ، دمرت حياة الناس تدميرا .. ونحن اليوم نرث مجتمعا اختلط صدؤه بالدين فعكر بهاءه .. وقد رأينا كيف يمكن أن يعوق الدين - اذا حرف عن حقيقته - تقدمنا وسعينا نحو الاكتمال الخلقى .. فكيف نجعل الدين - كما أراد له ربه أن يكون - عونا للناس على تعلية سلوكهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وازدهار شخصياتهم ؟ .. السبيل هو : الدين بلا أكاذيب !

لقد جاء الدين ليسعد الناس، فكل ما يكتشفه العلم من أسباب سعادتهم يتقبله الدين قبولا حسنا .. وكذلك جاء الدين ليخاطب بشرا ، لا آلهة .. فكل دعوة من العلم للاعتراف بواقعية هذه البشرية بما تحمله من طبائع ورغبات ، يضعها الدين موضع التقدير والاحترام .. فتآخى العلم والدين اذن ضرورى لانشاء سلوك فاضل ..

وانا لنطالب بأن يؤلف مجمع علمى جديد يضم بعض رجـــال الدين المستنيرين ، وبعض رجال العلم والادب .. وتبدأ مهمة هذا المجمع بالاجابة عن هذا السؤال : كيف ننتفع بالدين فى بناء المستقبل ؟ .. ويعنى هذا المجمالمجمع بتقديم الدين للناس من جديد كحافز لا كزاجر .. وينفى عنه تلك الزيادات المخوفة .. لقد ارتبط الانسان بالله خلال تطوره بواسطة عرى ثلاث : الخوف والحاجة والحب .. ونرى ان دواعى الخوف وعبادة الحاجة قد ولت ، وأشرق عصر جديد يرتبط فيه الانسان بمنشئه بعـــروة الحب والتوقير ..

◆ الصحة والحرية والعلم

رأينا العروة التى تربط الاخلاق بالصحة .. واهتمامنا بالصحة يتضمن طبعا اهتمامنا بالغذاء ، فالصحة الجيدة ثمرة الغذاء الجيد .. والعجيب أن الدين أيضا يهتم بنوع الغذاء ويؤكد فاعليته وتأثيره فى الأخلاق .. فالدين

ينهى عن أكل الحرام .. لأن اللقمة الحرام تلوث النفس وتفسد الضمير ..

والصحة النفسية تكاد تكون معدومة فى بلادنا ، لهذا يجب أن يكون لها من اليوم نصيب وافر فى سياستنا الصحية ..

والحريات بأنواعها لازمة للاخلاق الكريمة لزوم الانبياء والمرسلين .. وكل اهدار لحق الجماعة فى هذه الحريات يعقبه فورا انهيار متتابع فى أخلاق الجماعة وسلوكها .. ان النفاق والجبن والغدر والجاسوسية والكذب والعار - كل هذه تتحول الى مقدسات وفضائل فى كل مجتمع يفقد حرياته ..

والحرية الشخصية هى ((صندوق التأمين)) على حياة الفضيلة وبقائها .. وفى بلادنا ظاهرة تستحق المثول أمامها طويلا ، هى أن مكارم الأخلاق عندنا نزوات عارضة .. واذا ذهبنا نتعقب أسباب هذا وجدناها ماثلة فى فقدان العناصر التى تخلق الفضيلة .. وعلى رأسها الحرية الشخصية التى تتيح للانسان ان يختار فضائل نفسه ، ويريدها .. والتى تكون بدورها ثمرة تجربة واختيار ومعاناة .. أما الفضيلة التى يأتيها اصحابها مكرهين ، فكثيرا ما تكون سحابة صيف لا رسوخ لها ولا بقاء .. وما أكثر ضحايا الخوف من التقاليد ، والخجل من الناس .. ان فقدان الحرية الشخصية يعنى شيوع النفاق .. فلنمكن أعضاء المجتمع جميعهم - ذكورا وأناثا - من حريتهم الشخصية ..

ويصلصل الاسلام بما انتهى اليه العلم من انه لا فضيلة بلا معرفة ، فباسم من نحرم عقولنا من أن تعرف كل شىء عن كل شىء ؟ .. افتحوا لعقول الناس جميع النوافذ لكى يبصروا الفضيلة فى ضوء الثقافة الحرة والعلم المبين ..

ومن هذه الثقافة ان يعرف الناس كيف تنضج شخصياتهم ويتفوقون على أنفسهم ، ويحيون حياة لا تعقيد فيها ولا انحراف ولا اضطراب .. فيجب أن يكون للمعرفة الجنسية فى مناهج التعليم المدرسى والتوجيه الاجتماعى نصيب كبير .. لتكن التربية الجنسية مادة أساسية فى ثقافتنا المدرسية والاجتماعية .. وقد كان رسول الله يثير فى المسجد موضوعات جنسية يتحدث عنها ويفتى فيها ، والرجال والنساء معا يصغون

♦ الاختلاط

ونحن لا ننكر نشوء علاقات عاطفية وجنسية من جراء الاختلاط ، ولكن يقابل هذا أن الخطيئة الجنسية تقترف كذلك فى المجتمع الانفصالى ..

وان الخطايا الجنسية المثلية ، أى الشذوذ والانحراف ، تسجل فى المجتمع الانفصالى أرقاما قياسية عالية !

وحسبنا أن نوازن بين المستوى الخلقى فى بلد كمصر، ومثله فى أى مجتمع انفصالى من جيراننا الأقربين .. أو لنوازن بين الريف المصرى فى الوجه البحرى وبين المدن المصرية .. ان القرى التى ينشأ ناشئوها على الاختلاط الطبيعى بين الجنسين فى الطفولة والمراهقة والشباب والشيخوخة - فى الحقل ، وفى البيت ، وفى السوق - تكاد تتنزه عن الانحرافات الجنسية ، بل والنقائص الجنسية ، تنزها مطلقا .. أما المدن ، فهى لضآلة حظها من الاختلاط ، والتردد الذى ينتابها اذ تقدم عليه بقدم ، وتدبر عنه بأخرى ، يعيش أهلها فى فوضى جنسية !

والمشكلة الجنسية هى المنبع الذى يطفح بكافة مشاكلنا النفسية ، ونقائصنا الخلقية.. والدعوة الى مجرد الاختلاط ليست شيئا جديدا بالنسبة لمجتمعنا الذى بدأ سيره نحو الاختلاط فعلا ، ولكن الجديد الذى ندعو اليه هو أن نجعل من الاختلاط شريعة مقررة ومنهجا مرسوما ، وليس مجرد نزوة عارضة ، أو انسياق لا هدف له ولا موضوع .. بل ليكن فنا .. وفلسفة !

ونحن نرى ان يبدأ الاختلاط المدرسى فى المدرسة لا فى الجامعة ، فبين الرابعة عشرة والسابعة عشرة تقريبا - سن التعليم الثانوى - تزداد الانفعالات الجنسية للفتى وللفتاة ، ولذلك نرى أصحاب هذه السن ، لا سيما الذين تكبت انفعالاتهم ، يميلون الى انتقاد الوالدين والمجتمع ، ويأخذهم شغف بالعدوان والتطرف فى مناقشة المسائل الفكرية، ويضيقون بالمنازل ويحاولون نسيانها والهرب منها الى الطريق .. الخ .. بينما اذا نحن حققنا الاختلاط فى هذه المرحلة ، فستقود المدرسة عواطفهم فى تمعن وروية .. وستتحول الرغبات الجنسية الى زمالة فكرية وصداقة انسانية ..

فاذا غادرنا المدرسة الى المجتمع ، أشرنا بالتوسع فى انشاء الاندية الاجتماعية التى تضم الجنسين والتى تكون تحت اشراف توجيهى دقيق ..

◆ العمل الشريف ، والفراغ الممتلىء

ذات يوم وقف عمر بن الخطاب يودع أحد ولاته قبل سفره الى الاقليم الذى سيحكمه ، فسأله عما يفعل بالسارق أو الناهب ، فأجابه الوالى : « اقطع يده ».. فقال عمر : « واذن ، فان جاءنى منهم جائع أو عاطل يشكو ، فسيقطع عمر يدك أنت ! » .. وتابع حديثه قائلا : « ياهذا ، ان الله قد

خلق الايدى لتعمل ، فاذا لم تجد فى الطاعة عملا ، التمست فى المعصية أعمالا .. فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية »

يا لله ما أروعه ! .. ان العمل وقاية ضد الرذائل والزلل ، ومن هنا يبرز واجب المجتمع .. وقد قلنا فى عنوان هذا الحديث «العمل الشريف» ، لأن المهنة أو الحرفة التى نمارسها تنعكس خصائصها وملابساتها على سلوكنا وأخلاقنا .. ولقد تعودنا ان ننظر الى حقوق العمل كشىء يساعد تحقيقه على بث السكينة الاجتماعية فى العلاقة بين العامل وصاحب العمل .. ولكن الامر أجل من هذا ، فبين تزكية حقوق العمل وبين الاخلاق علاقة وثقى ، ليس لأنها تطارد رذائل الحقد والتربص والخيانة فحسب، بل لأن الارتفاع بالحرفة ارتفاع بالبشرية التى تحترفها .. وهذا يقتضينا ان نرتفع بمستوى المهنة والحرفة فى المجتمع عن طريق ترشيدها ، ودعم مكانتها وحقوقها ..

واذا كان العمل غير الشريف خطرا يهدد الاخلاق ، فالفراغ غير الهادف كارثة محققة .. وقد ذكرنا أن مجتمعنا عاطل ، لأنه لا يعمل الا ليأكل ، لا ليحيا .. والانسان الذى لا يعرف كيف يعمل ليحيا يعيش سقيم الوجدان غائم النفس .. فلنملأ فراغ اليد بالعمل ، وفراغ النفس بما تتطلبه من زاد روحى جليل .. والوسائل كثيرة وميسورة ، فتيسير الانتساب للمعاهد والجامعات وسيلة ، ونشر الاندية الرياضية والاجتماعية وسيلة أخرى .. الخ

◆ المساواة ، أو المباراة المتكافئة

ان العلاج الذى يقينا شر مساوىء المباراة غير المتكافئة يتلخص فى هذه العبارة : « المساواة .. أو المباراة المتكافئة » .. أما كيف نظفر بالمباراة المتكافئة ، فيتلخص فى ضرورة الأخذ بـ « الاشتراكية التعاونية » أى بنظام « الانتاج التعاونى » الذى يجعل الانتاج من المجموع وللمجموع ، ويقى المجتمع شرور المبالغة فى تكوين الثروات الفردية ..

◆ احترام الحياة :

قلنا ان الانسان لا يولد فاضلا ، ولا يولد رديئا ، وانما هو يولد فحسب .. ولسنا ننكر أثر الوراثة ، وانما نلقى أكثر المسئولية على البيئة ، وعلى الطريقة التى نستجيب بها فيما بعد للبيئة وللوراثة معا .. وهنا يطالعنا عنصران من أهم العناصر التى تجعل الاستجابة سوية فاضلة : هما الارادة ، والمثل الأعلى .. فالمثل العليا جذور الفضائل .. وهى حين توجد تلتقط ارادتنا التائهة فى أعماقنا .. ونحن لا نعثر على الارادة والمثل الأعلى فى مجتمعنا الا قليلا ، لأننا نبحث عنهما فى السماء ، وهما معنا فى الارض !

ونحن كأمة لم يكن لنا الى زمن قريب مثل أعلى رشيد .. وان كان عندنا كثير من المثل العليا الزائفة ، والويل لنا منها اذا طال مكثها بيننا ! .. ولقد ضرب العدل التاريخى للعالم فى هذا الصدد مثلا برجلين : احدهما وهب أمته مثلا أعلى زائفا ، فدمرها به تدميرا ــ وهو هتلر .. والثانى أعطى أمته مثلا أعلى صادقا ، فأحياها ــ وهو غاندى .. ألا ما أعظم الفارق بين الوطن الذى تركه هتلر مستعمرة .. والمستعمرة التى خلفها غاندى وطنا !

فعلى ضوء هذه المثل والعبر ، أقترح أن يكون مثلنا الأعلى : احترام الحياة .. فان البقاء اليوم للقوى الانسانية التى يدفعها احترام الحياة الى العمل الايجابى من أجل رخاء الانسان وسلامه ، ومن أجل ثراء عقله ، وعافية نفسه .. والفرد الذى يجعل احترام الحياة مثله ورائده والهامه ، لا يكاد يرتكب اثما !

واحترام الحياة كمثل أعلى لنا ، سيفضى بنا الى المثل الأعلى الذى تلتزمه الحياة نفسها .. وهو الواجب .. فالحياة بكل أشيائها تؤدى واجبها على نحو مدهش ، والواجب عندها هو القانون .. فالشمس تشرق على الكون ، والنحلة تخرج الشهد ، والأرض تنبت الحب .. وكل ذلك باسم الواجب ، دون انتظار لجزاء أو شكور ..

واحترام الحياة كمثل أعلى سيصوغ أخلاقنا فى قالب مبادىء الحياة ذاتها ، ويدعونا الى تكييف سلوكنا حسب المفهومات الجديدة والصادقة للفضيلة .. فلا نرى فى الاختلاط وزرا ، ولا فى الفنون عارا .. والتكيف مع الحضارة يحمى الانسان من الانقراض والذوبان !

مصلحة البلديات

تعلن مصلحة البلديات « بوستة قصر الدوبارة » ان المناقصة العامة التى كان محددا لفتح مظاريفها بالمصلحة ظهر يوم ٢٢ ـ ٥ ـ ١٩٥٤ عن عملية رفع المجموعة S.L,M. قوة ٤٠٠ حصان القديمة وهدم أساسها الخرسانى وتركيب المجموعة الجديدة S.L,M. قوة ١٢٠٠ حصان بمحطة كهرباء الاسماعيلية قد تأجل ميعاد فتح مظاريفها الى ظهر يوم ٢٢ـ٦ـ٥٤. وتطلب الشروط والمواصفات من المصلحة على ورقة دمغة فئة الخمسين مليما مقابل دفع مبلغ جنيهان خلاف أجرة البريد وطوابع المهن الهندسية وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢ فى المائة لا يلتفت اليه .

٧٧٤٥

وزارة الصحة العمومية

تفتيش صحة مديرية الفؤادية

تقبل عطاءات بتفتيش الصحة بكفر الشيخ ، لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ١٧ ـ ٦ ـ ١٩٥٤ لتوريد الاغذية اللازمة لعام ٥٤ـ١٩٥٥ لوحدات الوزارة بكفر الشيخ ، دسوق ، فوه ، بيلا ، وتطلب قوائم المناقصات من المستشفيات المركزية بهذه البلاد مقابل ١٥٠ مليما يضاف اليه ثلاثون مليما أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة فئة خمسين مليما

٧٦٨٤

وزارة المعارف

تقدم العطاءات بعنوان السيد سكرتير عام وزارة المعارف العمومية بشارع الفلكى بالقاهرة بالبريد الموصى عليه أو بوضعها باليد بمعرفة مقدميها فى داخل الصندوق المخصص لذلك فى ادارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة الثانية عشر من ظهر يوم السبت الموافق ١٩٥٤/٦/٢٦ عن توريد أدوات الرسم لسنة ١٩٥٤/١٩٥٥ ويمكن الحصول على شروط وقائمة المناقصة المذكورة من مراقبة التوريدات لشئون المشتريات بشارع صفية زغلول (الانشا سابقا) بالقاهرة نظير دفع الثمن وقدر ٤٥٠ مليم (اربعمائة وخمسون مليما) خلاف أجرة البريد

٧٧٥٤

وزارة الصحة العمومية

مستشفى الامراض التناسلية والجلدية بالقاهرة

تقبل العطاءات بمكتب المستشفى بشارع قدرى رقم ٢٢ بالسيدة زينب لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ١٩ـ٦ـ١٩٥٤ لتوريد الاغذية اللازمة للمستشفى لعام ٥٤ ـ ١٩٥٥ وتطلب القوائم من المستشفى على ورقة تمغة فئة ٥٠ مليما وثمن القائمة الواحدة ١٥٠ مليما يضاف اليه ٣٠ مليما أجرة البريد

٧٧٤١

خلف النوافذ المغلقة



عباقرة الإنسانية في حياتهم الخاصة

عزيزى القارىء ..

فى الاعداد الستة الاولى من (كتابى) قدمت لك فى هـذا الباب قصة الحياة الخاصة لفيكتور هوجو ، كما كتبها اديب من اسرته وذوى قرباه هو « ليون دوديه »

وفى كتابى الممتاز الاول قدمت لك فى نفس البـاب « اعترافات جان جاك روسو » وهـو الكتاب الذى فتح فى الادب « الشخصى » فتحا جديدا ، اذ كان اول كتاب يتحـدث فيه اديب عن نفسه ، «فيشرح» عيوبه قبل حسناته بصراحة وجراة لم يكن للناس عهد بهما من قبل ..

ثم قدمت لك فى الاعداد من ١٨ـ٢٦ الكتاب الممتع الذى اصدره الاديب العالمى « أندريه موروا » منذ اسابيع ، وروى فيه حياة الاديبة والملهمة الخالدة «جورج صاند» ، بالقلم البارع الذى قدم للعالم من قبل قصص حياة كل من : شيللى .. دزرائيلى .. بيرون .. تورجنيف .. فولتير .. ديكنز .. شاتوبريان .. الخ

واليوم أقدم لك فيما يلى قصة حياة ومأساة الفنان الفرنسى الخالد ((هنرى دى تولوز لوتريك)) .


MOULIN
ROUGE
Par
PIERRE LA MURE
بيير لامور
الطاحونة
الحمراء!
مأساة حياة
الفنان الفرنسى الخالد
"هنرى دى تولوز - لوتريك"

قصة من ((مونمارتر))

انها قصة باريس ، المدينة العريقة الخالدة .. مدينة النور والضحكات

قصة فنان نابغة عظيم ، ولد فى بيت مجد وثراء ، ولكنه أوتى وجها وشكلا من القبح بحيث كان الناس يشيحون عنه بسببهما اشمئزازا ، والنساء ينفرن منه تقززا !

ولكن ليس كل النساء .. فعندما واتته الشهرة والمجد وجد المرأة التى نسيت قبح خلقته ، وفتنة أنوثتها ، فمنحته كل شيء .. كل شيء الا قلبها !

انها قصة تثير الأحاسيس وتهز المشاعر .. قاسـية فى صراحتها ، مفجعة فى واقعيتها ، زاخرة بانفعالاتها العاطفية التى سجلها – بل أرخها – المؤلف « بيير لامـور » فى كتابه الرائع هذا ..

قصة خالدة ، باقية ما بقيت تتـألق على مسـارح باريس راقصات « الكانكان » اللاتى يتحدين الحياء بحركاتهن المثيرة للشهوة الباعثة للنشوة ، فى ظلال « الطاحونة الحمراء » التى أخذ الكتاب عنها اسمه ..

الطـاحونة الحمراء

◆ وقفت مدام « لوبيه » فى صباح أحد أيام شـهر اكتوبر من عام ١٨٨٥ ، فى نافذة مطبخ المنزل رقم ٢١ بشارع « كولينكور » ، تحتسى قهوتها الممزوجة باللبن ، وتشهد يوما آخر يبرز عبوسا ممطرا ، من أحشاء ليل منصرم ..

وتنهدت فترجرج خداها المكتنزان ، وهتفت لنفسها : « يا لمونمارتر من مكان ! »

وظلت برهة جامدة فى وقفتها ، وقد تعلقت يدها فى الفضاء حاملـة القدح ، وبصرها يحدق فى زجاج النافذة وقد انسابت عليه خيوط من ماء المطر .. ثم ارتشفت آخر قطرة من القهوة فى قدحها ، وتهالكت على مقعد

بجوار النافذة ، اعتادت أن تقضى فيه معظم وقتها ، وان ترقب منه ما يجرى فى الطريق ، وهى تتحدث بين آن وآخر الى «ميمى» .. القطة الصفراء التى كانت صديقتها الوحيدة ومستودع أسرارها .. ثم سوت الوسادة القائمة خلف ظهرها ، ولم تلبث أن استسلمت لاغفاءة ..


هنرى دى تولوز لوتريك

.. حتى اذا استيقظت ألفت المطر قد انقطع ، والسحب الغائمة قد تسلخت عن بقع زرقاء من السماء .. وسمعت قرقعة عجلات عربة تقترب ، فأوسعت فرجة بين الستائر ، لترى خلالها سيدا ذا لحية سوداء ـ وقبعة من الجوخ ومعطف ـ يهبط من العربة معتمدا على عصا قصيرة تنتهى بطرف من المطاط .. فشهقت فى عجب وهى ترقب القادم يسعى نحو دارها ، وهتفت بالقطة : « ألا انظرى القـزم ياميمى ! » .. ثم بادرت تفتح له الباب ، وقالت فى تأدب أخفى ما كان يجول بنفسها : « أى نعم سيدى ! »

وخلع الغريب قبعته فى احترام ، فلمحت شعره .. كان قصيرا ، ولكنه نسق الى جانب من رأسه فى عناية .. وتساءل الرجل : « هل لك فى أن ترينى المسكن المشتمل على المرسم الذى اعلنت عنه فى اللافتة المثبتة خارج الدار ؟ »

وتأملت قامته التى لم تكن تتجاوز أربعة أقدام ، وهو يتطلع اليهـا بنظرات باسمة من وراء منظار أنيق بدون اطار .. فقالت فى لهجة معتذرة : « بالتأكيد ياسيدى .. ولكنه فى الطابق الرابع .. ودرجات السلم فى وضع شبه رأسى ! » .. ورمقته بنظرة مشفقة ، ثم لمت أطراف ثوبها وراحت تصعد السلم، وهو يتبعها معتمدا باحدى يديه على «الدرابزين» ومتكئا باليد الاخرى على عصاه ، ليمكن ساقيه القصيرتين من أن ترفعا جزعه الذى لم يكن يتناسق فى حجمه وطوله مع الشكل العام لقامته ! .. حتى اذا بلغا الطابق الرابع، تلاحقت أنفاسه ، وتلألأ العرق على خديه ، فأخذ يمسح وجهه بمنديل وهو يقول : « انه سلم وعر حقا .. كأنما الصاعد عليه يتسلق الألب ! »

ولاحظت أن أسنانه بديعة ، وان عينيه مفرطتا الاتساع ، تلوح فيهما نظرة «صبيانية» فى فضولها وتطلعها .. وتبينت أنه أصغر مما توحى لحيته ،

فسألته ان كان فنانا ، واذا شفتاه القرمزيتان العريضتان تنفــرجان عن ابتسامة وهو يقول :

ـ لا .. لست بعد فنانا ، بل ما زلت تلميذا ، وقد بدأت العام الثالث من تتلمذى على الاستاذ «كورمون» ، وأوشك أن ابدأ فى رسم اللوحة التى أتقدم بها لمسابقة التخرج .. ومن هنا نشأت حاجتى الى مرسم خاص ..

ونظرت اليه فى تردد .. أو تقبل فى دارها فنانا آخر ؟ .. ومع ذلك فقد يكون على غير شاكلة سواه ، اذ يبدو صغيرا ، مؤدبا.. وأدارت المفتاح، ثم دفعت الباب ، فصاح الغريب فى فرح طاغ : « أو .. و .. وه ! .. انه مرسم مثالى ! » .. ووقف بضع ثوان عند العتبة وقد فغر فاه اعجـابا بالغرفة الخاوية الرحبة ، بجدرانها الرمادية الباهتة ، وموقدها الفارغ الذى كان يتوسط الحجرة .. ونافذتها العالية .. وحجل فى الغرفة ثم أرسل بصره خلال النافذة الى قمم البيوت والمداخن التى كانت تطل عليها ، والتفت قائلا : « ما أجمله من منظر ! .. لا بد ان فى وسع المــرء أن يرى قبة «نوتردام» فى الايام الصحوة » .. ثم استدار الى سلم ضيق يفضى الى شرفة ذات سياج حديدى ، وسأل السيدة : « هل أستطيع أن ألقى نظرة على ما فوق السلم ؟ » ..

فقالت وهى ترشده : « ان غرفة النوم الى اليسار » .. وسمعته وهو يدخلها يردد عبارات الاعجاب .. ثم دفع بابا جانبيا وهتف : « يا الله ! .. حمام ! » .. فقالت : « أجل ياسيدى .. ولكن من حقك على أن أنبئك بأن المرحاض معطل ، اذ اعتاد أحد الفنانين ان يلقى الجبس فيه .. على أن ثمة مرحاض آخر بديعا فى نهاية الردهة تستطيع أن تستعمله ريثما أصلح هذا .. ثم ان حوض الحمام معطل أيضا ، وان كنت على استعداد لاصلاحه اذا كان السيد يود »

نزيل ارستقراطى !

وعادا يهبطان فى مشقة وصمت ، وهى ترقب الرجل يتحسس الدرجات بعصاه القصيرة ، فتشفق أن يهوى يوما على السلم فيدق عنقه .. وما أن بلغا الطابق الاسفل حتى بادر الرجل متسائلا فى لهفة عن أجر المسكن فى العام ، فقالت وهى تتأهب لسماع الاحتجاج والمساومة المألوفين : « اربعمائة فرنك وعشرين »

وبهتت حين قبل المبلغ على الفور .. فأخرجت السجل الذى كانت تثبت فيه أسماء النزلاء ، وفقا لتعليمات البوليس ، وسألته عن اسمه ، فقال : «تولوز .. هنرى دى تولوز» ..

ـ لم أسألك عن مسقط رأسك .. انما أردت اسمك

وعبثا حاول أن يقنعها ان « تولوز » اسمه وليس اسم بلده ، فهى لم تكن تسلم بأن الناس يتسمون بأسماء المدن .. وقالت أخيرا فى اصرار : « الآن ، املنى اسمك ، ومكان مولدك ، وفى أى السنوات ولدت .. »

وفى اناة أخذ يملى عليها : « هنرى مارى رايمون دى تولوز لوترك .. ولدت فى آلبى ، فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٦٤ .. »

وقضت مدام لوبيه يومها كالمعتاد .. أعدت غداءها وتناولته وحيدة ، وتحدثت الى ميمى ، وكنست السلم ، وذكرت عددا من نزلاء بيتها بقيمة الايجار ، وداست عددا من الصراصير ، ثم أوقدت مصباح الغاز ، واستقرت فى مقعدها لتقرأ الصحيفة .. واذ ذاك سمعت صوت عربة تقترب ، فأزاحت الستارة وتأملت الشارع المعتم ، واذا بعينيها تتسعان فى دهشة اذ رأت عربة أنيقة ، ارتدى حوذيها ثوبا ينم عن أنه فى خدمة أسرة غنية من ذوى الحسب والمكانة .. وأخذت تراقب فى فضول وانفعال الحوذى وهو يهبط فيفتح الباب لتبرز منه سيدة نحيلة ، ذات شعر أشيب ، رمقت المنزل فى تساؤل ، ثم تقدمت ، فاستقبلتها مدام لوبيه فى ترحاب وحفاوة وقد أدركت أنها سيدة رفيعة القدر .. وآثرتها بمقعدها الوثير وأصرت على أن تسوى الوسائد حولها .. ثم جلست ويداها فى حجرها ، ترتقب .. وما لبثت السيدة أن قالت :

ـ انبأنى ابنى أنه استأجر مسكنا فى هذا الصباح ..

فلم تتمالك مدام لوبيه أن هتفت : « ابنك .. القزم » .. ثم سدت فمها بيدها ، واستدركت متلعثمة : « أغفرى لى ياسيدتى ، فما قصدت .. »



الكونتة دى تولوز لوتريك والدة الفنان .. بريشة ابنها

وامتقعت شفتا السيدة ، واكفهر وجهها أسى ، ثم مضت تروى لها كيف كسر « هنرى » ساقيه فى طفولته ، وكذا المرض الغريب الغامض الذى انتابه ، والعمليات الجراحية التى أجريت له دون جدوى ، ونوبات الحمى الأليمة التى تصيبه .. وكانت مدام لوبيه تنصت وهى لا تتمالك أن تئن فى اشفاق من آن الى آخر .. وعند ما انتهت السيدة الى مصارحتها بأنها جاءت ترجوها أن ترعاه ، وان تبادر باخبارها اذا مسه ضير ، هتفت وعيناها

تفرورقان ، ثم تغالبها عواطفها فتبكى : ((لا تقلقى ياسيدتى ، سأرعاه كما لو كان ابنى .. ولن انبئه بأنك جئت ، فأنا أعرف شعور الأبناء فى هذه السن))

واذ رافقتها الى الباب عند انصرافها ، سألتها : « هل لك قبل أن تنصرفى أن تخبرينى باسمه الحقيقى ؟ .. لقد ذكر انه يدعى «تولوز» ، ولكنى أعرف انه يمزح .. »

ـ بل هو « تولوز» فعلا ، فان أباه هو الكونت الفونس دى تولوز ـ لوترك ..

ـ كونت !؟ .. اذن ، فهو الآخر كونت ؟

ـ أجل ، ولكنه لا يستخدم لقبه ..

فتاة الحانة

◆ **دهش** سكان شارع «كولينكور» حين شهدوا بعد أيام «جنازة» من نوع غير مألوف .. فعلى عربة جنائزية ، تراكمت بعض قطع الاثاث ، وثلاثة حوامل مما يقيم عليها الرسامون لوحاتهم ، ومنضدة للرسم ، وسلم طويل ، وكومة من الاشياء المتباينة .. وكان يقود العربة شاب ضخم الجثة ، راح يضرب الهواء بسوطه وهو ينشد احدى أغنيات الفنانين ، ويتوقف بين مقطع وآخر ليسوى من وضع غليونه بين فكيه ، وليبادل سكان « مونمارتر » بعض الدعابات والنكات .. وخلف العربة سار أربعة شبان مشعثو الهيئة ، أدركت مدام لوبيه وهى ترقبهم من وراء نافذتها انهم من الرسامين ..

وهكذا وفد أثاث ((هنرى)) الى مسكنه الجديد .. وما ان عاونه رفاقه فى نقله وترتيبه ، حتى أعربوا عن ظمئهم .. فاقترح ((راشو)) ـ وهو أقربهم الى قلب هنرى ـ أن يقلهم فى عربة الموتى ذاتها الى حانة ((لانوفيل)).. بينما بقى هنرى ليتم تنسيق مسكنه ، واعداد بأن يلحق بهم بعد حين ..

واذ فرغ ، أجال بصره فى المكان .. أخيرا أصبح له مرسم خاص !.. لسوف يسعد هنا .. انها فاتحة حياته الجديدة .. ولن ينسى هذه القاعة الرحبة ، ولا الشرفة ، وغرفة النوم ، والحمام .. حتى اذا صار رساما ذائع الصيت !

ولم يلحق بصاحبه «راشو» فى تلك الليلة الا بعد موعد العشاء .. **وكان مطعم ((لوتامبوران)) شبه خال من الرواد حين قصداه ليصيبا بعض الطعام ، اللهم الا من شيخ مسن لم يلبث أن انصرف ، وشقراء مليحة القسمات من فتيات الطريق ، راح هنرى يرقبها وهى تدخن بعد أن فرغت من تناول حسائها ، وقد ساعد ضوء المصباح الغازى على اجلاء ملامحها ولون شعرها الذهبى .. وسأله راشو فجأة عن الموضوع الذى اختاره للوحته ،**

فذكر انه فكر - فى البداية - فى أن يختار موضوعا من التوراة ، ولكنه وجد أن اخراج مثل هذا الموضوع عسير ، ففكر فى احدى قصص الاغريق .. قصة «ايكارس» الذى هرب من قصر التيه ، وحاول ان يطير بجناحين من الشمع ، لكنه طار على ارتفاع بسيط من سطح البحر ، فصهرت الشمس شمع جناحيه وسقط فى اليم .. فقال راشو :

- لست أدرى مدى صلاحية هذا الموضوع .. لم لا تضع رسما جديدا لفينوس أو ديانا ، فهما من الموضوعات السهلة التى تصيب توفيقا .. آه ، وجدتها ! .. لم لا ترسم قتالا بين فرسان .. ومن السهل أن تنتقـــل من «اللوكسمبورج» احدى لوحات «دوتاى» الحربية ، ثم تعدل وتغير بعض معالمها .. ثم .. هناك دائما موضوع الاسرة ..

- اعرفها .. منظر الصغيرة تبكى عروسها المهشمة .. أو الطفل الذى يسرق المربى ..

- اذا كان هذا شعورك ، فارسم اذن «ايكارس» .. ولكن ، احرص على تنسيق خطوطه ، فأنت تدرى كيف يهتم الاستاذ «كورمون» بالخطوط المتناسقة ..

ثائر على تقاليد الفن !

وفطن فجأة الى أن هنرى لم يكن ينصت له .. فهتف : «فيم شرودك ؟» .. فأشار هنرى برأسه نحو الفتاة قائلا : « ألا ترى لها وجها مثيرا ؟ .. انظر الى الظلال الخضراء على عنقها ! »

وكأنما انتبهت الفتاة الى أنها كانت موضوع حديثهما ، فأطفأت سيجارتها وبادرت بالانصراف .. وتساءل «راشو» موجسا : « ماذا دهاك ؟ »

- لا شىء .. انها موضوع طيب .. فهناك وجوه كالجدران صماء ، وهناك وجوه شفافة كزجاج النوافذ ، تستشف ما وراءها ..

- لسوف تزج بنفسك يوما فى ورطة .. ما الذى يغريك برسم هذه الفتاة ؟ .. ألأن ثمة ظلالا خضراء على عنقها ، ولأنها أوتيت وجها كزجاج النوافذ ؟ .. وهب انك رسمتها ، فماذا تراك فاعلا بها ؟ .. هل ستبيعها ؟ .. ولمن ؟ .. أو ستعرضها ؟ .. وأين ؟ .. منذا الذى يرغب فى لوحة بغى من بنات « مونمارتر » ؟

- قد لا يحفل بها أحد ، ولكنها مع ذلك أكثر استحقاقا لأن ترسم من فرقة فرسانك الغزاة ، أو من الطفل الذى يسرق المربى .. ألم ترسم يوما لمجرد لذة الرسم ؟ .. لقد كنت لا أكف فى صغرى عن رسم الصور لأمى .. لقد سئمت تلك الرسوم التقليدية عن «فينوس» و «ديانا» التى نرسمها فى « الاتلييـــه » .. واصبحت أضيق بالقواعد التى يفرض علينـــا أن نتقيد بها !

فصاح «راشو» هادرا : « لأنك ملزم بأن ترسم ما يريدك «كورمون» على أن ترسمه ، والا فلن يسمح لك بالاشتراك فى المعرض .. واذا لم تشترك فى المعرض ، تكون قد انتحرت كفنان ! »

نماذج « حيـة » من مونمارتر

◆ **وشرع** هنرى يرسم لوحة الأثينى الطائر «ايكارس» ، الذى بات يسيطر على ذهنه فى الايام التالية .. كانت حياته الفنية ، بل حياته كلها تتوقف عليه .. وفى صبر صار يصعد السلم ويهبطه أمام اللـوحة يبين خطوط الرسم ، ويوضح الظلال .. بيد أنه كان يضيق أحيانا بهذا التكلف المفروض ، فيصر على أسنانه غيظا ويواصل العمل وهو يذكر تحذير «راشو» له ، ويلعن كل خط تجرى به فرشاته !

ولكنه كان يتمرد فى بعض الاوقات ، فيقيم لوحة صغيرة على أحـد الحوامل ، ويرسم أحد مناظر «مونمارتر» : غاسلة ثياب تسير فى شارع «كولينكور» ، وسلتها عالقة بذراعها .. أو وجه غانية لمحها فى الطريق أو فى أحد المشارب .. أو منظر احدى الراقصات ينقله عن بعض خطوط سريعة رسمها فى الليلة السابقة فى قاعة «ايلى» .. قاعة الرقص العتيقـة ، الرخيصة ، الدائمة الضجيج والمرح .. واذ ذاك ، كان التعب والسـأم ينجابان عنه بسحر ساحر ، فيستأنف العمل ..



غسالة .. من باريس
بريشة « تولوز لوتريك »

وزاره أبوه يوما فأعجب بمرسمه.. وراح هنرى يرقبه وقلبـه يخفـق اشفاقا .. كان المسكين يتمنى ابنـا يستطيع أن ينطلق معه لصيد الوعول ، ويجيد ركوب الخيل ! .. وبالطبع لم تثر لوحة «ايكارس» اهتمام الأب ، لكنه وهو يهم بالانصراف ، لمح صورة راقصة «الكانكان» فاذا هو يتجه اليها، وينحنى يتأمل ذيل ثوبها الهفهاف ، وساقيها اذ تشقان الهواء ، ثم قال : « ستفجع أمك لو عرفت أى نوع من السفاسف ترسم ! »

حنين .. الى النساء !

◆ **وانتهت** عطلات عيد الميلاد ، فعاد هنرى الى لوحة «ايكارس» والى حياة الطالب ، بما فيها من جد وما فيها من انطلاق .. وكان كلما أوغل فى الرسم ، ازداد ضيقه بقواعد الرسم التقليدية العتيقة . وبهت اذ تبين - عقب العطلات - ان ضيقه قد بلغ حد التقزز والثورة .. وتساءل عما دهاه ؟ .. كان ثمة تغير قد ألم به .. حتى رفاقه لاحظوه عليه .. ولكن ، أى تغير هو هذا ؟

وقفز الى ذهنه اسم «جولى» !.. قفز فى تسلل مسترق ! كانت «جولى» - نموذج صديقه الرسام «لوكا» - فاتنة ، هيفاء ، شقراء ، وكانت هى سر التطور الذى اصابه ، فقد أخذت تطغى على حسه وفكره .. صار طيفها يلاحقه مذ رآها فى تلك الليلة التى اصطحبها فيها «لوكا» لأول مرة الى مرقص «ايلى» .. وكان حبها لذلك الرسام النورماندى يبدو فى كل بادرة تبدر عنها ، وفى كل نظرة .. وفى تلهفها على أن تتلمس يده من تحت المائدة ! .. **كان من المخجل ان يرى المرء هذا الغزل العلنى السافر ، الذى أثار فى نفس هنرى حنينا غريبا ، أحس منه بالنشوة والألم فى وقت معا .. كان حنينا الى المرأة ، وقد تمثلت فى طيف «جولى» الذى راح يلح عليه فى يقظته ومنامه .. فى عمله وفى فراغه .. حتى انتهى المسكين أخيرا الى أن من الضرورى أن تكون له فتاة .. فتاة حقيقية ، من لحم ودم ، يطارحها الهوى .. وما كان أسهل هذه الامنية منالا فى حى «مونمارتر» الزاخر بالفتيات المتسكعات ، التواقات الى أن يحببن وأن يكن موضع حب .. الجائعات الى الحنان ، المتعطشات الى الثياب الأنيقة ، والمآدب الشهية فى المطاعم الكبيرة .. والى المال !**

وعزت عليه المقاومة ذات مساء ، فهبط الى مشرب للبيرة فى ميدان «كليشى» يدعى «مانسى» .. وما أن ولجه حتى أدرك انه جاء الى خير مقصد يجد فيه بغيته ، اذ كان المكان حافلا بالنساء .. فراح يتأملهن ويفاضل بينهن .. وجرع كأسا من «الابسينت» أعقبه بآخر .. ودبت الخمر فى عروقه فأحس بخفة عجيبة وانطلاق .. منذا الذى يقول عنه انه مشوه الخلقة ، عاجز ؟ فليحاول من شاء أن يختبر خفة حركته أو قوة عضلاته !

وجلست الى المائدة المجاورة غانية شقراء ، ذات فم قرمزى شهى ، ووجه كأنه وجه دمية .. ورآها تشعل سيجارة ، ثم تتناول من حقيبتها خطابا وتستغرق فى قراءته ، ودخان السيجارة يرفع على وجهها نقابا خفيفا .. فمال نحوها ، ودعاها هامسا الى كأس من الشراب ، فاذا بها تتأمله لحظة ، ثم تقول : « لو كان لى وجهك القبيح وساقاك المشوهتان ، لأخفيت نفسي عن الأنظار ! »

وسرت كلماتها فى كيانه مسرى الكهرباء .. وخيل اليه أنه يوشك أن يموت ، فأغمض عينيه .. حتى فتيات الطريق كن زاهدات فيه ! .. وليس من فتاة تشتهيه ؟ .. لقد كتب عليه أن يعيش العمر .. وحيدا !

صدمة فى فنه .. وصدمة فى قلبه !

◆ **وعاد** بعد هذه الصدمة يعيش بين أحضان أمه فى قصر «دومالروميه» .. لا سيما حين فجع فى دراسته الفنية وضيع على نفسه فرصة الاشتراك فى المباراة بعد أن انفجر فى أستاذه كورمون ذات صباح ، وجاهره برأيه فيه وفى فنه ! .. وكان طيلة الوقت يدرك انه يهدم مستقبله، وينتحر كفنان ، ولكنه لم يحفل بشىء فى غمرة اللهب الابيض الذى كان يصهر روحه .. لهب الغضب !

وعاد أخيرا الى داره وأمه .. ولم يك يبدو قلقا ، بل انه كان أقرب الى السعادة منه الى أى شىء آخر .. ولعله راض نفسه فى النهاية على الرضى بنصيبه من القدر ، فاقتبس من هذا لونا من السعادة أخذ يستمرئه ..

وذات أصيل ، كان يضطجع فى مقعد طويل بشرفة القصر الظليلة ، وأمه الى جواره ، حين أقبل الخادم يحمل بطاقة على صفحة فضية ، لم تكد عينا الكونتة تقعان على الاسم المطبوع عليها حتى شهقت غير مصدقة ، ثم قفزت ناسية كل تحفظ ، وهرعت الى الباب الخارجى للقصر ، وهى تصيح : « يا لله ! انجليك ! »

والتقط هنرى عصاه ، ونهض الى المائدة فقرأ على البطاقة اسم « مدام البارونة أندريه فرونتناك » .. وفيما كان يسعى وراء أمه ، تذكر صاحبة الاسم : كانت زميلة أمه فى الدراسة ، وصديقتها الحميمة ! .. ودخلت سيدة بدينة فى أوسط العمر ، فاحتضنت أمه وراحتا تتبادلان القبلات وهما تبكيان .. **وشغل هنرى بالمنظر عن أن يلمح فتاة فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها ، فى ثياب الحداد ـ كالسيدة ـ وقد رفعت بيديها أطراف ثوبها فى رشاقة وهى تهبط من عربة فخمة من طراز قديم .. كانت الفتاة «دنيس» ابنة البارونة ..** ولكى ينفسح المجال للبارونة كى تتبادل الذكريات مع الكونتة وتحدثها عن حياتها مع الزوج الذى فقدته من عهد قريب ، دعت ابنتها الى أن تصحب « هنرى » فتسمعه شيئا من عزفها على «البيانو» .. وكانت تحسن العزف حقا .. وجلس هنرى يرمقها وقد جلست الى المعزف تتكسر عليها أشعة الشمس الغاربة المنسابة خلال النافذة .. ولم تنقض عشر دقائق حتى كانت الألفة قد ربطت بين الشابين .. وسأل هنرى صاحبته ان كانت قد جاست خلال الريف ، فقالت : « اننا لم نصل الا منذ أيام قلائل .. أو ترى فى استطاعتنا ان نتنزه معا فى العربة

ياهنرى ؟ .. ما أظن من المحرم على من كانوا فى حداد أن يتنزهوا » .. وغمزت بعينها وهى تقول : « ثم ان هذا سيتيح لنا فرصة البعد عن مراقبة والدتينا .. أليس كذلك ؟ »

من ذلك اليوم أصبحت البارونة فرونتناك تفد مع ابنتها الى قصر «مالروميه» فى كل أصيل ، **فتنطلق «دنيس» مع «هنرى» فى نزهة طويلة ، بينما تنصرف والدتاهما الى الحديث .. وبدأ الشاب يتذوق صحبة الأنوثة .. وشغلت الفتاة باله عن الحسرات التى كانت تنتابه اذ حطم مستقبله الفنى ، وهزت بأحاسيس الرجولة المبكرة التى كانت تستيقظ فى كيانه .. لا سيما وانها لم تكن من غانيات «مونمارتر» ، بل كانت من نفس طبقته الارستقراطية .. كانت تشاركه دنياه ، وتقاليده ، وعاداته ، مما زادها قربى اليه ..**

وأقبل أكتوبر بطلائع الامطار الغزيرة ، فلم يعد بوسعهما أن يخرجا للنزهة .. لذلك شرع هنرى يرسم لوحة لفتاته ، كى يستبقى صحبتها فى الاصائل .. وأصبح مرسمه فى القصر يضمهما فى ساعات الأصيل ، فاذا تعبت من اتخاذ الوضع الذى كان يرسمها فيه ، كف عن الرسم وجلسا يثرثران ويضحكان ويشربان الشاى ..

وبدأت الخيالات العاطفية التى كانت توحى اليه بأحلام غراميات الفنانين تنجاب عن رأسه ، فيتصور نفسه - دون أن يفطن - يحيا حياة الموسر صاحب الأراضى والمزارع ، الى جوار زوجة حنون ، كان يتمثلها فى خياله فى صورة «دنيس» .. وبدد هذا التطور راحة باله . كان يحس أن الفتاة تميل اليه .. ولكن ، أيصل هذا الميل الى المدى الذى يجعله يطمع فى أن تحبه وأن تكون له زوجة ؟ .. ولم لا ، أليس بين الفتيات من تزوجن من عجزة ومشوهين ؟

مفاتحة .. بالحب !

ورأى فرصته سانحة ذات مساء ، وقد أقامت أمه حفلة ساهرة ، بدت فيها «دنيس» فى أبهى فتنة .. واستمد «هنرى» من الخمر جرأة حملته على أن يستدرجها الى المرسم فى الطابق العلوى ، فيجلس ملاصقا لها على احدى الارائك ، ثم .. شرع يقول لها فى صوت خفيض وكلمات متسارعة :

- اننى أدرك ياعزيزتى ان ليس لى أن اطمع فى أن تحبينى ، ولكنى سأنفق العمر فى اسعادك .. أقسم لك أنك لن تندمى على الزواج منى .. سوف أتيح لك كل ما تشتهين ..

وحملقت فيه مبهوتة ، وقد انعكست على وجهها امارات الدهشة والحيرة ، ثم قالت : « ولكننى .. لا أحبك ياهنرى » .. وحين مضى

يحاورها ، أردفت وقد شرعت تتمالك نفسها : « انك لا تفهمنى .. اننى لا أحبك ، وانى لآسفة لهذا .. دع يدى فان قبضتيك تسببان لى ألما ! » .. وأخذت الأمور تتطور بسرعة .. وكان عقله يسبح فى فيض «الشمبانيا» التى شربها .. وأحست الفتاة بذعر ، وقد بدأت عضلات وجهه تتوتر ، وملامحه تزداد ـ تحت الضوء ـ بشاعة .. وهتفت : « انك معتوه .. اننى لم أحبك .. ولن أحبك قط .. ان الفكرة فى حد ذاتها سخيفة ! »

وأربد وجهه فازداد بشاعة .. واشتدت قبضته على معصميها ، وقال : « لماذا ؟ .. الأننى مشوه ؟ .. الأننى عاجـز ؟ » .. وفى غمرة الألم ، صرخت الفتاة : « أجل .. لانك عاجز .. ولأنك بشع .. انك أبشع رجل رأيته ! »

ولم يدعها تتم عبارتها ، بل ضمها اليه فى عنف وأطبق بشفتيه على شفتيها .. وأحس بظهرها يتقوس ، وبثدييها يضغطان صدره ، وبأظافرها تغوص فى لحمه .. وبجهد اليائس استطاعت أن تفلت منه ، فاندفعت الى الخارج صارخة : « أيها الاحمق القبيح البغيض .. لن تتزوجك اية فتاة ما عشت .. أسمعت ؟ »

ولم يرها وهى تخرج .. ولكنه سمع وقع قدميهـا على الدرجات ، والضجة التى ثارت فى الطابق السفلى ، ودوى الجرس ، وأصوات العجلات وهى تتحرك مبتعدة عن البيت .. ثم ساد البيت صمت شامل .. بينما كان الليل يعول فى الخارج وينتحب !

لا جدوى من المكابرة يا أماه

ووجد أمه تجلس وحيدة الى جوار المدفأة فى الطابق الأسفل ، جامدة واجمة .. ولم ينبسا بكلمة ما فترة من الزمن ، ثم شرع يقول : « أعرف انك كنت تدركين اننى لن ألبث أن ارتكب حماقة تضحك الناس منى ! .. وكنت فى أعمق أعماقى موقنا من ذلك ، ولكننى حاولت أن أقنع نفسى بأن «دنيس» تختلف عن غيرها .. وأفلحت فى محاولتى ففدوت اؤمن بذلك ! وليست لديك أية فكرة يا أماه عن السهولة التى يستطيع الانسان بها ـ اذا كان عاجزا مشوها ـ أن يخدع نفسه .. انه يقنع نفسه تدريجيا بأنه شاب وجيه ، مقبول ، لا قزم مبتور الساقين ! .. انها الحقيقة يا أماه ، فلم المراوغة والانكار ! »

ورأى شفتيها ترتجفان ، وهى تضم قبضتيها فى ألم .. واسـتطرد يقول : « يجب أن أعود الى مونمارتر .. اغفرى لى ما أسبب لك من ألم ، ولكن هذا هو الحل الوحيد .. لن أستطيع أن أدبر لنفسى حياة فى غير مونمارتر .. وهناك ، سوف أجنبك ما تعرضت له الليلة من ألم ! »

وانحدرت الدموع من عينيها وهى تقول : « ولكنك ستكون وحيدا .. »
ـ ان الوحدة لن تتخلى عنى فى أى مكان .. لا تبكى يا أماه ، فكل منا بحاجة الى الشجاعة .. ولسوف أزورك .. ولا تنسى قط ، مهما حدث ، اننى أحبك ، وسأظل أحبك بكل قلبى ..

الخمر ملجأه وملاذه !

◆ **وعاد** الى باريس ، والى مرسمه فى دار مدام لوبيه .. وأقبل على العمل يفنى فيه كل وقته وجهده .. وأخذ ينشغل فى رسم عدة لوحات فى وقت واحد ، بسرعة مطردة ، ويد ثابتة .. بينما كانت مدام لوبيه تجلس فتقرأ له الصحيفة ..

ولكنه كان اذا ما حل الغروب يحس بالوحدة .. بل كان يسمعها تهمس اليه بذكريات تعذبه .. كانت الذكريات تهاجمه من كل جانب ، فكان يفر منها الى الطرق يهيم فيهـا على غير هـدى ، ثم ينتهى الى مشـارب «بوليفار كليشى» ، حتى أصبحت له ملاذا وملجأ .. واكتشف أن الخمر كانت تفرق وحدته ، وهمومه ، وعجزه ، وقبحه .. وتثير فى خياله أبدع الاحلام ثم تبين أنه لا يفقد الوعى مهما ملأ جوفه منها !

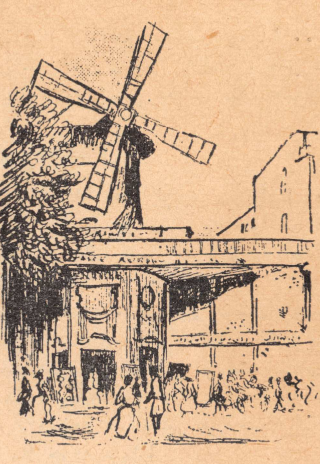
وانقضى عام وبعض العام عليه فى حياته الجديدة .. وفى احـدى الامسيات ، كان فى ملهى «لومبرليتون» ، حين طلب اليه أن يرسم غلاف كتيب يتضمن أغنية جديدة ، فاذا الرسم ينجح نجاحا باهرا ، أطلق أقلام النقاد فى امتداح مبتدعه ..

ورسم «سكيتشات» لاغان أخرى .. ولمجلات جديدة .. وذاع اسمه .. وأصبح يقابل باحترام فى كل مكان ، ويسمع الاطراء من أغراب عرفوه دون ان يعرفهم ..

وأقبل صيف سنة ١٨٨٨ ، وهنرى فى سعادة لم يحظ بمثلها من قبـل .. وذات مساء ، كان يتلهى فى مرقص «ايلى» برسم احـدى راقصـات «الكان كان» العاريات ، حين أقحم غريب عليه نفسه ، فذكر له انه يدعى «شارل زيدلير» ، وانه اذ راقبه وهو يرسم فتاة «الكان كان» ، وجد فيـه



راقصة «الكانكان» بثنياتها التقليدية بريشة «تولوز لوتريك»



ملهى «الطاحونة الحمراء» بباريس بريشة « تولوز لوتريك »

ضالته المنشودة ، فان هؤلاء الراقصات يثرن اهتمامه هو الاخر ، ولكن .. من ناحية تجارية .. فهو قد قضى فى الوسط المسرحى عشرين عاما انتهت به الى أن يصبح مديرا لاعظم « سيرك » فى باريس ..

وباح زيدلير لهنرى بمشروعه الذى يطوى عليه جوانحه : كانت باريس تتأهب للمعرض الذى سيقام فى الربيع التالى ، والذى سيقبل لمشاهدته آلاف مؤلفة من الناس .. ومن ثم فقد اعتزم أن يقيم مرقصا يكون الاول من نوعه فى العالم .. ولما كان الناس لا يرقصون طيلة الوقت ، **فسيقيم فى وسط ساحة الرقص مسرحا يقدم عليه برنامجا مبتكرا ، يبدأ بمغنية تفوح منها ريح البراءة والطهر ، لتلقى أغان يندى الجبين خجلا مما تثيره فى النفس من غرائز ! .. ثم يتيح للرواد بضع رقصات ، يفاجئهم بعدها بعائشة .. التى تذكى وقدة غرائزهم برقصة البطن ! .. ولن ينسى النساء ، وقد أعد لهن برنامجا يؤديه «بهلوان» من البارعين .. ويعود الرواد الى الرقص الذى تتخلله بعض «النمر» .. حتى اذا اوشكت السهرة على ختامها ، عرض عليهم راقصات «الكان كان» ليبهر أبصارهم !**

واذ ذكر له هنرى ان مونمارتر تزدحم بالملاهى ، هتف الرجل متحمسا : « ليس بينها ما يشبه ملهاى .. بل انه لا مثيل له حتى فى أمريكا .. لسوف يكون فذا ، حتى فى مبناه .. سيكون على شكل طاحونة .. وسيطلى باللون الاحمر ، خارجه وداخله .. فليس فى باريس بناء واحد أحمر .. فضلا عن أن اللون الاحمر من الالوان المستحبة ، لا سيما بالليل ، اذ يخلع على النساء رواء ، ويثير الظمأ فى نفوس الرجال .. وستكون للطاحونة مروحة ذات أذرع متحركة مضاءة بتلك الانوار الكهربائية التى وردت الينا حديثا من أمريكا ، بحيث تظهر على بعد عشرة أميال .. وسأدعو هذا الملهى، بالطاحونة الحمراء .. « المولان روج » .. فتذكر هذا الاسم ياسيدى »

.. ولم يعد لهنرى بعد افتتاح «المولان روج» من مكان يقضى فيه سهراته سوى هذا الملهي الذي كان يلقي فيه معاملة خاصة ممتازة ، لا ينالها أي

انسان آخر .. وكانت راقصات «الكان كان» يتبارين فى الجلوس الى مائدته ، وسرد مغامراتهن الغرامية عليه ..

وهكذا انتهت سنة ١٨٨٩ .. الرائعة !

امرأة .. من الطريق !

◆ **وفى** ساعة مبكرة من صباح أحد الايام ، كان هنرى يتخذ طريقه الى مسكنه منصرفا من الملهى ، والهواء البارد يصفعه ، حين سمع وقع قدمين تعدوان وراءه ، ثم رأى فتاة تقترب منه هاتفة فى ضراعة وأنفاس متهدجة : « أرجوك ياسيدى .. قل اننى فى صحبتك ! »

كانت احدى فتيات الليل ، وقد فاجأها بوليس الآداب وهى تحاول اصطياد أحد الرجال .. واستطاع «هنرى» أن يغرر برجل البوليس ، وأن يقنعه بأن الفتاة كانت ترافقه من بداية الليل ، وانه رأى فعلا فتاة أخرى تندفع مهرعة الى شارع آخر ، ولعلها هى التى كان رجل البوليس يطاردها !

وسارت الفتاة الى جواره ، والصمت يلفهما .. وكان يبذل جهدا مضنيا ليجاريها فى السرعة التى كانت تسير بها .. وتوقف اذ أنهكه التعب ، فقالت له : « ألا تستطيع أن تسرع ؟ » .. ثم انتبهت الى ساقيه ، فهتفت : « ما بال ساقيك ؟ .. أولدت هكذا ؟ » .. ولم يكن فى تساؤلها أثر للاشفاق .. ولا للاشمئزاز .. بل ولا للفضول .. لا أثر لشىء سوى التبرم ببطء خطاه .. وأثار ذلك غضبه ، فدعاها الى أن تفارقه اذا شاءت .. ولكنها ظلت تسير الى جواره ، حتى اذا بلغا ناصية شارع «كولينكور» أشار لها الى منزل لتأوى اليه .. ولأول مرة فطن الى شكلها : كانت شقراء ، فى حوالى التاسعة عشرة على الاكثر .. لها عينان خضراوان ، قد تبدوان فى ضوء النهار لازورديتين .. وكان ثوبها الرخيص يلتصق بجسدها ، ويكشف عن بروز نهديها .. كانت بغيا ، محترفة ، رخيصة ، خطرة .. ومع ذلك فقد كانت شهية ، مرغوبة !

وقالت فى رجاء أثار رعشة من السرور فى نفسه : « دعنى أقضى الليلة عندك ، ولن أسبب لك أى تعب ، بل سأغادرك فى الصباح .. هل معك سيجارة ؟ »

وقدم لها حافظة سجايره الذهبية ، فتأملتها وتحسستها فى فضول ، ثم سألته أن يشعل لها السيجارة.. وعلى ضوء الثقاب ، تبينت وجهه ، فقالت : « يا لك من قبيح الشكل ! » .. وامتقع وجهه فصاح فيها : « اغربى عنى .. اذهبى ! .. لست أريدك ! » .. لكنها أجابته فى هدوء : « بل تريدنى .. اننى أقرأ رغبتك فى عينيك .. لم تغضب ؟ .. لن أحفل بعجزك أو خلقتك المشوهة ! » .. ومضت تسير الى جانبه وهى تنفث دخان سيجارتها فى الهواء ..

وحين وصلا بهرها دفء المرسم وضوؤه ، وما تبدى فى جوانبه من آثار السعة التى يعيش فيها صاحبه .. وجلست على الاريكة تخلع ثيابها.. وراقبها مأخوذا .. كانت أول امرأة تقضى ليلتها فى مرسمه .. وكانت رائعة !

وهتفت به : « **لم تحدق فى هكذا ؟ .. ألم تر فتاة تخلع ثيابها من قبل ؟** » .. وأحس بغيرة وهو يفكر فى عدد من تقلبت فى أحضانهم من الرجال .. هذه الفتاة ابنة التسعة عشر عاما !

وسألته ان كان يريد الضوء ، فلما طلب اليها أن تطفئه ، نفخت فيه وهى تقول ساخرة : « أتخشى أن أرى ساقيك ؟ »

واستشاط غضبا .. وصاح يطردها ، ولكنها اندست بين الاغطية وهى تقول : « لا تصرخ والا أيقظت الناس .. ماذا يعنينى من ساقيك ؟ .. لا يهمنى ان كنت عاجزا أو مشوها .. لقد وعدتك أن أكون رقيقة اذا آويتنى ! »

تبيعه الهوى .. فيشترى

◆ **كان** تولوز ـ لوتريك يقف أمام منضدة الرسم حين استيقظت «مارى شارليه» ـ كما كانت فتاة الطريق تدعى ـ فى الصباح التالى ، فانفلتت من بين الاغطية عارية ، تسأله سيجارة .. وغاظه منها تبذلها .. وقدم لها السيجارة ، ثم أمرها أن ترتدى ثيابها ، ولكنها ظلت جالسة تدخن وتتأمل اللوحات المتناثرة فى جنبات المرسم ..

واذ فطنت الى أن فى المسكن حماما ، هتفت وفى صوتها فرحة الطفل الملهوف : « ارجوك .. دعنى استحم ! » .. وقالت وهى تستسلم للماء الدافىء : « ان شئت عدت اليك الليلة .. وسأكون رقيقة لينة مرة أخرى » .. وكان الاغراء قويا ، بعث حرقة فى حلقه ، وأذاب عظامه ..

وعادت فى الليل ! .. فلما كان الصباح التالى ، قالت له : « ان أردت أن أعود ثانية ، كان عليك ان تنقدنى أجرا .. فان شئتنى ليلة بأكملها ، فعليك أن تدفع عشرة فرنكات ! »

وأحس انها لم تصدر فى ذلك عن طمع ، وانما عن طبع البغى التى تتخذ من جسدها سلعة تتجر فيها ، ولا تبيح لنفسها أن تدعه يستغل دون أجر ! .. وعرض عليها بعد أيام ان تصحبه الى المقهى الذى اعتاد أن يجتمع فيه بزملائه ، ولكنها رفضت .. كما أبت أن ترافقه الى « الطاحونة الحمراء » ، فاضطر الى أن يهجر هذا الملهى .. وأخذت صلتهما تتركز وتتبلور فى صلة طابعها الكتمان عن الاصدقاء والمعارف ، حتى لقد أصبح يقضى معها معظم الوقت فى حانة «كارمن» ، حيث لا يعرفهما أحد ، وحيث كانا يصرفان

الساعات فى شراب وتدخين ، لا يكادان يتكلمان .. وهما يترقبان الليل ليعودا الى المرسم ..

وكان يسائل نفسه فى الاسابيع الاولى عما دعاه الى أن يقبل هذه الحياة التى فرضتها عليه .. وكان يهتف بنفسه غاضبا : «ماذا دهانى ؟» .. ولكنه لم يفكر فى التحرر .. كانت الفتاة قد أصبحت بكل شبر فى جسدها الفارع الملتف ، ملكا له ، ينتشى كل ليلة بتلمسه ..

وحدثته عن نشأتها .. عن أبويها اللذين لم يكونا يفيقان من الخمر الا ليضرباها .. وروت له فى غير خجل أو استحياء صلاتها البدائية بأبناء الجيران .. واضطرارها الى الهرب من الحى عقب معركة حامية مع فتاة أخرى من أجل رجل ! .. ثم تشردها ، وجوعها ، وتهربها من البوليس .. ونومها فى فراش الاغراب .. ووفودها على «مونمارتر» .. ولأول مرة ، لمس هنرى فى لهجتها عرفان الجميل له وهى تذكر كيف أنقذها من البوليس ..

لكنها مع طلائع الربيع بدأت تتغير .. ولم تهدىء من روحها المشاكسة معاملته المترفقة ، ولا الهدايا التى كان يغمرها بها .. وكانت قد ادركت ان الاشارة الى عجزه تثيره ، فأخذت تكررها لتملئ عينيها من معالم الألم التى كان يختلج بها وجهه ! .. وشرعت تثير مشاجرات تجعل الجيران يفتحون أبوابهم ليتفرجوا - حتى لقد كانت «مدام لوبيه» تبكى اشفاقا من أجله ! - ثم ، وبلمحة من اللطف كانت مارى تسترضيه ..

وكان لكل شىء لديها أجر .. حتى حين استبقاها فى المرسم ليرسم صورتها ، كانت تتقاضاه الأجر كأى نموذج محترفة .. وكثر غيابها خارج المسكن ، متعللة بأنها تتردد على أخت لها .. ولم يعد يخدع بهذه العلة ، اذ استشف كذبها من تضارب أقوالها ، وكشف أنها عادت تجدد صلاتها القديمة .. ولكنه كان يتظاهر بأنه يصدقها !

وبدأ يفقد ميله للعمل .. ودب الفتور والاهمال الى اللوحات الاعلانية التى كان يرسمها لبرامج « الطاحونة الحمراء » .. وأخذ يضيق بالوقت ، ويتبين مدى ما فى تبديده من عناء ..

تفر منه مع عشيقها .. ثم تساومه على العودة !

◆ **وازداد** تأخر «مارى» فى العودة.. واستفحل جشعها واستهتارها فى آن واحد .. وكانت تثور اذا سألها ، ويتعذب هو وهو يجلس الساعات فى انتظارها ، تكويه الغيرة بلهبها .. وأخيرا ، تداعت أعصابه ، فصار يثور عليها .. وأصبحت لياليهما مشاجرات وشتائم يتبادلانها وهما ثملان !

وتبين أنها عادت الى العشيق الذى فرت من دار أهلها من أجله .. وانها كانت تبتز نقوده لتنفقها على هذا العشيق ، وتقضى أوقات غيابها عن المسكن معه .. ومع ذلك ، فان هنرى حين طردها من مسكنه بعد احدى معاركهما ، راح يبحث عنها كالمجنون ، حتى اذا اكتشف الوكر الذى لاذت به مع عشيقها ، توسل اليها فى ذلة أن تعود .. ولكنها لم تقبل العودة الا اذا نقدها خمسة وسبعين فرنكا عن كل ليلة .. وقبل !!

ولكنه سرعان ما تبين انها لم تعد حرة فى جسدها .. لم تعد صاحبة ذلك الجسد ، وانما كانت تتصرف فيه وفقا لأوامر عشيقها « بيبير » .. وفى أحد الأيام عرضت عليه أن تقف نموذجا أمامه ليستعين بها فى رسمه.. وأخذت تبدى الاعجاب بفنه .. وعجب لتطورها ، وظن انها سياسة جديدة لبيبير تنفذها .. وزاد عجبه حين تطوعت للاقامة معه والعناية بمسكنه واعداد طعامه ، ومقابلة أصدقائه .. والانصياع له ! .. ورافق هذا التطور انقلابا فى علاقاتهما الجنسية .. فقد غدت تبدى له فنونا من الخلاعة المثيرة .. ولكنه كان موقنا فى قرارة نفسه من أن كل ذلك ليس سوى زيف كاذب !

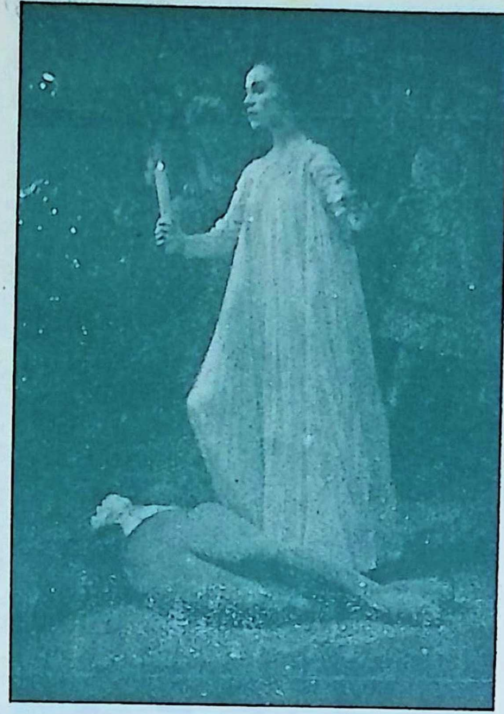
وشرع يتبين تدريجيا ان اشتهاءه اياها أخذ يفتر ويضمحل .. وبدأ يرسم خطة الخلاص منها : لقد تعلم ان المخلفات التى تتركها وراءها هى التى تجعله لا يقوى على ابعادها ، فعزم على ان يطهر المسكن منها .. ولكن ، ماذا يكون مصيرها ؟ .. قد ينبذها «بيبير» هو الآخر اذا أيقن من أنها لم تعد تجتلب له مالا ! .. وقد تجد نفسها بلا مأوى ، ولا مال ، ولا حب .. فينتهى بها الامر الى البغاء الرخيص ، ثم الى السجن ، وربما الى ملجأ **البغايا !**

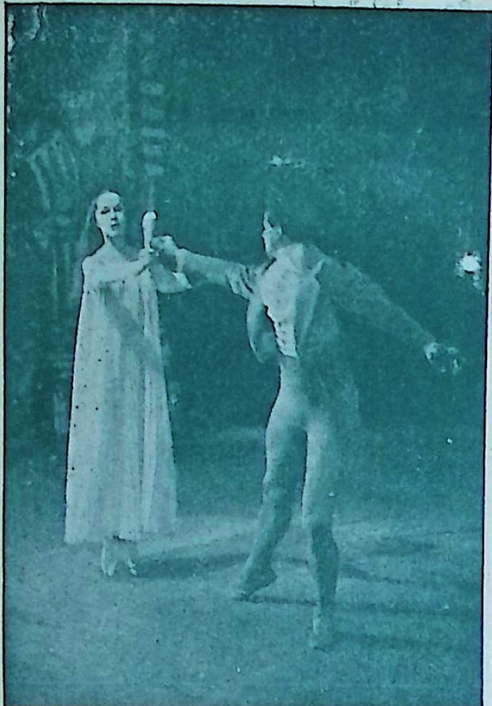
ساعة الانتقام

◆ **وفى** أصيل أحد أيام سبتمبر ، اعلنها بأنه راغب فى أن يفترقا.. وأخرج من أحد جيوبه ظرفا وقال : « لقد أعددت لك هدية .. »

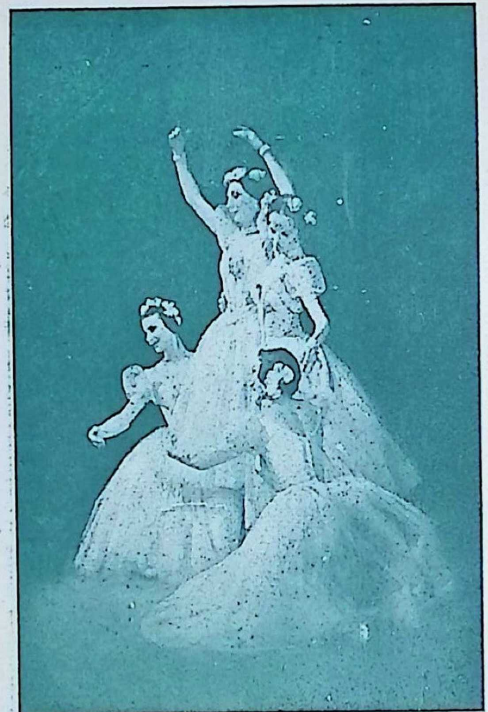
ولكنه لم يتم عبارته ، اذ رأى وجهها يربد ، وأوصالها ترتجف .. وأشفق عليها اذ رآها تسائله عن ذنبها ، وتذكره بانصياعها لكل رغباته ، واقبالها على خدمته .. وكانت فى لهجتها ذلة .. وفى صوتها تهدج وحشرجة .. ثم نسيت وجوده ، واسقطت حذرها ، وراحت تقول : « ماذا تراه فاعلا بى ؟ .. ماذا تراه قائلا حين أنبئه بأنك طردتنى ؟ .. ارجوك ياهنرى .. لا تطردنى .. سأصدع بكل ما تطلب .. »

وكانت لهجتها يائسة .. اليمة .. وركعت أمامه تبلل يده بدموعها وتوسعها لثما .. وأشاح بوجهه فى ألم .. وغطى عينيه براحته وقد خطر





صورتان من باليه « النائمة الهائمة » تصوير الاميرالاى الدكتور ناجى يسى
كما مثلته فرقة (كلوفانس) العالمية على مسرح دار الاوبرا



منظر من باليه « رباعى »



.. ومنظر من باليه « الرقص المقنع »

تصوير الاميرالاى الدكتور ناجى يسى

له أنها فى منظرها هذا كانت تشبه «مدام دوبارى» لدى المقصلة .. حين ركعت أمام الجلاد تقبل يده ، وتكشف صدرها ضارعة ..

وفجأة ، قفزت واقفة وصرخت : « اننى ابغضك .. وكنت دائما أكرهك .. واكره وجهك القمىء وساقيك المشوهتين .. بل كنت امقتك مذ وقعت عيناى عليك .. حتى حين كنت أقول لك اننى احبك ، كنت فى اعماق قلبى أمقتك .. كانت لمساتك تثير قشعريرة فى جسدى .. ولولا «بيبير» ما عدت اليك .. لقد قسرنى على العودة .. لكم يسرنى انك عاجز مشوه .. أتسمعنى ؟ .. اننى مسرورة ! »

ولم يردها الى صوابها سوى ان هددها بأن يستدعى بوليس الآداب .. وجلس الى جوارها فى الاريكة وأمسك بيدها فى رثاء ، وسألها : « هل تعودين الى بيبير ؟ » .. فهزت رأسها ، وانعكس على وجهها ألم مثير وقالت : « لا .. انه لا يحبنى ، بل يحب فتاة ذات شعر أحمر .. انما يبغى منى أن أزوده بالمال .. »

ـ من العسير على نفس المرء أن يحب شخصا لا يحبه .. أنت وأنا نعرف ذلك .. وستجدين بعد فترة ان المرء لا يلبث أن يألف الوحدة ..

وجمد فى مكانه ينصت لوقع قدميها وهى تهبط السلم.. وفجأة ، سادت المرسم سكينة وهدوء .. وأخذ الذباب يحوم فى فيض الشمس مرسلا أزيزا .. ورائحة « البودرة » التى كانت تستخدمها ما تزال عالقة بالهواء.. وترنح سائرا الى منضدة الرسم .. ثم عكف يرسم لوحة جديدة .. للطاحونة الحمراء !!

اللوحة التى أثارت باريس كلها !

◆ **وفغرت** باريس فاها ـ بل أفواهها ـ مشدوهة لروعة اللوحة الجديدة التى ثبتت على الجدران تمثل احدى راقصات « الكان كان » .. ولم يعد للمدينة من حديث سوى تلك اللوحة .. كانت تحفة نادرة ، اجتذبت الناس فتزاحموا حولها ، حتى اضطر رجال البوليس الى تفريقهم .. وهبت بعض الصحف تصفها بأنها « لوحة شيطانية » وتطالب السلطات بانتزاعها عن الجدران .. فى حين أكدت صحف أخرى انها أول لوحة اعلانية تمثلت فيها روعة الفن الحقيقى .. وراح رجال الدين ودعاة الاخلاق ينذرون بأن براءة فتيات باريس فى خطر ، وان النساء لن يستطعن بعد ذلك أن يسرن فى الطرقات دون أن تضرج وجناتهن خجلا .. فانبرى لهؤلاء نفر من الفنانين والناقدين يؤكدون ان الاخلاق فى خير ، وان اللوحة « تحفة فنية أخلاقية » .. وان تولوز ـ لوتريك قد أتاح لرجل الشارع أن ينعم بالفن ..

ولم يذهل أحد قدر ما ذهل هنرى .. أحس بما يحس به شخص ألقى

حجرا فى جدول فاذا به يثير سيلا جارفا .. وقال لصديقه موريس جويان ـ بائع التحف ـ وهو يحاوره :

ـ ان الابداع الفنى يجب أن لا يكون شيئا غير عادى فى اللوحات الاعلانية .. ولقد شئت أن أساعد زيدلر على اجتذاب الناس الى طاحونته .. ولكننى فى الوقت ذاته أصدع حياتى .. لم أعد أستطيع العمل ، فان النـــاس يتدفقون على مرسمى ، كل يريد أن أرسم له اعلانا عن بضاعته .. ما بين صانع « كورسيهات » وصـــانع عطور ، وصـــانع معاجين التجميل .. وما بين مديرى مسارح وممثلات .. ثم ان البريد يحمل لى أكـــواما من الدعوات ، لا أملك سوى أن أدفع بها الى الموقد ..

ـ لم لا تختلط بالمبرزين من علية المجتمع المثقفين ؟ ..

ـ لا أريد أن أختلط بأحد .. اننى قانع ، سعيد بالطاحونة الحمراء ، فكل واحد هناك يعرفنى ويتلطف معى ..

ولكن موريس لم يدعه ، بل ما زال به حتى قدمه الى بعض المجتمعات الراقية ، فاذا هنرى يكتشف ان تلك هى الاوساط التى ينتمى اليها حقا ، والتى لا ترى فيه عجزا أو قبحا ، وانما ترى فيه «فنانا ، مبدعا ، جريئا» .. كانت شهرته تطبق كل آفاق باريس ، وفى وسعه ان يذهب أينما شاء ، فلا يلقى سوى الترحاب والاعجاب ..

خمسة أعوام .. بين الخمر والغانيات !

وهذا ما فعله فى السنوات الخمس التالية .. كان يقضى ليله فى المجتمعات ، ونهاره فى الرسم ، فلم يعد يحظى بكفاية من النوم ، وأصبح حتما عليه أن يفرط فى الشراب ليظل مستيقظا .. كانت أعوام خمسة لم يتذكر منها ـ بعد انصرامها ـ سوى رؤى مهتزة ، شاحبة ، لسفاسف تافهة .. حانات ، وغانيات ، وراقصات ، وممثلات .. وغرف الممثلات وراء « كواليس » المسارح .. ومآدب كان يقيمها ويبدى فيها نزواته دون تورع أو حرج ، حتى لقد قدم للضيوف مرة لحم القردة .. ووضع أسماك الزينة فى ماء الشرب!

كان رغم شهرته يشعر بالوحدة ، ويدرك ان الناس الذين كانوا يتقربون اليه ، انما كانوا يتقربون الى اسمه وفنه ونجاحه ، لا الى شخصه .. وكان هذا يدفعه الى الامعان فى القسوة على نفسه ، والافـــراط فى الشراب ، والاسفاف فى الظهور بالثياب المضحكة .. لقد أصبح يدرك أنه لن يحظى يوما بحب امرأة ، وان تقرب النساء اليه يرجع الى شهرته وحدها !

وأخذت صحته تنهار .. ولم يعد يقبل على العمل .. بل أن يده كانت لفرط الشراب تهتز ، حتى ليضطر الى أن يمسكها بيده الاخرى ليوقف ارتجافها ! .. وأشفق عليه أصدقاؤه .. وكانت أكثرهم اشفاقا الراقصة

« جان آفريل » ، التى دعته مرة الى الغداء لتسأله أن يرسم لها لوحة ٠٠ ولاحظت بقلب آس ارتجاف يده ، وتداعى روحه ، وتهدم صحته ، فحاولت



« المهرجة ، فى الطاحونة الحمراء » ٠٠ لوحة من أشهر لوحات الفنان « هنرى دى تولوز لوتريك »

أن تنصحه بالاقلاع عن الخمر ، أو الاقلال منها ، ولكنه صدها فى جفاء وخشونة ..

وكانت صداقتهما أعمق من أن تجعلها تحفل بخشونته ، فأشعلت سيجارة، وراحت تدخن برهة فى صمت ، ثم قالت : « لم تقتل نفسك ياهنرى بهذه .. الخمر ؟ الأنك وحيد ؟ .. لا تحاول أن تنكر .. فأنت وحيد .. ان الضيق بالعزلة مسطور على وجهك» .. واتسعت حدقتاها فجأة اذ خطر لها خاطر ، ثم هتفت : « آه ميريام ! .. كيف لم أذكرها من قبل؟»

عارضة الازياء الفاتنة !

وان هى الا بضعة أيام حتى استدرجته الى محل فخم للازياء ، وأرسلت تستدعى عاملة من عاملات العرض « المانيكان » تدعى « ميريام هايم » ، فسرعان ما أقبلت فتاة أمسك هنرى أنفاسه اذ رآها ، مبهورا بروعة جمالها .. فتاة سمراء ، فى ثوب أسود جميل ، ذات قامة أقرب الى الطول ، وشعر أسود غزير ، ناعم، راح يهتز على عنقها وهى تسير فى رشاقة وجلال .. وكان لها وجه بيضاوى جميل .. ولكن أروع معالمها تمثلت فى عينين فى لون القهوة الداكنة ، متألقتين ، نجلاوين ، كأنما نظراتهما سهام ساحرة .. وقدمت اليها « جان » زميلها ، فلم تتمالك أن هتفت مبتسمة ، كاشفة عن أسنان كأنها الدر المنضود : « لقد ذهبت الى معرضك ياسيدى ، ولكن الازدحام لم يمكننى من أن أرى روائعك .. »

وراح « هنرى » يملأ عينيه من بهائها محسورا .. فلما انصرفا ، سألته «جان» رأيه فيها ، فقال فى أسى : « انها رائعة الجمال.. ولكن ، ما قيمة رأيى ؟ .. ما الذى تدبرينه فى رأسك الرشيق ؟ »

ـ انما أردت أن أجمع بينكما ، اذ أعتقد انكما تستطيعان أن تغدوا خير صديقين .. اننى أعرف ان ميريام تعجب بك ، فهى لا تمجد فى الحياة مثل النجاح والشهرة .. ولكنى أحب أن أحذرك ، فان ميريام فتاة غريبة الاطوار .. انها يهودية ، يتيمة ، شديدة الطموح ، وقد حددت هدفها ، فليس للحب مجال فى مشروعاتها .. وانما هى تقضى وقتها الآن فى انتظار الزوج المنشود الذى تتوافر فيه شروطها .. ولن يضيرها الانتظار ، اذ أنها لا تزال فى الحادية والعشرين .. لذلك ، فلا يجب أن تطمع فى أن تتجاوز علاقتكما الصداقة .. تذكر هذا.. وان كنت قد لا تصدق ان ثمة فتيات يستمرئن صداقة الرجل دون ان يهفون الى مضاجعته .. وشىء آخر .. لا تتوقع أن تطول علاقتكما الى الابد ، فلن يلبث الزوج المنشود أن يظهر يوما، وان يتيح لها ما تصبو اليه .. فتهجرك !

صراع .. بين الصداقة ،والحب !

◆ **وهكذا** .. لم ينقض أسبوعان ، حتى توطدت أواصر الصداقة بين هنرى وميريام ، وأصبح ينتظرها فى عربته مساء كل يوم فى ميدان « فندوم » ، ثم ينطلق واياها الى المسارح و « الأوبرا » ودار السينما التى كانت حدثا جديدا مثيرا .. والى الملاهى والمطاعم .. كما أخذت تفاجئه فى أيام الآحاد فى مرسمه فى ساعات الصباح كى ترقبه وهو يعمل ..

وتحولت حياته تحولا غريبا ، فباعد كثيرا بينه وبين الخمر .. كان سعيدا، والسعيد لا يحتاج الى خمر !.. واشتدت الالفة بينهما، حتى تصارحا بأحداث الماضى .. حدثها عن « دنيس » ، بل وعن « مارى شارليه » .. وحدثها عن الوحدة التى لازمته السنين الطوال .. ومن ناحيتها ، حدثته هى عن فترات حياتها السابقة ..

وذات ليلة ، صحبها الى حفلة موسيقية .. وراقبها وهى تغمض عينيها ، وتودع حجرها راحتيها ، وتنصت الى السيمفونيات فى نشوة رائعة ، وقد انفرجت شفتاها فى شبه نداء للقبل !.. وفى نهاية السهرة رافقها الى دارها كعادتهما ، فأقبلت تشعل النار فى المدفأة ، ثم أسرعت فأعدت قهوة لذيذة .. وقال لها وهى منهمكة فى اعدادها : « كنت فاتنة الجمال الليلة ، وان كنت أراك فى غير حاجة الى المجاملة .. ثم انك تعرفين أنك جميلة فعلا .. فليس من داع لان أخبرك بذلك .. »

فضحكت قائلة : « بل ان المرأة يسرها أن تسمع الثناء ، ولو كانت على علم بمضمونه .. »

وقدمت القهوة ، ثم انطرحت على الارض الى جوار المدفأة .. وراح يرقبها فى وضعها الفاتن .. وفجأة سألته دون أن تلتفت اليه : « مالك تحدق فى ؟ »

ــ لقد كنت أسائل نفسى ما اذا كنت هنا ، أو أننى أتصورك فقط .. اننى أستطيع أن أرى فى خيالى أشياء .. بل اننى أستيقظ أحيانا فى جوف الليل وانا أعتقد أن لا وجود لك ، واننا لم نلتق قط .. أواه ياميريام .. لشد ما أنا مسرور بتعارفنا ..

ــ هنرى .. أو أحببتنى ؟

وأحس بالقدح يهتز فى يده ، وخفق قلبه جزعا : أتراها مقدمة على هجرانه؟

وآثر فى البداية أن ينكر ، ولكنه لم يقو على المضى فى الانكار ، فقال : « أواه يا ميريام !.. لست أطمع فى أكثر من صداقتك !.. اننى أعرف أنك ستفارقيننى يوما .. ولكن ، دعينا فى صداقتنا الى أن يحين ذلك الموعد » .. واذ ذاك حدقت فى وجهه متفرسة وقالت : « كم يسرنى أن أسمع

هذا .. أنا أيضا أرغب فى صداقتك .. وانى لأراها صنيعا فوق كل ماتتصور .. انك لتعرف اننى لا أحبك ، ولا أريد أن تحبنى ، اذ قد تسىء الى نفسك ، ولست أحب أن أؤلمك .. انما أحب أن أسعدك ! »

وتأهب للانصراف .. لكنها قبل أن ينهض كانت قد قفزت الى جواره ، وألصقت شفتيها بشفتيه قائلة : « لا داعى لأن تنصرف يا هنرى »

صيف .. فى الجنة !

◆ وقضيا ذلك الصيف معا فى « أركاشون » على شاطىء البحر .. يركبان الزوارق ، ويصطادان السمك ، ويستلقيان على سطح المركب مغمضى العينين ، ووجهاهما نحو الشمس ، وأيديهما متشابكة .. يضحكان بغير حساب ، ويثرثران بتلك الحماقات التافهة التى يثرثر بها الناس عادة حين تستخفهم السعادة .. يتناولان الغداء أو العشاء فى شرفة بيتهما ، ثم يخرجان الى نزهة بالعربة فى غابات الصنوبر ، أو يتسكعان حتى يصادفا أحد تلك المقاهى المشرفة على الماء فيجلسا فى شرفته يقشران محار « أركاشون » المشهور ثم يغسلانه بنبيذ (بوردو) الابيض .. فاذا حان المساء قفلا راجعين الى مخدعهما ، حيث يدثر الليل بالظلام نوبات عناقهما المحموم !

انه لن ينساها قط ، ولا هى تستطيع أن تنساه .. وانما ستظل تذكر مدى العمر ذلك القزم القبيح الذى أحبها بكل تلك الحرارة والعنف !.. انها لا تحبه، كانت هى واثقة من ذلك، ولن تحبه يوما .. لقد منحته جسمها، لا قلبها .. وربما كان يحق له أن يأمل فى هذا الحب لو كان أصغر سنا ، وأكثر طيشا ، أما الآن ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، ولحيته قد بدأ يدب فيها المشيب .. فانه أمر بعيد الاحتمال !

وود هو لو استطاع أن يقمع حدة غرامه الجارف ، اليائس ، لكنه عجز .. وكانت تلك مشكلته التى عليه أن يواجهها ويحلها ! انه قد كذب عليها، وسوف يدفع ثمن أكذوبته .. وعندما تحين ساعة الوداع ستكون له الشجاعة والتعقل اللذان يمكنانه من أن يحنى رأسه للامر الواقع ، ويجنب الفتاة محنة مواساة العاشق الباكى اليائس المتوسل !

وفى أصيل يومهما الاخير على الشاطىء ، جلسا متجاورين يرقبان الشمس وهى تنحدر الى المغيب فى سماء صافية الاديم ، وقد سكن الهواء ، ولم يبق فى الماء غير قلة ضئيلة من المستحمين ، راحوا يفركون الملح عن أعينهم وهم يشقون المياه الضحلة ليخرجوا ..

ومدت ميريام يدها فتناولت يده ، قائلة : « لقد كان هذا الصيف أسعد ما مر بى فى حياتى .. لقد قضينا أربعة أسابيع فى الفردوس ،

بحيث لن أنساها ما حييت ! » .. فغمغم وهو يطرق ببصره نحو يدها : « وأنا أيضا ، سعدت أعذب سعادة .. لذلك يؤلمنى أن أرى نهاية سعادتى ! »

فقالت ، ولكن فى لهجة جزم ، لا تساؤل : « انك تحبنى ، أليس كذلك ؟.. لقد فطنت الى ذلك منذ زمن ، لكنى لم أكن واثقة .. »

وهز رأسه صامتا ، كمجرم يقر بذنبه .. ثم قال : « أجل يا ميريام .. الواقع اننى أهواك مذ رأيتك لاول مرة .. أحببتك رغم الايمان التى كنت أبذلها مؤكدا اننى انما كنت أنشد صداقتك .. كنت أكذب لأننى لم أكن أحتمل أن أفقدك ! »

وفى صوت خفيض ، آس ، قالت له : « يؤسفنى أن حدث هذا .. ولقد كنت مخطئا اذ قلت انك لم تكن تطمع فى أن أحبك ، فكل من يحب خليق بأن يرجو أن يغدو محبوبا .. وكذلك كنت أنت !.. لا تكذب .. ان كل ما كنت تبدى من كرم وسخاء وصبر كان مصحوبا برجاء أن أحبك يوما .. انك لم تستوعب الدرس قط .. ستظل تمضى فى الحياة معتقدا ان ثمة فتاة ستقع فى هواك ، وستلقى دائما نفس الخيبة والأسى .. أعلم أننى أجرح شعورك ، ولكننى بدورى فى نفس موقفك .. كل منا يمضى فى الحياة ينشد الحب ، وكل منا لن يحظى به .. أنا لأننى نبذته .. وأنت لانك عاجز قبيح الشكل ! »

وكانت كل كلمة تهوى عليه كالمطرقة فتحطمه .. ورأت الدم يفيض من وجهه ، ومع ذلك فقد مضت تقول فى بطء : « أجل يا هنرى .. أنت عاجز ، قبيح الشكل .. تقضى عمرك محاولا أن تنسى ذلك ، وأن تحمل الناس على نسيانه ، ولكن .. بلا جدوى !.. لا يمكن لفتاة أن تحبك كما ترجو أن تحب .. ولو أن هذا كان ميسورا لكنت أحببتك .. لقد حاولت ، ولكننى لا أقوى .. ولن أقوى .. لا تقاطعنى .. أتعرف لماذا لم أحبك ؟.. لأننى لا أزال أحب ذاك الرجل الذى حدثتك عنه .. ولو أنك منحتنى كل ما أشتهى ، ووفرت لى كل نعيم ورفاهية ، لما أحببتك .. بل لأبغضتك .. ولما ظللت خير صديق لى ، لأنك عندئذ تمثل فى نظرى مثريا يريد أن يبتاعنى بما ينفقه على .. اننى أشتهى كل شىء ، ولكنى أوثر أن أناله من رجل لم أمل اليه .. لا منك أنت ! »

وافترقا على أن يحاولا المضى فى صداقتهما ما استطاعا ، بشرط أن لا يتحدثا عن الحب قط !

غيرة .. وهواجس !

◆ **وكان** من الشاق عليه ان يقنع فى باريس بأن يراها لبضع ساعات كل يوم – ويراها بالقبعة والنقاب والقفاز ! – بعد أن كان يرافقها فى

المصيف ليل نهار ، وتستلقى أمامه فى الزورق نصف عارية !.. لكنه كان مع ذلك عند كلمته ، فلم تجر على لسانه كلمة الحب !.. ومضيا فى صداقتهما ، كل يبذل قصارى وسعه لتسير سيرها الاول ، ولكنه كان يحس أنه انما كان يخدع نفسه ! .. وكان خوف هنرى من أن يفقد ميريام يزيد من تحفظه ، ويذكى من غيرته .. ولقد استنكر ذلك من نفسه ، وحاول أن يغالب اتجاهات مشاعره ، فعاد يلجأ الى الخمر ينشد عونها ..

وأخذت الهوة تتسع بينهما ، رغم جهودهما الصادقة .. فقد راح يرهقها بغيرته الهوجاء ، فاذا احتجت رماها بأنها تشفق عليه لانه عاجز وقبيح الشكل مشوه الخلقة .. ولقد سألته مرات أن يكفا عن اللقاء ، ولكنهما كانا لا يقويان على القطيعة ..

قلب العاشق .. دليله !

ثم جاء الربيع .. وكان « موريس » قد دبر رحلة لفرقة ملهى «الطاحونة الحمراء » الى لندن ، وأعد العدة لاقامة معرض للوحات «هنرى» هناك ، يحضره «هنرى» نفسه .. وجزع الفنان لفكرة مغادرة باريس وفراق « ميريام » ، فرفضها رفضا قاطعا ، ولكن «موريس» راح يلاحقه ملحا : « ان ثمة عشاء سيقام لتكريمك .. كما ان ولى عهد انجلترا سيحضر افتتاح المعرض .. ولن يقبل القوم على الحضور الا لأنك ستكون هناك » .. وانضمت « ميريام » الى « موريس » فى جهوده ، حتى انتهى « هنرى » الى القبول ، قائلا وهو يملأ عينيه بجمال فاتنته : « سأذهب ، على أن لا أمكث أكثر من أسبوع .. وعلى أن تكتبى لى يا حبيبتى .. فاذا احتجت الى ، فأبرقى لى ، أحضر لفورى ! »

وكان الوداع مؤثرا ، برغم قصر فترة الفراق .. ووجد هنرى فى لندن من المشاغل مالم يدع له مجالا للراحة .. وأقبل فنانو لندن يحتفلون به ويكرمونه ، مما حبب اليه الرحلة .. ولكن انقطاع أنباء « ميريام » نغص عليه هناءه ، وبدأت الهواجس تعبث بذهنه ، وتثير قلقه وهمومه .. حتى اذا حان يوم الافتتاح ، كانت أعصابه فى أقصى حالات التوتر ، سيما وانه قضى الليالى السابقة مسهدا فى الفندق ، لا يكف عن الشراب محاولا أن يخفف من حدة هواجسه : ترى ما الذى حل بميريام .. أراحت ضحية حادث ؟.. وكان تارة يتصورها محمولة على محفة الى أحد المستشفيات .. ثم يتمثلها تارة أخرى وهى تحتضر ، فيجن جنونه !

وأصبح يوم الافتتاح وهو شبه محموم ، لفرط قلقه .. فعقد العزم على أن يهرع الى المحطة بمجرد انصراف ولى العهد بعد الحفلة ، فيستقل القطار الذى يبارح لندن فى الساعة السادسة مساء الى « دوفر » ، فلايلبث فى النهار التالى أن يكون فى باريس .. ويطمئن الى مصير فاتنته !

ولكن لا بد لطاقة اعصابه من حدود .. فلما أقبل الامير ، كان هنرى غائبا عن وعيه .. وعبثا راحوا يهزونه ويصيحون به كى يفيق .. **وعندما انتبه الى نفسه فى النهاية ، تمتم وهو يفرك عينيه : « لا بد أن النعاس غلبنى .. ولكن .. يا الهى !.. الامير ؟ » .. فصاح به منظم المعرض وهو يحرق الارم غيظا : « لقد جاء صاحب السمو وانصرف .. أتسمع ما أقول ؟.. ولقد حاولنا ايقاظك ، ولكن سموه أمر بأن ندعك فى نومك ! »**

وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .. وتأمل الحشد الذى كان المكان يزخر به ، ثم هتف فجأة فى جزع كمن تذكر شيئا : القطار ! .. القطار !.. كم الساعة الآن ؟.. الخامسة ؟.. يا الهى !

واختطف قبعته وعصاه ، وقفز نحو الباب .. ثم عاد فانحنى للقوم قائلا فى عجلة : « معذرة سيداتى وسادتى ، فلا بد لى من أن ألحق بالقطار ! »

.. وبينما كان القطار يدلف الى باريس ، خطرت له فكرة بهت لها .. ما كان أغباه اذ لم يفطن اليها مبكرا ! .. **لم لم يعرض على ميريام الزواج ؟.. لقد كان فى جزع من أن يفقدها ، أفلم يكن الزواج خير ضمان يكفل له أن لا يفقدها ؟.. ولعلها كانت تنشد هذا ، فقد كان لديه ما يفوق الحب والمال اغراء ، سيما بالنسبة لها .. كان لديه اسمه المحفوف بالمجد والشهرة واللقب العريق .. لسوف يعرض عليها الزواج بمجرد أن يراها !.. وراح يدبر كل حركة ، ويعد كل كلمة .. سينتهز فرصة يكونان فيها أمام المدفأة فى مسكنها ، وقد تشابكت يداهما .. ثم يسألها أن تصبح « الكونتة دى تولوز لوتريك » !**

واندفع الى أول عربة صادفته وهو يغادر المحطة ، وأمر الحوذى أن يذهب به الى مسكنه بأسرع ما يستطيع ، كى يغتسل ويستبدل ثيابه ، ويسرع الى « ميريام » ..

المفاجأة المشؤومة !

◆ **ولكن** القدر كان قد أعد له خطة أخرى ، فانه وجد فى انتظاره لدى مدام لوبيه رسالة تركتها له « ميريام » على أثر سفره .. رسالة بادر بفضها فى لهفة ، وارتباك ، ليقرأ فيها انها قد عثرت على رجلها المنشود .. ورحلت معه !

وكانت الرسالة يد القدر التى أسدلت الستار معلنة نهاية سعادة « تولوز لوتريك » .. اذ كانت السنوات القلائل التى انقضت من حياته بعد ذلك ــ حتى لفظ آخر أنفاسه فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ ــ من أفظع

السنوات وأبشعها .. فلقد قضت الخمر على كيانه وعقله ، حتى اضطر أصدقاؤه الى ايداعه احدى المصحات العقلية .. ومع ذلك فقد كان فنه يطغى على كل جنون ، وكانت عبقريته تسمو .. حتى وهو فاقد العقل .. فأخرج فى جنونه أروع اللوحات !

وعاد فى النهاية الى أحضان أمه .. كانت هى كل من بقى له فى الحياة .. وكانت الوحيدة التى أحبته فلم يفتر حبها قط .. ولقد غمرتها السعادة - رغم الاسى والحسرات - وهى تجلس الى جوار فراشه ، تمشط شعره بأصابعها فى حنان ، وتحاول الابتسام خلال الدموع المنهمرة من مقلتيها .. كانت سعيدة لانه عاد اليها ، ولم يخيب أملها .. وكانت سعيدة لانه قد آن له أن يكف عن الصراع والكفاح والالم .. سعيدة برغم الاسى الذى كان يعتصر قلبها وهى تراه يتأهب للرحيل .. فقد كانت رحلته هذه المرة بلا عودة !.. ولكنها لم تحاول أن تتشبث به أو تستبقيه .. بل راحت تردد له فى حنان ورفق : « نم ياصغيرى .. نم يا ريرى ! »

وبدأ وجهها الحزين ، الحنون ، يبهت أمام عينيه .. ويبعد.. ويتوارى وراء حجاب شفاف من الظلام ، رغم أن النهار كان قد بدأ يغزو الحجرة بطلائع ضيائه .. كان الظلام يدلهم أمام عينيه .. ولكن النور كان ينبثق فى أعماقه .. وهو يتمتم فى صوت واهن .. محتضر : « ماما .. ماما .. وداعا يا ماما ! »

ولم يكن قد تجاوز السابعة والثلاثين !


دائرة معارف
الثقافة العالمية
مطالعات
فى الكتب والمجلات والموسوعات
ومشاهدات
فى المسارح والمعارض
ودور السينما

مقالات مختارة

اليوم ، اذ يودع العالم الاسلامى شهر الصوم المبارك ، يسر «كتابى» وهو يقدم تهانئه بعيد الفطر للمسلمين فى كافة أنحاء العالم العربى، أن يقرن التهنئة بنشر هذا الفصل الطريف عن «الصوم» ،نقلا عن « دائرة معارف الدين والاخلاق» Encyclopedia of Religion and Ethics

الصوم

◆ **الصوم الاضطرارى .. والصوم الاختيارى :** من العسير أن يرد كاتب أصل الصوم الى منشأ واحد ، فان بعض الدراسات القديمة تبين ان الصوم كان يتخذ وسيلة فى بعض الاحيان للاستعداد لبعض الولائم الدينية ، اذ كان الانسان ـ فى بداية معرفته بالعقائد ـ يصوم اياما قبل الاعياد، لينزل لحم الاضحيات القدسية ـ اذا ما تناوله ليلة العيد من الكهنة ـ على جوف طاهر نظيف ..

ووجد بعض العلماء ان الانسان الاول كان يصوم لاغراض دينية .. ولبعض الطقوس الخاصة بالسحر.. وللحداد والحزن .. وكان الصوم ـ أول ما عرفه الانسان ـ حالة قسرية يجبر عليها ، وذلك فى الفترات التى كان يعز عليه فيها الحصول على القوت .. وعلى مر الزمن استطاع الانسان ، على ضوء تجاربه وخبرته، أن يجد من الفوائد التى كانت تصحب الصوم، ما يدعوه الى أن يمارسه متطوعا من تلقاء نفسه ..

◆ **الصوم كمصدر للوحى :** من ذلك أنه لاحظ ان فترات الصوم القهرى ، كانت تتسم بجلاء الذهن وصفاء النفس ، مما كان يلهمه وسائل التغلب على النوائب .. فأقبل على الصوم متطوعا كلما احتاج الى الهام أو وحى من القوى العليا .. ولا يزال هذا التقليد ساريا فى قبائل «الزولو» ، حيث يصوم الفرد بضعة أيام اذا شاء أن يستلهم الالهة أو أن يحظى برؤيا قدسية .. ايمانا منهم بأن « الجسد المتخم بالاكل ، لا تتكشف له الاسرار الخفية »

ولقد عرف بنو اسرائيل الصوم كوسيلة للاستلهام أو استنزال الوحى . وفى القرآن أن النبى موسى صام أربعين يوما واربعين ليلة على جبل سيناء ، تأهبا لتلقى

الالواح .. ويحتم هنود امريكا الحمر على من يريد منهم أن يصبح طبيبا أن يصوم فترة محددة من الزمن ، يخلو فيهـا الى الارواح الطيبة يستلهمها العلم .. وشبيه بذلك ما يفرضه «الاسكيمو» على من يريد أن يصبح كاهنا ، اذ يجب أن يعتزل الناس ويصوم الى أن تتجلى له الارواح التى ترشـده وتقوده ..

◆ الصوم للتكفير عن الذنوب:

حدس الانسان الاول أن الالم قد يرضى القوى العلوية التى كان يؤمن بوجودها وراء الطبيعة .. ووجد فى الصوم لونا من الالم المقبول ، فأخذ يصوم متطوعا كلما اراد ان يسترضى الآلهـة وأن يكفر عن ذنوبه ويتوب ..

وقد عرف بنو اسرائيل الصوم لهذا الغرض ، ولعلهم أخذوه عن الفراعنة ، اذ كان شائعا لديهم .. كذلك أخذت به المسيحية والاسلام، فالمسلم يصوم ثلاثة أيام اذا أراد أن يكفر عن يمين حنث فيها.. وفى القرآن أن الساعى الى الحج اذا ما خرق بعض طقوس الحج، وجب أن يصوم ثلاثة ايام فى الاراضى المقدسة وسبعة اذا رجع !

وعلى العموم ، فان الصوم قد رافق تاريخ الانسان كوسيلة للتطهر والتقرب الى الله ــ أو الالهة ، أو القوى العلوية ، حسب المعتقدات المتنوعة لكل جماعة من البشر ــ أو التأهب لبعض الطقوس الدينية..

ومرد ذلك الى اعتقاد الانسـان الاول أن الاكل قد يخلق تأثيرات «شريرة» على الجسم ، كعسر الهضم والمرض من ناحية ، وكالاحلام المزعجة من ناحية أخرى ، وكيقظة الغرائز الجنسية من ناحية ثالثة ، وكلها أمور كانت تعزى الى حلول الارواح الشريرة فى الجسم ، فلا سبيل الى التخلص منها الا بالصوم لطرد تلك الارواح .. (وأساطير اليونان الاقدمين حافلة بذكر هذا اللون من الصوم !)

◆ الصوم عند قدماء المصريين:

ولقد ذكر المؤرخ «بلوتارك» أن قدماء المصريين عرفوا الصوم كوسـيلة للزهد والتقشف ارضاء للالهة .. فكانت مصر بأسرها تحتفل باليوم الاول من الشهر التاسع للعام ، وتستقبله بالـولائم والاسراف فى الشراب والطعام ،لاسيما السمك .. ولكن كهنـة « ايزيس » كانوا يحتجبون فى ذلك اليوم ويلوذون بالمعابد ، منقطعـين عن كل أكل وشراب !

◆ الصوم عند بلوغ المراهقة :

ولا تزال بعض القبائل ــ التى تعيش حتى اليوم بعيدا عن أضواء العلم والحضارة ــ تفرض الصيام على ابنائها اذا ما وقفوا على أعتاب مرحلة البلوغ والمراهقة .. فيحتم على الصبى فى القبـائل الاصيلة فى « نيو ساوث ويلز » و « نيو هبريد» و «نيوجينيا» و «انداماان» أن يصـوم يومين كاملين عن كل

شىء عدا الماء ، اذا ما بلغ هـذه المرحـلة ..

أما الهنود الحمر الامريكيـون ، فيفرضـون على الصبى عند البلوغ أن يعتزل الناس ويلزم الصيام حتى تتجلى له – فى منامه أو أحلام يقظته أو تخيلاته – الروح الحارسة التى سترافقه حتى نهاية عمره ، تصده عن الشر وتهديه الى الخير – وهى فكرتهم البدائية عن «الضمير»!

صوم النساء فى الحيض :

وتحتم قبائل سكان « كولومبيا البريطانية » الاصليين على الفتاة أن تصوم اربعة أيام عن الاكل اذا حاضت – واتتها العادة الشهرية – للمرة الاولى .. وأن تمتنع عـن اللحوم الطازجة كلما واتتها بعد ذلك ، طيلة حياتها !

وكان الشاب والفتاة – لـدى أهل الصين القدماء – يصومون عن الطعام أياما قبل الزواج ، تطهـرا وزلفى الى الالهة لتكتب لهمـا السعادة فى حياتهما الجديدة ..

◆ الصـيام أثنـاء الحمل :

وقد يكون الصيام جـزئيا ، أى ينصب على بعض اصناف الطعام والشراب فقط ، اذ كان الانسان الاول يعتقد ان للاكل تأثيرا مباشرا على كيانه ، بل وتكوينه البدائى قبل مولده .. فـكان الاب والام يحرمان نفسيهما من بعض أصناف الطعام أثناء فترة الحـمل وتكون الجنين .. وهو اعتقاد ناشىء عن خرافات السحرة الاقدمين، ولايزال سائدا لدى بعض القبائل ، لاسيما جزر «الميلانيز» .. وتصوم المـرأة من عشائر « الـكويتا » – فى نيوجينيا – عن أكل السمك وبعض أصناف الخضر أثناء فترة الحمل ، ويشاركها زوجها هذا الصوم .. كما تمتنع الحامل فى بريطانيـا الجديدة – « نيو بريتين » – عن تناول بعض انواع السـمك ، ايمانا بأن لها تأثيرا مباشرا على اخـلاق الجنين وتكوين شخصيته.. وتمنع الحامل فى جزر « اندامان » عن أكل لحم الخنزير والسـلحفاة وعـسل النحل ، فترة قبل الوضـع ، وفترة مماثلة بعده ..

◆ صيام الزوج أثناء حمـل زوجته: وتفرض قبائل «كوروادوس» – بأمريكا الجنوبية – على الزوجين أن يمتنعا عن تناول اللحوم بجميع أنواعها خلال فترة حمل الزوجة !..

أما «الاكسينجو» – وهم من عشائر الهنود الحمر – فيحـرمون على الزوج وحده السمك واللحـوم والفواكه أثناء حمل زوجتـه .. وكذلك تفرض قبائل الاسكيمو التى تعيش حول البحر الكاريبى ، على الاب أن يصوم أربعين يوما قبل مولد ابنه واربعين بعدها ، وان يمتنـع بعد ذلك عن بعض أصناف الطعام فى فترات متفاوتة ، حرصـا على حياة ابنه !

ومن أغرب أنواع الصوم ، ذلك الذى يفرض على أبناء قبـائل

« نيوجينيا » .. اذ يحرم عليهم فى مرحلة الشباب بعض أنواع المأكولات ، والا حاقت بهم أسوأ الاحداث .. وتؤمن قبائل «واجوجو» – بشرق أفريقيا – بأن بعض أنواع اللحوم ، كالكبد والكلى والقلب ، محرمة فى مرحلة الطفولة ..

◆ الصيام وقت المرض :

كذلك تعتقد هذه القبائل – وتشاركها قبائل « التينا » فى « آلاسكا » – على ما بين الاثنتين من تباعد – ان الصوم أثناء المرض يساعد على الشفاء .. ولا يزال الطب الحديث ينصح بالصيام عن الطعام فى بعض حالات سوء الهضم واختلال الامعاء

◆ الصيام حزنا وحدادا :

والصيام فى حالات الحزن والحداد ، تقليد خالط تاريخ الانسان فى كثير من مراحله .. ويعزوه البعض الى رغبة الحزين فى مشاطرة روح فقيده الحرمان من الطعام خلال أيامها الاولى فى عالمها الجديد .. بينما يرى بعض آخر أنه يرجع الى الخوف من ابتلاع أى شىء تعرض لجو سرى فيه الموت !

واقتران الصيام بالحزن شائع جدا فى أيامنا هذه لدى قبائل جزر اندامان ، ونيوجينيا ، وفيجى ، واورورا ، وسولمون (جزر سليمان) .. ولدى قبائل «يوروبا» الافريقية ، وهنود أمريكا الحمر ..



لكل رسالة قصة

◆ فى هذا الباب ، أزمع ان أقدم لك بين الحين والآخر رسالة من الرسائل المشهورة المأثورة عن عظماء التاريخ ، فى شتى مناسبات حياتهم ، مع التقديم لكل رسالة بكلمة عن شخصية صاحبها والمناسبة التى كتبها فيها .. وفيما يلى الرسالة الاولى ، وهى لمدام دى بومبادور :

◆ **كانت** « جان انتوانيت بواسون » مسوقة منذ حداثتها لأن تكون عشيقة لملك ! .. فلقد رأى أبوها انها ليست أهلا لغير ملك ، فعنى بتعليمها ، ثم دفع بها الى احضان زوج غنى .. وتنبات لها

عرافة عجوز بأنها ستغدو عشيقة ملك فعلا ، فأخذت الفتاة تبحث عن هذا الملك !٠٠ وسرعان ما أصبحت من نجوم المجتمع الراقى ، وهى سادرة فى البحث عن بغيتها ، حتى قدر لها أن تلتقى أخيرا بلويس الخامس عشر فى احدى الحفلات الراقصة فى سنة ١٧٤٤ ٠٠

وفتنته لتوها ، فأعرضت عن زوجها ،وغدت عشيقة الملك ٠٠ رسميا !٠٠ وسرعان ما أصبحت تدعى « الماركيزة دى بومبادور » !

وكان لها من الذكاء مثل ما لها من الجمال ، فلم تقنع بالحب وحده ٠٠ بل راح الطموح يدفعها ، فلم تلبث ان أصبحت الوحيدة التى تفض بريد الملك ، والتى يسعى اليها وزراؤه أولا ، والتى تتوقف على موافقتها قراراته ٠٠ وتبادلت الرسائل مع الديبلوماسيين الاجانب، وكبار مشاهير العصر ، وقادة الجيش ٠٠وضربت فى فن الحفر بسهم وافر، وكرمت الكتاب والفنانين الموهوبين ٠٠ واستغلت الاموال الطائلة التى كان الملك يغدقها عليها ، فى مساعدة الفتيات الفقيرات ، والرجال المسنين ، وفى تعمير القرى المخربة ٠٠

ثم قدر لغرام لويس الخامس عشر أن يفتر ، فاستبد القلق بمدام دى بومبادور ، وانتهت الى أن قررت أن تقمع شخصية العشيقة فى نفسها، فتنزل عن نزواتها ، لتبقى الحاكمة المطلقة على فرنسا ٠٠ ومن ثم مضت تشجع الملك فى مباذله ، حتى لقد كانت تقود اليه الخليلات بنفسها !

وكما عنيت بدنياها ، فانها اهتمت بخلاص روحها من الادران ، فكتبت الى البابا « بنديكت » الرابع عشر ، هذا الخطاب الذى سردت فيه ما فعلته للتكفير والتوبة ، آملة أن يقر أفعالها ويباركها ٠٠

من مدام دى بومبادور الى البابا بنديكت الرابع عشر

« فى أوائل سنة ١٧٥٢ ، رأيت تحت دوافع لا داعى لتعدادها هنا ، أن لا أكن للملك سوى الشعور بالجميل وسوى أطهر العواطف ، واطلعت جلالته على عزمى ، راجية اياه فى الوقت ذاته ان يأمر أطباء « السوربون » بأن يجتمعوا معا للتشاور ، وأن يكلف الاب الذى يتلقى اعترافاته بأن يتبادل الرأى مع سواه ، سعيا وراء الوصول الى وسيلة يتسنى لى بها، وفقا لمشيئته، أن ابقى الى جواره ، دون التعرض للريب فى خطيئة لم أعد أقارفها ٠٠

« ولما كان الملك يعرف اخلاقى وطباعى ، فقد شعر بأن لا أمل فى أن انكث بما صممت عليه ، ومن ثم أذعن لرغباتى ، فكلف الاطباء بالاجتماع للتشاور ، وكتب الى الاب «بيريسو» يستشيره ، فطالبه هذا بأن يحقق بيننا انفصالا تاما٠٠

ولكن الملك أجاب بانه لا يمكن أن يقبل مثل هذا الاقتراح، وانه ما سعى الى اجراء لا يدع للعامة أى مجال للريب ، من أجل نفسه ، وانما لارضائى وحدى .. اذ اننى ضرورة لازمة لسعادته ، ولتصريف أموره على الوجه السليم .. فأنا الشخص الوحيد الذى جرؤ على أن يجاهره بالحقيقة ، وما انفعها للملوك !

« واجاب الاب الطيب بنفس رده الاول ، لم يغيره، املا فى أن يزحزح الملك عن اصراره .. وكان أطباء السوربون كفيلين بأن يجيبوا بردود تمكن من تدبير وسيلة ، لولا ان « الجيزويت » رفضوا منهم هذه الموافقة .. وتحدثت فى ذلك الوقت الى عدة أشخاص ممن كانوا حريصين على خير الملك والدين ، فحذرتهم من أن الملك لن يحجم - اذا عزف الاب بيريسو عن تحقيق أمنيته - عن أن ينغمس فى حياة يلحق عارها بكل فرد !.. ولكننى أخفقت مع ذلك فى مسعاى لاقناعهم ، ولم يلبث أن اتضح سراعا ، اننى لم أكن مخطئة فيما قلت ..

« ثم ، توالى تفكيرى فى النوائب التى كانت تطاردنى حتى فى أوج حظى .. وأيقنت أن خيرات هذه الدنيا لا يمكن ان توفر السعادة لانسان ، لانى نلت كل الخيرات ومع ذلك فقد عجزت عن ان أسعد .. وزهدت فى ألوان اللهو التى كانت توفر لى المتعة فيما سبق .. فتكاتفت كل هذه العوامل لتلهمنى بأن لا سعادة الا فى الله..فتوجهت الى الاب « ساسى » كرجل تغلغلت فى نفسه هذه الحقيقة ، وكشفت كل ما فى نفسى له ، فعمد فى تكتم الى اختبار اخلاصى ، من شهر سبتمبر حتى نهاية يناير سنة ١٧٥٦ .. ثم اقترح ان أكتب لزوجى رسالة ، ما زلت أحتفظ بمسودتها التى سطرها هو بنفسه .. ولكن زوجى رفض أن يرانى ثانية .. فدفعنى الاب الى أن انشد منصبا فى قصر الملكة ، صونا للمظاهر ، وأن ازيل السلم المفضى الى جناحى بحيث لايعود الملك يستطيع ان يفد الى خلال الحجرة المتصلة به .. وبالايجاز ، وضع لى خطة للسلوك ، اتبعتها فى دقة واعتداء ..

« واحدثت هذه التطورات ضجة فى البلاط وفى المدينة .. وآلت الهيئات النشيطة من كل طبقة على نفسها أن تتدخل ، فاذا بالاب « ساسى » يتعرض بسببى لكثير من الحملات ، حتى انبأنى آخر الامر انه سيرفض منحى بركاته طالما بقيت فى البلاط ! .. ولقد اطلعته على كل الادلة التى تنم عن اتباعى لكل ما فرضه على ، وأثبت له ما صارت اليه حقيقة علاقتى بالملك وفقا لما رسمه لى .. فانتهى الى أن أفضى لى بأن الناس قد سخرت يوما من الاب

الذى يتلقى اعتراف الملك ، عندما قدم الابن غير الشرعى « الكونت دى تولوز » الى هذه الدنيا ، وأضاف انه لا يبغى أن يجد نفسه يوما فى مركز كهذا !.. وافحمنى مثل هذا المنطق ، ولكن الرغبة فى أن أؤدى واجباتى دفعتنى الى المجادلة ، حتى اذا استنفدت كل حجة خلتها كفيلة باقناعه بأننى انما أصدر عن حوافز دينية ، لا عن تآمر ودس ، كففت عن مقابلته ..

« ثم حل يوم ٥ يناير المقيت ، وتبعته الدسائس كما حدث فى العام الماضى .. وبذل الملك كل ما فى وسعه لاقناع الاب ديماريه بصدق ولائه الدينى .. ونشطت للعمل نفس الدوافع القديمة ، وانتهى الامر الى عين الجواب السابق .. واذا الملك المتحمس فى رغبته لاداء واجباته الدينية يحرم من هذه الواجبات ، وينحدر - بعد فترة وجيزة - الى نفس الاخطاء السالفة ، التى كان من الممكن انتشاله منها لو انهم عاونوه بنية طيبة ..

وعلى الرغم من الصبر المتناهى الذى اظهرته خلال الثمانية عشر شهرا التى اخذت فيها بتوجيهات الاب «ساسى» ، الا أن قلبى راح يتمزق للظروف التى كنت اعانيها ، فلجأت الى استشارة رجل أمين أثق فيه .. وتأثر لحالى . فتلفت حوله يبحث عن وسيلة لوضع حد لشقوتى .. وشرح أحد الآباء الروحيين من أصدقائه (وكان رجلا أوتى من العلم والذكاء قسطا كبيرا) ، موقفى لرجل على شاكلته أوتى كل مايؤهله لأن يصدر رأيا سليما .. فأجمع الاثنان على أن مسلكى بات يوحى بالتوبة والتكفير .. وكان من نتائج هذا أن عمد الاب الذى يتلقى اعترافى الى وضع حد للظلم ، بعد فترة جديدة من الاختبار ، فسمح لى بأن أتلقى البركة .. ومع أننى أشعر فى دخيلة نفسى بشىء من الالم اذ أرى من الضرورى أن أكون على حذر حتى لا يأخذ الاب بالوشايات الشنيعة التى تحاك حولى ، الا أنى أجد فى هذا الالم عزاء كبيرا لنفسى .. »

◆ وسواء كان البابا قد صفح عن تصرفات مدام دى بومبادور أو لم يصفح ، فانها ظلت « الملاك الحارس » الذى يرشد لويس الخامس عشر ، ولو أن عبقريتها كانت فى الواقع نذير نحس لفرنسا : فبفضل جهودها وقعت فرنسا معاهدة فرساى ، متحالفة مع روسيا والنمسا .. ورفضت فرنسا - أو مدام دى بومبادور - تجديد اتفاقية الحياد مع بروسيا ، لأن فردريك الاكبر نظم بعض الشعر الذى يشينها ويكشف فضائحها !.. وكان الحلف الثلاثى سببا مباشرا لحرب السنوات السبع .. الخ

وعلى الرغم من هـذه النكبات ، فان مدام بومبادور ظلت متشبثة بمركزها ، وتذكرت ما لقيته من صعاب فى الحصول على الغفران من اليسوعيين « الجيزويت » فانضمت الى العلماء والوزراء فى مهاجمتهم ، مما انتهى الى حل طائفتهم فى فرنسا فى ذلك الحين ..

ثم أخذت شئون الدولة ونشاطها الزائد فى المجتمع يؤثران على صحتها حتى انهارت .. فانتهى بها المطاف الى فراش الاحتضار وهى بعد فى الثانية والاربعين .. وفيما كانت تلفظ آخر انفاسهـا ، تألق نجم خليلة أخرى للملك ، فاقتها فى المباذل واستغلال النفوذ .. تلك هى « مدام دى بارى » ! (ولها هى الاخرى قصة ورسائل سوف ننشرها فى عدد قادم)

روضة الشعر

فى سنة ١٨٦٧ ، أصدر الشاعر الفرنسى الكبير «تيودور دى بانفيل» ديوانه (المنفيون) ، الـذى قال عنه : « اذا كتب لى أن يبقى شىء منى ، وددت أن يكون أثرى هـذا الكتاب » .. ومن أروع مقطوعات الديوان هذه القصيدة التى أطلق عليها « ذنوب البجعة » :

كانت البجعة تسبح
على البحيرة ذات المرآة الفضية
وحام حولها الغربان السود
وشتموها بلهجة عدوانية :
« اختفى يا لابسة العاج والزنبق
« ياحاملة الثلج على جنبيك
« كما يرتدى الألعبان ثوب التهريج
« ان فى اللون الاسود وقارا
« ونظافة وحلاوة ومرحا
« والاسود رداء القضاة »
ثم انقض على البجعة من شاهق
نسر محلق جارح
ومن البجعة السكرى بالحبور
وبأنوار الشمس
سالت دماء زكية
كست المياه بالارجوان الملكى
وعندئذ غردت البجعة
(والبجعة تغنى دائما قبل موتها ..
كما تقول الاساطير)
غردت وملأ نشيدها المغاور
وأنشدت تراتيل النهار وبهائه
وهامتها متوجة بالبياض
وبكى القمرى فى السماء
وبكت الورود والبلابل
ولكن الحمير صاحت بصوتها البليد
« ما هذا المرتل الملعون ؟!
« غناؤنا أشجى من غنائه ! »

... ثم اهتزت الغابة
وفى جوها المسحور
مرت فى السماء ذات الستائر الخضراء
أسراب مجنحة من عالم آخر
هى جوقات الملائكة
وكل ملاك يمر بالبجعة التى تحتضر
يلقى على أخته تحية المساء ..



بقلم : كمال الملاخ

... كل شىء هادىء فى ميدان النشاط الفنى ، فى هذه الايام .. بل هو أقرب الى الركود .. فلا شىء يثير الوجدان ولا النظر .. ولا حتى السمع !.. فالمعارض فى نوم عميق ، تبحث عمن ينسقها ! وليس فى أفلام السينما شىء يستحق النقد والتحليل الا أفلام تعد على أصابع اليد الواحدة .. أما المسرح فهزيل ، ويبدو لى كالعجوز « المتصابى » حين يخلد الى الذكريات فيستعيدها لنفسه أكثر من مرة ، ليحزن من أجلها أكثر من مرة .. ويضحك لنكته اكثر من مرة ! .. وهكذا فقد مجده وابعد جمهوره .. بيده لا بيد عمر !

التصوير والنحت

◆ لا أعرف ، ولا أدرى كيف فات المشرفين على تنسيق معرض « الربيع » و « صالون » الفنون الجميلة أن يتجنبوا اقامتهما فى هذه الايام ، ودرجة الحرارة الخانقة كفيلة بابعاد أى جمهور عن زيارة معرض من معارض الفن !.. أقول هذا ومعرض صالون جمعية محبى الفنون الجميلة قد افتتح أمس — فقط لا غير ! — أما معرض الربيع الذى ينظمه اتحاد كلية الفنون الجميلة ، فموعد افتتاحه عند ربى !

وأعتقد أن لا علاج لكل هذه الفوضى غير أن ترسم سياسة محترمة للفنون فى مصر .. أما أن تترك هكذا ، فهذا أمر سيسير حتما بالفنون الى مستوى لانرضاه لبلادنا !.. وقبل أن أنتهى من هذه النقطة أود أن أوضح أن العيب ليس كله عيب الجمعيات القائمة بأمر تنظيم هذه المعارض ، ولكن هناك مشكلة المكان ، وهو غالبا ما يتبع جهة أخرى بعيدة كل

البعد عن الفن كالجمعية الزراعية التى تمنح مثلا مبانيها بالجزيرة كما تشاء ، ولمن تشاء !

✻

◆ **ولعل من أهم الأحداث** الفنية الداخلية فى هذه الايام ، « المعرض الدولى الاول لفن السياحة » ، وهو ما يزال مقاما بنادى المعلمين بالجزيرة .. وقد اشتركت فيه ١٨ دولة أجنبية ، من بينها أمريكا واسبانيا وفرنسا وايطاليا واليونان وانجلترا والهند والنمسا ، ودول الستار الحديدى كتشكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر و.. عدا مصلحة السياحة المصرية وأفراد من المصورين الفوتوغرافيين المصريين ، الذين أعدت لهم مسابقة خاصة ذات جوائز مالية ، كان الفائز الاول فيها أنيس رزق الله ، والثانى جميل حلمى ، والثالث يوسف عبد الشهيد (الذى نحلى «كتابى» بلوحاته الجميلة بين الحين والحين) .. هذا عدا مسابقة ثالثة موضوعها استعمال الصور الشمسية فى التذكارات السياحية ، وقد فاز بالاولوية فيها خليل كامل وأنيس رزق الله (مشتركين) ، وبالجائزة الثانية جورج أسعد .

وقد منحت مصلحة السياحة كأسها الى جناح اسبانيا ، لحسن تنسيقه .. أما جوائز جمعية الفنون الجميلة التى اشتركت مع مصلحة السياحة فى تنظيم نفس المسابقة ، فقد فازت بها سويسرا ثم أسبانيا فالنمسا .. (هذا وقد انسحبت تركيا فى آخر لحظة قبل الافتتاح ، فلم تعرض شيئا !)

وقد لاحظنا الانسجام فى تنسيق هذا المعرض الدولى الاول ، الا أنه فشل من ناحية جذب الجمهور ، بسبب فرض سعر معين للدخول ، مما جعل الكثيرين يحجمون عن دخوله ، فى حين كان الواجب ترك بابه مفتوحا بالمجان ، مع تقديم موعد اقامته ـ وهذا ما نطالب به فى العام القادم ـ كما ننقد بشدة وضع بعض الدول التى لم تمثل نفسها ، وانما مثلتها بعض شركات الطيران التابعة لها ، مما أضفى صبغة تجارية بعض الشىء على أجنحتها ، فى الوقت الذى لم تشترك فيه بعض دول الجامعة العربية مثل لبنان .. وهو بلد سياحى كان من الاوفق له أن يتعاون فى هذا المعرض الدولى .. لا أن يبعد عنه

السينما :

◆ ومن الافلام المعدودة التى رأيناها فى الشهر الماضى ٤ أفلام تستحق الاهتمام وهى : « فيفا زاباتا » ، و « ألوان من الحب » ، و « ممر خيبر » و « الدائرة المستديرة » .. غير أفلام أخرى سنمر بها سريعا كالممثلة أو «الشهرة والمال »



رفيقة الاسفار فى الحل والترحال
كونتيننتال
وحيثما دعت
المصلحة . يتأبط
رجال الاعمال
كونتيننتال
"البورتاتيف"
الآلة الكاتبة العربية فخر الصناع الألمانية
الموزعون للشرق
محلات النجار
٦٢ شارع ابراهيم باشا - القاهرة

◆ **« فيفا زاباتا » : أو «يحيا زاباتا »** ، هو فيلم عن صراع شعب أعزل ، الا من ايمانه بحريتـــه ، حول أرضه وأرض أجداده ضد غاصبيها من كبار الملاك والحكام المستبدين الطغاة . والقصـة كتبها الكاتب الامريكى المعاصر « جون شتاينبيك » – قبــل أن يغير آراءه – وأخرجهـا للسـينما المخرج الأرمنى « ايليا قازان » ، دون تزويق ولا ألوان .. واعتمد فى اخراجها على المناظر الخارجية الواقعية ، فاستغل الاســلوب الايطالى الحديث – وان فاقه فى هذا الفيلم فى الحركة المستمرة – على أن عيبه كان أنه لم يتحكم فى اختصار الحوار .

وتدور القصة فى أجواء الريف المكسيكى قبل الحرب العالميـة الاولى ، أو فى عام ١٩٠٥ عـلى وجه التحديد ، حين يتقدم جمع من الفلاحين الى الحاكم يشكون له كبار الملاك الذين اغتصبوا أرضهم .. ويريد الحاكم أن يخـدرهم بالوعود الكاذبة .. ولكن واحـدا منهم «زاباتا» يقاومه بالحجة .. ويرجع الى بلده فيلتف حوله أهل قريته الذين رأوا فيه زعيما – وان كان جاهلا حتى بمبادىء القـراءة والكتابة ! – ولكنــه لايلبث أن يتعلمهما .. يتعلمهما على يد من عشقته ورفضته فى البداية حين لم يقبل والدها أن يزوجهـا من فلاح فقير مثـله .. ولكنه الآن زعيم .. زعيم رفعه الشعب وولاه قيادته ، فرحب به أهل الفتاة الآن بل سعوا اليه !.. عـلى أن قصة هذا الحب والزواج ثانوية فى الموضـوع كله .. **وانما عماد الفكرة أن الزعيم قد تجنب أخطاء من سبقوه ، فأبى أن تنسيه المناصب مبادئه ، بل وضحى بحياة أخيـه فى سبيل أن لا يخذل مواطنيـه الفلاحين ، ويواصل كفاحه الصارم ضد أصحاب الاراضى الغاصبين..**

ولكن الطغاة لايتركونه آمنـا ، فيدبرون له مقتـــلا وموعدا مع الموت ، وينخدع هو بطيبته فيمضى اليه ، برغم توسلات زوجته !.. ويأبى الشعب أن يصدق أن كفاحه سينتهى بموت زعيمه ، فيقـرر المضى على نهجه واتمال رسالتـه التى عاش ومات من أجلها ..

وقد مثـل « زاباتا » (مارلون براندو) .. وكانت بساطة اخراج الفيلم سببا قويا فى نجاحه ، الى جوار تعبير الممثلين وقوة القصة – وان كان المكياج فى بعض المواقف يبدو مفضـوحا – ومما يذكر أن مخرج هذا الفيلم قد سـبق له أن اشترك مع ممثله الاول (براندو) فى فيلم « عربة اللذة » ، الذى فاز منذ عامين بجائزة « أوسكار» ، والذى مثلت بطولته النسائيـة يومئذ النجمة « فيفيان لى » .. وقد كان ذلك الفيلم سببا فى تألق نجم مارلون براندو ، فأسندت اليه بعدئذ عدة أدوار ممتازة ، لعـل





أهمها فيلم يوليوس قيصر الذى اضطلع فيه بدور « مارك أنطونى »

◆ **الممثلة .. أو « الشهرة والمال »** : ذهب الجمهور ليرى فيلم « الممثلة » ـ أو كما ترجم : « الشهرة والمال » !.. الشهرة التى عرفها المتفرج عن « سبنسر تراسى» و «جين سيمونز » بطلى الفيلم .. والمال الذى أراد المنتج جمعه من المشاهدين ، بدون مجهود كبير !

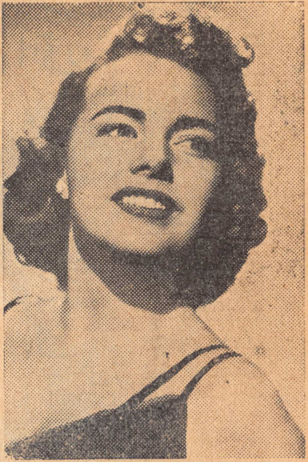
أما القصة فقد ألفتها الممثلة « روث جوردن » لاخراجها على المسرح .. فجميع حوادثها ـ ان كانت هناك حوادث ! ـ تجرى فى داخل منزل قديم صغير



تيرون باور فى فيلم « ممر خيبر »

تسكنه عائلة موظف فقير هو «سبنسر تراسى» ، الذى ينحصر كل تفكير ابنته الوحيدة « جين سيمونز » فى أن تصبح ممثلة ، ومن هنا ترفض أن تتزوج من جار غنى شاب أغرم بها وأحبته ! كما تعارض رغبة والدها الذى ينصحها بتعلم هوايته المحببة ـ الرياضة البدنية ـ لكى تكون مدربة للالعاب فى مدرسة بلدته .

أما الأم (تريزا رايت) فانها تشفق على رغبة ابنتها وتحاول أن تقنع زوجها بتحقيق أمنية ابنتهما .. ومن ثم يدور كل حوار الفيلم فى جو خانق على هذا المنوال لمدة ساعتين ! فاذا ما اقتنع الوالد ورحب فى النهاية بتحقيق حلم ابنته ، أسدل الستار !.. **فلا يرى الجمهور الابنة وقد نجحت وتألقت على المسرح كما أرادت ، وكما انتظر الجمهور بدون جدوى ، بعد أن ضاق بالحوار الذى يجرى طول الوقت على محاسبة الزوج لزوجته عن ثمن اللحم وفاتورة البقال ومصاريف الغاز والفحم ! والفيلم كما ترى لا يصلح الا للمسرح . ولا نبالغ اذا قلنا أن المنظر كان واحدا لم يتغير تقريبا داخل المنزل . أما ما انتظر أن يراه المتفرجون من ابداع (سبنسر تراسى) وفن (جين سيمونز) فلم يبال به المنتج بل اكتفى بأن يخدع الجماهير بشهرة أسماء الممثلين !.. ثم زاد الطين**



النجمة الجديدة تيرى مور ، بطـلة فيلم ((ممر خيبر))

بلة أن الاخـراج بدوره كان عاديا جدا وأقرب الى الاخراج المسرحى منه الى السينما !

◆ **ممر خيبر :** يتهـافت الجمهور على حجز مقاعده لمشاهدة « فرسان ممر خيبر » . ومع ذلك فالفيلم متوســط فى اخراجه ، ضعيف فى مناظـره ، عادى فى تمثيله !.. وقد قام بأدواره الاولى : « تيرون باور » و « تيرى مور » و « مايكل رينى »

وقد اغتر النظارة واندفعوا الى رؤيته بحكم أنه فيلم((سينماسكوب)) ملون ثائر .. ومع ذلك فلم نحس باستغلال المناظر استغلالا كافيـا الا فى الخمس الدقائق الاولى لبداية الفيلم ، والتى يسرد فيها أسماء من قاموا به !.. أما بعد ذلك فقد رأينا حوادث الفيلم ((غير موصولة)) من ناحية ((المونتـاج)) ، وكأن مقصا قد داعب حوادثه وانسجامه أكثر من مرة .. وان كنت لا أعتقد ذلك ، وانما هو ضعف ((المونتير)) وعدم سيطرة المخرج على تنقيـة خيال المؤلف فى سرد القصـــة .. التى تدور حوادثها بين مسالك الجبال فى الهند ، فى عهد الملكة فيكتوريا ـ أو فى أشــد أيام الاستعمار البريطانى لها ـ حين يبدو كابتن كنج (تيرون باور) الضـابط فى الجيش الانجليزى المستعمر ، وهو يقود فصيلة من جنوده أغلبهم من الهنود ، ليؤدب أميرا هنديا شابا معتصما بالجبل، لكن البطل الهندى سرعان ما يرد القائد البريطانى الى ثكناته ، بعد أن ينقذه أحد الهنود الخونة !.. وبرغم أن كابتن كنج ضـابط فى الجيش البريطانى فان زملاءه فى المعسكر يتجاهلونه ويعاملونه معاملة غريبة بعيدة عن المساواة .. والسر أن دماءه ليست سكسونية نقية وانما هى خليط من دم أمه الهندية وأبيه الانجليزى !.. وتتعلق به فى المعسكر ابنة قائده ، التى تحتج على معاملته ، ولا من مجيب ! وتدور بينهما بعض مغامرات حب تافهة ، ثم لا يلبثان أن يضلا الطريق فى

الصحراء ، وتهب عليهما فجأة أعاصير من رياح الهند العاتية ، يفيد منها الهنود فيحاصرونهما فى أحد الاطلال الهندية القديمة .. ومن ثم تقوم الدوريات للبحث عنهما ، حتى تجدهما فى الصباح التالى ! غير أن بعض هذه الدوريات يقع فى أسر الهنود ، فتدور المعارك من جديد .. بينما تقنع الفتاة آخر الامر بأن تنتقل الى بلدة أخرى ، بعد أن تتفق مع الشاب على متابعة غرامهما واتمام الزواج فيما بعد .. ثم يهرب تيرون باور الى الجبل كى يخدع الامير أو الزعيم الهندى الشاب ، ويحاول قتله بالفعل ، ولكن عاطفة أنهما كانا أخوين فى الرضاع تمنع كليهما من المضى فى الصراع .. ولو أن الامير يعود من جديد على رأس فصيلة هندية ويحاول الانتقام من عدوه .. وينتهى الفيلم باصابة الاثنين !

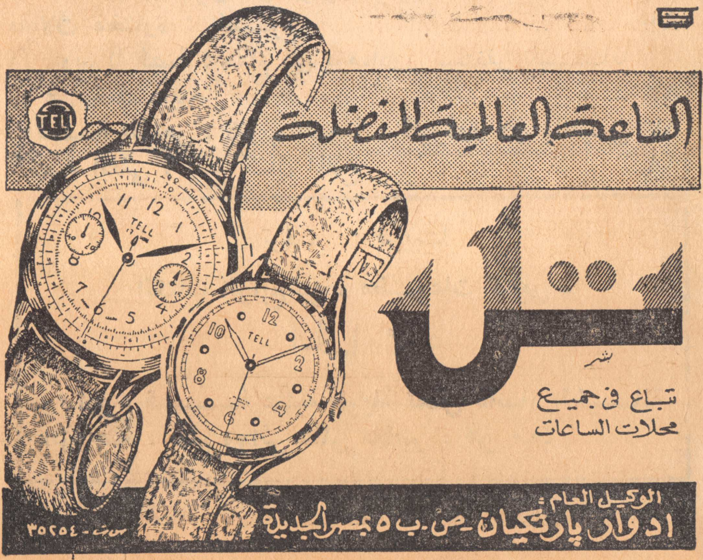
والفيلم كله كما ترى .. يصور ويمجد الاستعمار !

والحبكة الروائية فيه خائبة .. والتصوير عادى .. والحركة بطيئة .. ولا استغلال هناك لفكرة السينماسكوب . حتى مناظر الهند الغنية قد ظهرت فاترة ! أما « المونتاج » فكان مفككا . وكان يصح للمشرف على تنفيذ هذا الفيلم استغلال الموسيقى أكثر ، ولكنه لم يفعل .. فيما عدا أغنية سخيفة ورقصة ليس فيها شىء من فن ولا سحر الشرق أو الهند !

وحتى التمثيل .. كان متوسطا !



لذيذة ومنعشة
Coca-Cola
TRADE MARK REGISTERED
اشرب
كوكا كولا
ماركة مسجلة
الشراب الفريد
أصحاب امتياز التعبئة : مصانع تعبئة سيكو
405/SEP-Ag.
٢٣٠٩٤



الساعة العالمية المفضلة
TELL
تل
تباع في جميع
محلات الساعات
الوكيل العام :
ادوار بارتكيان - ص. ب ٥ بمصر الجديدة
٣٥٢٥٤

محتويات الكتاب

الموضوع — **الصفحة**



ضيفان جديدان بحديقة الحيوان

تصوير الاستاذ
يوسف عبد الشهيد المحامى

كتابي

مشكلة الجنس

«.. لكى يتستر المجتمع على جرائمه يفتعل مظاهرات كاذبة مضللة حول شىء ما يشغل به الأذهان عن خطاياه .. ولما كنا نحمل استعدادا موروثا للإحساس الحاد بالخطايا الجنسية، فقد اختارها لتكون "البارافان" الذى يأتى وراءه آثامه!

والانسانية منذ آلاف السنين تكافح الخطيئة الجنسية بالمواعظ والزواجر، فما يزيدها ذلك الا اضطراما .. ماذا كانت عاقبة المواعظ التى اطلقتها المسيحية محذرة الرجل من المرأة والمرأة من الرجل؟ كانت العاقبة أن تحول النساء بادئ الأمر إلى عاشقات، أو ساحرات، أو عذارى فررن الى الدير.. حتى اذا دقت الساعة معلنة قدوم عصر النهضة، هبت الأباحية الجنسية اعصارا.. وصار البابوات والقساوسة على رأس أئمة العربدة!.. وحدث فى الأسلام رد فعل مشابه لهذا.. فمن منتصف القرن الثانى الهجرى الى منتصف القرن الخامس، جاوزت الأباحية نطاق الرشد، وراج الشذوذ الجنسى.. وكان بعض خلفاء العباسيين هم الرواد!

وزعم المجتمع الانفصالى من الخطيئة الجنسية لا يحول بينه وبين شر ألوان هذه الخطيئة، الا وهو الكبت .. والآثار التى يخلفها الكبت خطيرة: عشق الذات أو العادة السرية .. عشق المثل أو الشذوذ الجنسى .. أمراض النفس كالقلق والجنون!.

والكبت موجود فعلا فى مجتمعنا رغم المظاهر الخادعة، ولا يكمن خطره فى تدمير أخلاق ضحيته وحسب، بل ويهدد سلامة الأمة.»

خالد محمد خالد

اقرأ كتاب «هذا.. أو الطوفان» ملخصا فى هذا العدد

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩